

الأدب في صحافة العراق

منذ بداية القرن العشرين

تأليف

الدكتور عواد كمال الكبيسي

كلية الآداب جامعة بغداد

١٩٧٢ م - ١٣٩٢ هـ

الأدب في صحافة العراق

الأدب في صحافة العراق

منذ بداية القرن العشرين

تأليف

الدكتور عواد كمال الكبيسي

كلية الآداب جامعة بغداد

١٩٧٢ م - ١٣٩٢ هـ

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه يديل < mktba.net



المقدمة

هذا الكتاب في الاصل رسالة علمية فرغت من بحث مراجعتها قبل اكثر من ثلاث سنوات ، ولا شك أن تغيرات قد حدثت منذ ذلك التاريخ وحتى اليوم الذي ظهرت فيه هذه الرسالة على شكل كتاب يتداول بين الناس ، والانسان بطبيعته ينزع الى الكمال في كل عمل يقوم به ، وهذا بحد ذاته اعتراف ضمني بالنقص ، يمرّى المرء ويظهره مكشوفاً أمام نفسه على أقل تقدير ، ذلك اننا في كثير من الاحيان نعتقد رأياً معيناً ثم يبدو لنا بعد فترة أخرى انه يحتاج الى تعديل أو تحويل وربما الى تبديل أو تغيير ، فالمرونة في الاعمال الفكرية ضرورة تحتها طبيعة هذه الحركة ذاتها ، ولو أقنيت راجعت هذا البحث أكثر من مرة لظهر انه يحتاج الى اكثر من تعديل وإلى تخفيف أكثر من حكم ، ولهذا رأيت من غير المناسب أن أغير من طبيعة هذا البحث ما دام قد أخذ شكله المعروف بعد مناقشة اللجنة واجازتي عليه .

ثم قدمت البحث الى جامعة بغداد طلباً للمساعدة في تعضيد نشره على يسد بعض النقص البارز فيما يدعوا اليه ، وأحالتها جامعة بغداد بدورها الى خبير تطلب منه إبداء رأيه فيما اذا كان هذا البحث يستحق المساعدة والتعضيد . وهذا يعني أن الخبير مطالب لان يقول رأيه فيه فاذا لم يجد شيئاً يقوله ، فهو مطالب بشيء يقوله ، ولا شك فانه

سيجد ما يقوله ، لان الاعمال الفكرية تقوم أساسا على الاجتهاد حينما نجد سببا يسوغ لنا هذا الاختلاف ، وربما - وهذا احتمال وارد - يضطر الخبير تحت حكم الظروف الى البحث في الزوايا والخفايا عن الزلات والنواقص ، أو عن جملة يراها ركيكة أو عن فاعل حوالة الالة الى مفعول ، هو يهش لهذا دون ريب والا فقدت ثقة الدراسات العليا ، وما قد يترتب على هذه الثقة من أمور ، هذا واقع تفرضه طبيعة العملية ومع انني لم أعثر على مثل هذا الخبير ، الا انه شيء يمكن ان يقع ، وبالمناسبة فاني اشكر الخبير على بعض ملاحظاته القيمة مع انني اخاطئه في بعضها الآخر .

وعلى كل حال فقد تكون الجامعة مصيبة مع بحث آخر هو حصيله جهد فردي ، ولكن الذي لا نعتقده صائبا أن تعرض البحوث الجامعية المجازة على خير آخر مع انها ليست جهدا فرديا خالصا ، بل هي ثمرة تعاون الباحث والمشرف واللجنة التي أجازته .

أما عن البحث ذاته ، فلست أقف منه موقف الاطراء ، والا صرت كمن يحكم على نفسه بالادعاء والغرور ، وبالتأكيد فلست أقف منه موقف النظر بمؤخرة العين لا لشيء الا لأنه جهد بذلته ، ولو انني كنت أقدر على شيء أكثر من هذا لما قوائت ، فهو على ذلك ليس جهدا متواضعا ، ولا بعض جهد متواضع ، فأنا ما زلت انظر الى هذه العبارات وأمثالها على أنها من قبيل البهرجة والادعاء القارغ ، والا فأي واحد منا يقدر على شيء ويدخره ، او يعرف النقص ولا يتلافاه .

كل ما أريد أن أقوله : ان البحث في الدوريات عمل مرهق وشاق يعرفه جيدا من هم أكثر التصاقا به . وزيادة في الايضاح فان عملية حسابية بسيطة تريكم - عمليا - مدى العناء الذي يصادف الباحث وهو ينتقل بين هذه المجلدات الضخمة ؛ فجريدة كالبلاد مثلا صدرت لاکثر من ثلاثين سنة بست صفحات أو ثمان مضمومة في عدد أيام السنة في عدد سنوات الصدور ، ترينا حجم الجهد ، حتى لو اكتفى الباحث بتقليب هذه الصفحات . ذلك ان الاقتصار على أعداد معينة من صحيفة ما ، او على عدة صحف تصدر في فترة ما ، فيه من المحاذير التي لا يستطيع أن يأمنها الباحث ، فكم من فكرة أدبية او خاطرة طريقة كان من الممكن ان تضيع لو اننا اقتصرنا على شيء من ذلك .

وكانت الطريقة التي اتبعتها هي نقل اسماء هذه الصحف من خزائن المكتبات في كراسة خاصة لأنتقل بعد ذلك الى الصحف مباشرة فلا ابدء بالثانية حتى اكون قد انهيت الاولى ، وربما قضيت في دراسة مجلة واحدة اكثر من اربعة شهور ، وهكذا ، فكافت الحصيلة جهدا ووقتا وآلاف المسودات التي ما زلت احتفظ بها ، والذي يزيد المسألة تعقيدا ان هذه الدوريات لا تضمها مكتبة واحدة ولا مكان واحد ، فيضطر الدارس ان يدور بين مكتبة واخرى وفي مناطق متعددة بغية الحصول على صحيفة مطمورة ربما يجد فيها ما قد يفيد .

أما نظرنا الى الصحافة وموقفها من الادب فقد كنا ننظر اليها

على انها قامت في مراحلها الأولى على أكتاف الأدباء ، في مجتمع يطغى عليه الخمول والجهل ، فتحصلوا الكثير من الصعاب في نشر آرائهم ومبادئهم الجديدة ، فكانوا بحق جسرا الى النهضة الحديثة التي نقطف ثمارها اليوم ، ومع هذا كله فإن كثيرا من جهودهم ، بقيت حبيسة في ثنايا هذه الصحف ، وليس من المعقول أن تترك هذه الخواطر والأفكار في زوايا الإهمال ، مع انها في كثير من الاحيان تشكل لبنة أو أساسا يعتمد عليه في دراسة النهضة وتطورها ، كما انها تسد ثغرة لا يمكن التقليل من أثرها في المجال الثقافي .

هناك الكثير من الظواهر الفكرية ، كانت تجد طريقها الى الصحافة ، في وقت لم تكن وسائل الثقافة الاخرى منتشرة انتشارا كافيا بين الناس ، والباحث الذي يريد أن يتعرف هذه الظواهر ، لا يستطيع أن يستغني عن الصحافة ، لأنها عامل مهم من عوامل النهضة الحديثة في جميع أقطارنا العربية ، تفاعلت مع الأدب ، وامتزجت به امتزاجا غريبا ، فكان لها فضل ايجاد فنون ادبية جديدة ، وتطوير أخرى ، من هذه الزاوية كان انطلاقنا ، ونعني بها موقف الصحافة من الادب وأثرها في الفنون الادبية المختلفة ، ولهذا جاء البحث أبوابا ، يجمع الباب الواحد فصولا يغلب عليها طابع الترابط ، ففي الباب الأول أعطينا صورة واضحة عن الظروف التي عاشت فيها الصحافة والصعوبة التي يلاقيها الباحث اثناء دراسته لهذه الدوريات ، بينما

تناول الفصل الثاني دراسة مصادر الثقافة العراقية قبل ظهور الصحافة، وقد ظهر لنا في هذا المجال خطل الرأي الذي يذهب الى انعزال العراق عن العالم الخارجي . وفي الفصل الثالث تناولنا دراسة الصحافة العراقية في أدوارها المختلفة مع التركيز على الصحف الرائدة .

وفي الباب الثاني درسنا أثر الصحافة في اللغة وتطويرها لجعلها ملائمة مع العصر ، والاهتمام بمجلة لغة العرب لصاحبها الكرمللي الذي وقع عليه العبء الأكبر في هذا المجال . في حين كان الفصل الثاني يتناول الأديب ونظرته الى الأدب والحياة ، وكيف أن الجيل الأول منهم كانوا من الأدباء ، حتى اذا ظهر الجيل الاخير ، لم يول الناحية الفنية بما تستحقه ، وذلك لطغيان عامل السرعة وظهور المطبعة .

وفي الباب الثالث تناولنا بالبحث المقالة والقصة باعتبارهما من الفنون الأدبية في الصحافة ، ورأينا أن المقالة كانت تسير مع الاحداث فطنى عليها الجانب السياسي بفعل الظروف التي كان يمر بها العراق . أما القصة فكاثت ثمرة من ثمرات الصحافة بدأت مترجمة ، ولم تظهر القصة المؤلفة الا في بداية العقد الثالث من هذا القرن .

وقد أفردنا الباب الاخير للشعر ، لاهتمام الصحافة العراقية به، وعرضنا للمقصيدة العربية في صورتها الكلاسيكية ، ثم تناولنا بالبحث حركة الشعر الحر .

وقبل أن اختتم كلمتي هذه ، أبيع لنفسي الاعتراف بالجميل - وهذا كل ما املكه - لأستاذي المحترم الدكتور لطفي عبد البديع

على ما أسداه لي من نصح وارشاد كان لهما أكبر الاثر في متابعة هذا
البحث المرهق ، فقد أعانني بتوجيهه ونصحه ، وفتح لي قلبه ، رغم
ما كنت أسببه له من تعب ، كان يقابله بكل رحابة صدر .

الباحث

الباب الاول

الصحافة العراقية وظروفها

الفصل الاول

مصادر البحث

لعل خير وسيلة يستطيع أن يعتمد عليها الباحث في دراسة الصحافة، باعتبارها حركة فكرية وأدبية رافقت نهضتنا الحديثة ، هي الصحافة ذاتها .

لقد كانت الصحافة منذ ظهورها - وما زالت - سجلا لكثير من مظاهر الحياة الفكرية التي تقع في حينها ، فما أثيرت ضجة أدبية أو مشكلة ذات مساس بالحياة العامة الا وانعكس صداها في الصحافة . لقد وجد فيها الكثيرون ممن يشتغلون بالقضايا الفكرية أو القضايا العامة أداة صالحة للتعبير عن آرائهم . ومن هنا تنوعت اتجاهاتها وموضوعاتها ، فصار من الصعوبة بمكان الامام بكل هذه الجوانب . يضاف الى هذا ان الصحافة العراقية وقعت تحت رحمة السياسة

وأهوائها طيلة فترات حياتها المختلفة ، الأمر الذي أدى الى وجود تناقض واضح في اتجاهاتها ، غير ان الباحث المدقق يستطيع مع هذا أن يعطي صورة قريبة من الوضوح والدقة لتاريخ هذه الصحافة حينما يطلع على هذه المجلدات الضخمة التي حفظتها لنا المكتبات العامة والخاصة .

ولعل أهم صعوبة يواجهها الباحث في هذا المجال هي مشكلة الحصول على ثبت رسمي جامع لكل ما صدر في العراق من صحف ومجلات منذ ظهور جريدة الزوراء الرسمية سنة ١٨٦٩ وحتى الآن ، مهما بذل من جهد وعناء ، في دوائر الدولة وفي غير دوائر الدولة . فكل ما في وزارة الارشاد العراقية كراسة صغيرة مخطوطة تحتوي على بعض أسماء الصحف دون ترتيب يذكر لا في تاريخ الصدور ، ولا الفترة التي عاشت فيها هذه الصحيفة او التاريخ الذي أغلقت فيه ، بل انها لا تذكر حتى اسم محررها ، وكثيرا ما أدى ذلك الى انقطاع التسلسل بين الاجيال ، فكم من شعراء في الفترة المظلمة مثلا ، أودت بهم الأيام وضاع اتناجهم في الزوايا المهملة فلم نعد نرى غير قصائد موزعة هنا وهناك ضاع أكثرها وبقي القليل الذي جمع في الايام الاخيرة ، ونشر في الصحف ليطلع عليه القراء .

ولو أننا اطلعنا على أكثر ما قاله شعراء تلك الفترة لكان من الممكن أن لا تكون أحكامنا قاسية وعامة بحيث نصف كل ما قاله شعراء هذه الفترة على انه شعر تقليدي لا يهتم الا بالقوالب الشكلية والصناعة

اللقضية « شعراء العراق في القرن الثامن عشر الميلادي كثيرون ، وأغلبهم من المكثرين ، ومع توفر عددهم لاتكاد ترى لهم تراجم ، وما ذلك الا لضعف همهم رجال ذلك العهد ، أو لاشتتار أولئك الشعراء في عهد معاصريهم ، فظنوا ان شهرتهم تنتقل خلفا عن سلف ، وما خالوا أن مالا يدون في بطون الكتب والاستفار لا يصبر على توالي الاعصار »^(١).

وقد انتقلت هذه العدوى الى الصحف ذاتها فأصبح من العسير بمكان أن نحصل على كثير من هذه الصحف أو حتى على فهراس كاملة تتناول ما طبع في البلاد من كتب وصحف ومجلات ، يذكر المؤرخ العراقي المشهور الاستاذ عبد الرزاق الحسيني أنه « لا شيء أصعب على الباحث في هذه البلاد من تصديه لوضع الفهارس الصحيحة لما صدر فيها من صحف أو كتب أو مجلات أو غيرها من المواعين الادبية كالنشرات والمقالات مثلاً . وليس ثمة عمل أشق على المؤرخ من الحصول على الفهارس الكاملة لمطبوعات هذه الديار وعندنا أن اللوم في هذه الناحية لا يوجه الى فئة أو هيئة او حكومة وانما يرجع الى عدم ممارسة الشرق العربي مهمة التدوين المنظم وحفظ السجلات الكاملة ، وقد لا نكون مخطئين اذا قلنا انه لا يوجد بالعراق اليوم مطبعة تحتفظ بكافة مطبوعاتها ومنشوراتها ، ولا نغالي اذا قلنا أنه ليس لدى الحكومة نفسها قائمة بما

(١) مجلة لغة العرب عدد ٩ سنة ١٩١٢ ص ٣٢٩ .

صدر في العراق من كتب وصحف ومجلات » (١) . وهذا ما لاحظناه ونحن نبحت عن هذه التفهرس في دوائر الدولة .

وأول كتاب ألفت في هذا المجال هو كتاب الاستاذ عبد الرزاق الحسيني ، وهو ليس كتابا بالمعنى المفهوم ، بل هو أقرب الى المعاجم منه الى أي شيء آخر ، ففيه يذكر جميع الصحف التي برزت في العراق منذ صدور أول صحيفة فيه حتى نهاية سنة ١٩٣٣ م وعندها يتوقف ، وميزة هذا المعجم انه كان وعاء احتفظ بجميع الصحف واسماء محرريها وتاريخ صدورها واحتجاجها وقد اكتفى بذلك دون الإشارة الى أهمية هذه الحقيقة أو تلك من الناحية الفكرية والأدبية والسياسية بصورة عملية ، ودون أن يوقفنا على أسلوبها وكتابها والآثار التي تركتها هذه الصحف في حينها أو السبب الذي أغلقت من أجله ، ولو فعل المؤرخ مثل هذا لكافت الفائدة أعم وأشمل ، وبخاصة وإن كثيرا من الصحف التي ذكرها لا نعرف عنها سوى الاسم ، فتتوיר الالهكار مثلا « مجلة سياسية أدبية دينية تصدر في بغداد مرة في كل شهر لصاحبها عبد الهادي الاعظمي ومديرها المسؤول نعمان الاعظمي ، برز عديدها الاول في العشرين من شعبان سنة ١٣٣٨ هـ بأربعين صفحة من القطع المتوسط فاستمرت تصدر سنة كاملة ثم احتجبت » (٢) .

وهكذا يسير المؤلف مع سائر المجالات والجرائد التي ذكرها في

(٢) عبد الرزاق الحسيني . تاريخ الصحافة العراقية ص ٧ .

معجمه والتي بلغت أربعا وثمانين صحيفة بين مجلة وجريدة .
ولعل خير ظاهرة نستشفها من هذا المعجم وغيره ، هي سرعة اختفاء
الصحيفة ، حتى ان الكثير من هذه الصحف لم يكن ليتعدى العدد
الواحد ومن ثم يختفي بعد ذلك مباشرة ، فمجلة الرصافة مثلا « مجلة
شهرية دينية علمية أدبية تاريخية لصاحبها محمد صادق الاعرجي برز
عدها الاول في ٩/٤/١٩١٣ . ولم يصدر منها سوى عدد واحد » (٤) .
وسوف نتقف على أسباب هذه الظاهرة بصورة واضحة في فصل
قادم .

واصدر المرحوم روفائيل بطي كتابا عن الصحافة العراقية هو
مجموعة محاضراته ألقاها على طلبة معهد الدراسات العربية التابع لجامعة
الدول العربية يشبه أن يكون مدخلا عاما الى الصحافة ذاتها ، والاستاذ
بطي رائد من رواد النهضة الحديثة في العراق ، وصحافي معروف لمع
اسمه منذ بداية العقد الثالث من هذا القرن ، يغلب الناحية التاريخية على
ما سواها ويتسم كتابه هذا بالاختصار وقلة الامثلة مع انه كان قريبا من
الصحف التي كانت تصدر حينذاك والتي لم نعرف عنها اليوم سوى الاسم .
وصدر حديثا كتابان لمؤلف واحد يحملان نفس العنوان تقريبا
مع تغيير بسيط في اللفظ ، الاول تحت عنوان (الصحافة العراقية
ميلادها وتطورها) وقد صدر في سنة ١٩٦١ ، والثاني تحت عنوان
(صحافة العراق تاريخها وكفاح أجيالها) وقد صدر في سنة ١٩٦٩ وهما

(٤) مجلة الحرية عدد ٩ سنة ١٩٦٥ ص ٥٤٢ .

صورتان لاصل واحد ، والقاريء المدقق لكليهما لا يستطيع أن يجد فرقا بينهما الا في صيغ التعبير او في الاشكال الظاهرة فحسب ؛ بل انه يستطيع ان يستغني بأحدهما عن الآخر؛ والظاهر ان الاستاذ فائق بطي انبرى للتأليف في موضوع يبدو انه لم يلم باطرافه فراح يجمع الآراء ، من هنا وهناك دون الاشارة الى مصدرها ولولا خشية الاطالة لعرفنا كثيرا من هذه الشواقص ، نكتفي بايراد بعضها دفعا لما قد يوجه اليها من تحامل .

ولعل أول نقطة فلاحظها هي تكراره للمقتبسات في كلا الكتاتين دون زيادة أو نقصان ودون الاشارة الى مصادرها ، ففي الصفحة الثامنة من كتابه الاول مثلا يأخذ من كتاب سلامة موسى (الصحافة حرفة ورسالة) النص التالي « الصحيفة مصنع يجب أن لا يقل ٠٠ » ومن ثم يعيد هذا الكلام في الصفحة السابعة من كتابه الثاني ، لا ضير في ذلك لو أنه ذكر اسم المرجع وصاحبه والصفحة التي أخذ عنها ، ولا أعرف أن كتابا علميا يخلو من هوامش المراجع كخلو هذين الكتاتين .

وفي الصفحة الثالثة عشرة ينقل المؤلف الخبر التالي عن مجلة النجم « ان المعلومات التي جاء بها الرحالة الاجانب ٠٠٠ » ومن ثم يعيد نفس هذا الكلام في كتابه الثاني وفي نفس الصفحة بالتام .

هذا الخبر لم ينقله من جريدة النجم مباشرة كما قد يبدو للقاريء وانما نقله من كتاب الاستاذ روفائيل بطي الذي كان معاصرا للصحيفة ، ولكنه لم يشر الى ذلك .

اما ما ذكره عن الزوراء وغيرها من الصحف الاخرى فممنقول

بنصه عن كتاب الاستاذ الحسني أو كتاب الاستاذ بطي . وكان من الممكن أن يتحاشى هذا كله لو أنه كان يملك الصبر واطلع على الصحف بنفسه ، فلجريدة الزوراء وغيرها اعداد لا بأس بها يستطيع الاستفادة منها لو انه كلف نفسه مراجعتها .

واكثر من هذا انه حينما يتعرض لذكر العوامل التي ساعدت على تطور الصحافة العراقية فانه يكررها في كلا الكتابين ، ففي الصفحة الثالثة والعشرين مثلاً من كتابه الاول يذكر الاستقلال والثورة العراقية وظهور الأحزاب كعوامل مساعدة ومن ثم يعيد هذا الكلام في كتابه الثاني وذلك في الصفحة الخامسة والثلاثين وما بعدها دون تغيير يذكر في المضمون مع اختلاف بسيط في الالفاظ . كل هذا ما كان ليكون لو انه اعتمد على الصحف مباشرة ، ولما جاء بحته مكرراً متناً بها رغم انه وفي مجموعه لا يعطي صورة دقيقة عن تطور الصحافة في العراق .

وما دمننا بصدد التعليق على هذه الكتب فلا بد من التعرف على كتاب صدر حديثاً تحت عنوان (الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية من سنة ١٨٦٩ الى سنة ١٩٢١) للاستاذ منير بكر التكريتي ، ومع اننا لا نؤيد الحصر في مثل هذه الموضوعات لتداخلها واعتماد بعضها على الآخر فانه كان مسبقاً بهذه التجزئة ولم يزد عليها الا بكثرة النصوص والامثلة التي تغلب على سائر الكتاب ، فهو مثلاً يدرس في الفصول الاولى حالة العراق من النواحي السياسية والاجتماعية والثقافية وهي دراسة تقليدية أشبعها المؤرخون بحثاً

تجد الكثير منها في كتب المذكرات فضلا عن الكتب التاريخية التي لم تترك صغيرة ولا كبيرة إلا وأحصتها ، من أمثال الثورة العراقية للحسيني، والثورة العراقية الكبرى للفياض وتاريخ القضية العراقية للبصير وأربعة قرون من تاريخ العراق الذي ترجمه الاستاذ جعفر خياط وغير هذا الكثير ، وان جل مؤلفي هذه الكتب كانوا من اولئك الذين عاصروا الاحداث أو كانوا قريين منها ، وكم يكون جميلا لو انه درس هذه الاحوال العامة من خلال اطلاعه على الصحف التي كانت تصدر في تلك الفترة ، لا ان يخضع الصحافة نفسها لهذه الدراسة .

وهذه نقطة شائعة في كثير من الدراسات الأدبية حينما يجعلون الأدب تابعا لهذه الاحوال فينصب اهتمامهم عليها لا على الادب ذاته ، اذ ليس هناك اكثر من الادب والصحافة التصاقا بالعصر وعرضا لكثير من الظواهر الفكرية والسياسية التي تحدثت في حينها ، والظاهر أن الاستاذ منير بطريقته هذه يكون قد سد على نفسه الطريق لأنه يعود في فصول اخرى ليكرر ما بدأ به حينما يدرس المقال في الاتجاهات الثلاث التي ذكرها ، وفي هذا كله تكرار لامبرر له، تتغلب فيه الناحية التاريخية على ما سواها .

والاستاذ منير فوق هذا كله يفصل الصحيفة عن محررها فهو يدرس الصحيفة في فصل خاص ثم يعود في فصل آخر للدراسة محررها اننا لا نستطيع أن نفهم الاديب مثلا بم عزل عن ادبه ولا الصحفي بم عزل

عن صحيفته ، وهل يعرف الاديب الا بأدبه والصحفي الا بصحيفته •
ان دراسة تاريخ حياة انسان ما شيء مجرد في حد ذاته ، وتبقى
هذه الدراسة عديمة الجدوى اذا نحن لم ندرس هذه الشخصية من
خلال الافكار والآراء التي يقدمها في فترة معينة لاصقة بالعصر . وبعبارة
أوضح ان دراسة الاستاذ داود صليوه (٥) تكون عديمة الجدوى اذا
لم تقترن هذه الدراسة بجريدة صدى بابل التي اصدرها في نهاية العقد
الاول من هذا القرن ، لأن هذه الجريدة تعكس الى حد ما ثقافته
واتجاهه ورأيه • وعلى كل حال فالكمال امر بعيد المنال وبخاصة في
الدراسات الانسانية التي تعتمد على الاختلاف في وجهات النظر ، الأمر
الذي يساعد على نمو الفكر والثقافة في حياتنا العلمية ، والا فالكتاب
بمجموعه دراسة علمية جادة لها اهميتها في هذا الموضوع البكر الذي
نحن بأشد الحاجة اليه والى أمثاله •

وبناء على هذا كله جعلنا الاهتمام ينصب على الصحافة مباشرة
باعتبارها ضرورة تقتضيها طبيعة البحث أولا ولأن كل ما قيل حول
الصحافة تغلب عليه الناحية التاريخية الامر الذي يقلل من أهمية هذه
البحوث بالنسبة لموضوعنا الذي نحن بصددده • ولكن مع هذا فاننا
ما زلنا حيث بدأنا ، فالألا مبالاة هي هي لم تتبدل ، والمكتبات العامة
التي تخضع لسلطة الدولة ما زالت تفرق بين هذه الصحف ، تشترك في
بعضها وتترك البعض الآخر ، كل ذلك لاعتبارات سياسية أو خاصة،

(٥) سيأتي ذكره فيما بعد .

الامر الذي يؤدي الى اهمال كثير من الصحف أو ضياعها . بينما المفروض بهذه المكتبات ان تكون الوعاء الطبيعي لجميع وسائل الثقافة بما فيها الصحف ، فتحفظ بالدوريات المختلفة التي تصدر في فترات متعاقبة بغية تقديمها الى الاجيال اللاحقة ، وبهذا تكون قد أدت الخدمة التي وجدت لها اصلا .

ان جريدة كالهاتف مثلا صدرت اكثر من عشرين سنة غير أن المكتبة العراقية لم تحتفظ الا بأعداد أربع عشرة سنة ، وكان عليها ان تبحث عن الاعداد الباقية لتنضمها الى الاوائل بأية طريقة كانت ، لما لهذه الجريدة من سجل رائع في تطور أدبنا العراقي ، ان شيئا من هذا لم يحدث ، وبهذا خلت المكتبة العراقية من مصدر فكري وثقافي هام في دراسة النهضة الأدبية في البلاد (٦) .

وعلى هذا يجد الباحث نفسه مضطرا لأن يرقاد المكتبات الخاصة بحثا عن هذه الصحيفة أو تلك رغم العناية الذي يلاقيه في تجواله هذا وفي مناطق مختلفة من العراق ، حينما لا يجد في المكتبات العامة كثيرا من الصحف التي يعتمد عليها أو التي تساعد في الوصول الى حقيقة علمية .

(٦) ذكر لي الاستاذ جعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف ان موفدا من مكتبة جامعة كاليفورنيا الامريكية اشترى اعداد جريدة الهاتف لعشرين سنة وهكذا حرم العراق من هذا المصدر الفكري .

الفصل الثاني

مصادر ثقافة العراق

في القرن التاسع عشر

ذهب كثير من مؤرخي الأدب والسياسة في العراق الحديث الى أنه كان منعزلاً عن العالم العربي والعالم الخارجي طيلة القرن الماضي وحتى الحرب العالمية الاولى ، وأنه في خلال هذا كله كان يعيش منطوياً على نفسه لا يعبأ بما كان يجري حوله .

لقد اسقط هؤلاء المؤرخون من حسابهم الصحافة باعتبارها وسيلة هامة من وسائل الثقافة الحديثة ولو كلّفوا انفسهم عناء البحث والتحري في صحافتنا العربية التي كانت تصدر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر لغيروا كثيراً من احكامهم تلك .

وقبل أن نناقش هذه المسألة او نرد عليها ، فحب ان نتعرف آراءهم أولاً ومن ثم نورد الامثلة العملية التي تؤيد ما ذهبنا اليه ، ومن هؤلاء المؤرخين الدكتور يوسف عز الدين الذي كرر هذا الرأي في كثير من كتبه ، وألحق السنوات التي سبقت نهاية الحرب العالمية الاولى بالعصر المظلم قال : « هذه الثماني عشرة سنة من حكم الاتراك

لم تكن الا استمرارا لحالة العراق في القرن التاسع عشر وتكاد تكون جزءا لا يمكن بتره عنه » (١) قد يكون هذا صحيحا اذا نظرنا الى وضع العراق السياسي ، أما من الناحية الثقافية فالمسألة مغايرة تماما لهذا الرأي وهذا ما سنثبت به بعد قليل . وقد ذهب الى هذا الرأي آخرون نذكر منهم الاستاذ ابراهيم الهائل حيث قال « غير ان العراق بقي بحكم موقعه الجغرافي بعيدا عن التيارات الحديثة فقد حال النفوذ التركي فيه دون كل شيء يسمى ثقافة حديثة فلا صحافة تكتب وترشد ... ولا مدارس تثقيف ، لهذا ظل العراق في مادته يعتمد على التراث القديم » (٢) والى مثل ذلك ايضا ذهب الاستاذ حبيب الراوي في مقالاته التي كتبها في مجلة المعلم الجديد عن التجديد في الشعر العربي المعاصر قبل اعلان الدستور العثماني ومما جاء فيها « ثم ران الظلام على أدبنا العربي حينما اكتسحت البلاد جموع التتر والمغول فدمرت معالم الحضارة فيها وجعلت كتبها طعما للثيران ، فانطوت النفوس وفترت العزائم وقعدت الهمم عن طلب العلم وأخذ الناس يتلهون بالتوافه من الامور حتى ذوت الحياة العلمية وتقلص ظلها ، استمر ذلك مدى العهد العثماني حتى كانت بداية القرن العشرين حينما انبثق الوعي القومي في الشرق والغرب » (٣) .

(١) الدكتور يوسف عز الدين - الشعر العراقي الحديث - ص ٩ .

(٢) مجلة كلية الآداب عدد ٨ سنة ١٩٦٥ ص ١٢٩ .

(٣) مجلة المعلم الجديد عدد ٦ سنة ١٩٥٦ ص ١٥ .

وهذا ما ذهب اليه الشيخ محمد رضا الشيباني فيما نشره في جريدة الزمان ^(٤) ، اما الاستاذ بير روس مدير المعهد الثقافي الفرنسي سابقا ، فكان يذهب الى أبعد من هذا وهو يقارن بين التطور الثقافي في العراق وبين تطوره في بعض الاقطار العربية « واذا كان لهذه النهضة بعض التخلف عن مصر وسوريا فمرد ذلك الى أسباب جغرافية فرضت على العراق من ازواء وانطواء . ان هذا البلد وُلد بعد الحرب الاولى » ^(٥) . وهكذا كان رأي بعض مؤرخي السياسة الذين ذهبوا الى ان العراق لم يتصل بالبلاد العربية الاخرى الا في بداية هذا القرن ^(٦) .

وقبل أن نناقش هذه الآراء نجب ان ننبه الى نقطة مهمة وهي ان عملية الانتقال الثقافي ليست عملية نقل سلعة معينة من قطر تكثف فيه الى آخر تقل فيه بحيث يعرف الناس كل هذه السلعة بهذه السرعة والسهولة . ان عملية الانتقال الثقافي عملية دقيقة يشعر بها من هم على صلة بها فحسب وتزداد المسألة صعوبة حينما يكون الجهل متفشيا بين الاغلبية العظمى التي لا تولي هذه الناحية ما يمكن ان تستحقه .

فالعملية الثقافية لا تعدو أن تكون مجرد بصيص لا يشع بنوره الا اذا تمهد بالرعاية والعناية المستمرة التي تغذي بروافد مستمرة لكي

(٤) انظر جريدة الزمان عدد ٣٨١٤ سنة ١٩٤٩ .

(٥) جريدة البلاد عدد ٥٢٣٣ سنة ١٩٥٨ .

(٦) انظر عبد الله الفياض الثورة العراقية الكبرى ص ٢٦ .

يستطيع الاستمرار على بث هذا الشعاع • ان كثيرا من الاشاعات الفكرية التي تظهر بين حين وآخر لا يمكن أن تموت بهذه السرعة التي يظنها البعض ، دون ان تترك أثرا في حياة الناس مهما كانت قوة ذلك الاثر •

فالمصاحفة العربية التي كانت تصدر في الاستانة أو في بعض البلاد العربية التي سبقت العراق الى الاتصال بالعالم الخارجي كانت من المصادر المهمة التي لا يمكن اغفال أثرها على الناحية الثقافية في العراق • ومن هذه الصحف جريدة الجوائب التي كانت تصدر في الاستانة لصاحبها أحمد فارس الشدياق ، وكان علما من أعلام النهضة العربية الحديثة ، أدى للعربية خدمات لا تنسى في الجوائب وفي مؤلفاته الكثيرة واليه ينسب وضع اصطلاحات كثيرة في اللغة العربية وبخاصة في ميادين العلوم والفنون ذكرها الاستاذ جرجي زيدان في كثير من كتبه ، وقد ساعده على هذا كله اتقائه لبعض اللغات الاجنبية وخبرته الطويلة في العمل الصحفي ، حرر في جريدة الوقائع أيام محمد علي باشا وفي جريدة الرائد التونسية حينما استدعاه باي تونس ، حتى امتدت شهرته الى آفاق بعيدة فاستدعاه السلطان الى الاستانة وأصدر الجوائب سنة ١٨٦٠ م فكافأ بحق شعلة وهاجة في خدمة لغة الضاد وآدابها • والذي زاد في أهمية الجوائب أنها كانت تصل الى كثير من مدن العالم العربي • وكانت جرائد باريس ولندن « تأتي بذكرها وذكر محرريها في الكلام عن سياسة الشرق مستشهدا بأقواله وكانت تلقبه بالسياسي الشهير

والاخباري الطائر الصيت » (٧) .

أما فيما يختص بالعراق فقد جاء في اعدادها الاولى ذكر الموصل كمدينة توزع فيها هذه الجريدة ، ولها وكيل يشرف على تنظيم هذا التوزيع (٨) . وتضاف مدينة بغداد الى قائمة المدن التي تصلها الجريدة في العدد التالي مباشرة وهو العدد ١٦٢ والمؤرخ في ١٨٦٥ ، ووكيلها في بغداد هو (فتح الله عبود وأولاده) . وهذا يعني أن لجريدة الجوائب قراء في مدينة بغداد بصرف النظر عن عدد هؤلاء القراء ، بل اننا لنلاحظ طفرة أخرى في الاعداد التالية وهي أن المرحوم أحمد فارس الشدياق كان على صلة بكثير من أعلام العراق المشهورين في حينهم وبخاصة حينما كانوا يزورون الاستانة « قدم حضرة العلامة والتحرير الفهامة عبد الباقي افندي ابن افضل المتأخرين وخاتمة المفسرين السيد محمود افندي شهاب الدين قدم من الزوراء وهو معدن العلماء والفضلاء ومعه اخوه الحبيب وهو من بيت مجد في العراق ، وقد تشرفنا بالاجتماع بحضرة الأفندي المومى اليه مرارا فوجدناه فاضلا لودعيا ، وتكرم علينا من تأليفه المفيدة وآثاره الحميدة بكتاب في مناسك الحج ويااله من كتاب فريد ... » (٩) وهذا يعني ان الصلات الثقافية بين العراق والاستانة كانت قائمة فعلا ، وان كثيرا من أدباء

(٧) جرجي زيدان - تراجم مشاهير الشرق - ج ٢ ص ٧٨ .

(٨) انظر الجوائب عند ١٦١ سنة ١٢٨١ هـ .

(٩) الجوائب عدد ٢٠٣ سنة ١٨٦٥ .

العراق وأعيانه كانوا يقومون بهذه الزيارات في فترات مختلفة وانهم كانوا يقدرّون أهمية الصحافة كوسيلة ثقافية مهمة ، فينشرون فيها ما يحلو لهم أن ينشروه ، وأن هناك كتباً تؤلف وتهدى ، الأمر الذي يدل على وجود حركة ثقافية لا يمكن نكرانها ، كالذي يذكره المرحوم الشدياق عندما قدم كتابه سر الليال في القلب والابدال للحضرة العلامة عبد الباقي افندي الآلوسي ليكتب له كلمة بمناسبة صدوره (١٠) .

ليس هذا فحسب بل ان كثيرا من أدباء العراق كانوا يرسلون ما تجود به قرائهم الى هذه الجريدة « قد وردت اليها من الزوراء منبع الافاضل والعلماء قصيدة فريدة يأبى الله أن تنثى في حقائب الاحقاب العديدة ، نظمها العالم العلامة والتحرير الفهامة نابغة زمانه ذو الفضل الجليل عبد الحميد أفندي الآلوسي » (١١) وهذه قصيدة أخرى أرسلها عراقي آخر « هذه القصيدة للشاب الذكي والأديب اللوذعي السيد احمد شاكّر زين مجد الدين افندي البغدادي » (١٢) وهناك شعراء كانوا على صلة بالجريدة يبحثون اليها بقصائدهم في فترات مختلفة ، منهم عبد الباقي افندي زاده والشاعر العراقي المشهور عبد الغفار الأخرس الذي قالت فيه جريدة الجوائب « رضي زمانه وبخترى عصره

(١٠) النظر الجوائب عدد ٢٠٤ سنة ١٨٦٥ .

(١١) الجوائب عدد ٢٠٤ سنة ١٨٦٥ .

(١٢) ن . ن . عدد ٢١٢ سنة ١٨٦٥ .

واوانه الجوهر الافس السيد عبد الغفار الاخرس يرثي معن عصره
عبد الغني أفندي :

سأبكي واستبكي عليك المعالي

وأسكب من عيني الدموع الجواريا (١٣)

كما كانت الجريدة تهتم بأخبار العراق وتشر عنه النوادر والطرف
من ذلك « مما أظرب مسامعنا من أخبار الموصل هذه المرة غاية الاطراب
وحملنا على الاستغراب والاستعجاب هو أن الاديب البليغ المعالم
الفاضل السيد شهاب الله عدة اولاد نجباء ، وعلى الخصوص واحد
منهم فقد نبغ في صناعة الشعر وله من العمر عشر سنين » (١٤)

ولم تكن جريدة الجوائب وحدها هي التي تصل الى العراق بعد
منتصف القرن الماضي بل كانت هناك مجلة أخرى لا تقل عنها شهرة
وأهمية تلك هي مجلة الجنان التي كانت تصدر في بيروت سنة ١٨٧٠
فكانت سجلا رائعا للنهضة العلمية والادبية في البلاد السورية «والمؤرخ
الصحفي ينظر اليها على انها أول مجلة ظهرت في الشرق العربي وكانت
سجلا للنهضة الفكرية في البلاد السورية وكانت ميدانا فسيحا تتبارى
فيه أقلام الكتاب في الأدب والعلم والسياسة والطب والتاريخ والقانون
والفكاكة والملح ... وهي في نظر المؤرخ أم المجلات في جهات شتى

(١٣) الجوائب عدد ٢١٤ سنة ١٨٦٥ .

(١٤) ن . ف عدد ٢٨٣ سنة ١٨٦٧ .

من أقطار العالم العربي » (١٥) .

أما مؤسسها بطرس البستاني فكان من أعلام اللغة البارزين وهو مؤلف قاموس محيط المحيط « أخذه عن أشهر متون اللغة ولا سيما الفيروز آبادي وصحاح الجوهري ، وما يمتاز به أنه جمع كثيرا من الألفاظ العامة وفسرها بالألفاظ الفصحى ، وأوضح كثيرا من أصول الألفاظ الأعجمية كان أصلها مجهولا أو مهملا ، وادخل فيه كثيرا من المصطلحات التي حدثت في اللغة بحدوث العلوم الحديثة المنقولة عن اللغات الأعجمية » (١٦) . وقد راجت هذه المجلة في العالم العربي ووجدت لها صدى في العراق منذ السنة الأولى لظهورها ، حتى أننا لنجد من يوليها عناية تليق بها في بغداد ، يدل على ذلك تلك الرسالة التي نشرتها المجلة في سنتها الأولى تحت عنوان بغداد وقد جاء فيها : « ورد إلينا من بغداد من جناب فتح الله أفندي خياط ، تحرير لطيف ، وطلبه رسالة واردة إليه من سيادة علي رضا أفندي فاروقي ، جوابا على تحرير كان قد أرسله إلى جناب المومى إليه مع نسخة من الجنان . وإذا كانت تلك الرسالة لطيفة المباني رفيعة المعاني ، وكنا نرغب تنسيط أسباب المواصلات بين الشام ودار السلام التي اشتهر أهلها في سالف الأزمان بالمعارف ، واجابة لطلب الأفندي المومى إليه نوردها في الجنان وهي الآتية : جناب الخليل والرفيق المحب . كيف يمكن أن

(١٥) الدكتور عبد اللطيف حمزة - ادب المقالة - ج ١ ص ٢٠٧ .

(١٦) جرجي زيدان - بناء النهضة - ص ١١٦ .

اصف ما حل بي من السرور لما وقع نظري على نسخة الجنان التي
تكرمت بارسالها الي ، فأخذتها بعد التكرم وشمنت منها عرف النسيم
وأردت ان ادخل بابها باذن رضوانها . كيف لا أعظمها وقد نسجت
أبرادها أنامل الادباء وحاكت مطارفها أكف الفصحاء ... لقد سال
ماء حياة الفصاحة في نواحيها ، وهب نسيم البلاغة في أرجاء فاديها ،
فطنفت أفتنظف يد الفكر من ثمارها التي هي للفضل جامعة ... وشكرت
الباري حيث انها قد أعلت شرف لغتنا العربية الشريفة ، انها تهب
الأدباء الأمن والأمان ... وألتمس من لطفك أن تقيّد اسمي في
جريدة هؤلاء الاخوان ، وتسطر رسمي في سجل أولئك الأخدان ، وان
كنت لا أستحق الانتظام لسلكهم والدخول للمكهم . الا ان الأدباء
محبو الوطن يقبلون بفضلهم من غبى منهم ومن فطن وسوف يتحفونني
بما طبع منها وما لم يطبع لأعوذ ساجدا ذيل السرور » (١٧) .

ولم يكتف كاتب الرسالة بالسطور الرقيقة التي كتبها بل اتبعها
بشعر كله اطراء بها وبصاحبها ويطلب منه أن يسجل اسمه في قائمة
المشاركين .

ومما يلحظ القول بانعدام الصلات الثقافية ، بين العراق وبعض
الاقطار العربية قبيل الحرب العالمية الاولى ما ذكره قاريء آخر في
رسالة له بتاريخ ٢٧/٦/١٨٧٠ يقول فيها « وقد طلب اليّ أهل العلم

والادب من اسلام^(١٨) هذه المدينة وحثوني ان انظم لها تاريخا في بيروت وجنانها ... ارجوكم ان تدرجوه في الجنان عن لساننا . والمراد من نشره في الجنان هو ان يتحقق عند الخاص والعام ان العلائق الأدبية العلمية هي جارية بين بغداد وبيروت كما كانت قديما فان اهل العراق لكثرة ميلهم الى العربية والاشعار ونحو ذلك يصبون جدا الى مطالعة الصحف المحتوية على ما تطيب به النفس وترتاح اليه الشئشئة العربية :

غدت بيروت هذا الزمان تمن على البلاد بلا امتنان^(١٩)
 بفعل افاضل جادت علينا قراتهم بتجديد المعاني
 وجدنا في الجنان له كلاما طبعناه ولكن في الجنان
 وتلك صحيفة غنت واغنت فما فضل الأغاني والعنواني^(٢٠)
 ويبدو ان صيتها قد عرف بين الناس كمجلة لها وزنها العلمي والادبي حتى صرفا نجد لها مشتركين في العراق ، وقد كان البريد منتظما بين هذه البلاد والبلاد السورية رغم ما كانت تشكو منه المجلة حيث جاء فيها « انه في السنة الاولى من نشر جرائدنا كانت ترد الينا تشكيات كثيرة من وكلائنا ومشتركينا في ولايات سوريا وحلب وأدنه وبغداد والبصرة وجدة ، بسبب عدم وصول الجرائد للمشاركين

(١٨) كذا في الاصل والمقصود هنا (مسلمي) هذه المدينة .

(١٩) البيت مختل الوزن ويستقيم بوضع (في) قبل كلمة هذا .

(٢٠) انظر عدد (١٤) سنة ١٨٧٠ .

وصولا منتظما ، مع اننا كنا نبذل كل الجهد في ضبط تقديرها من الادارة وبعد الفحص المدقق ، والملاحظة هنا وفي الجهات وجدنا أن السبب هو عدم ضبط مستخدمى البريد الذين كثيرا ما كانوا يسلمون الجرائد الى غير أصحابها أو يبيعونها أو يرسلونها الى غير مكائنها » (٢١) .

وقد استطاعت المجلة - على ما يبدو - تفادي ذلك في أعدادها اللاحقة فكافت تطلب الى قرائها في الديار المصرية أو الأوربية مخاطبتها ليتسنى ارسال الجرائد اليهم رأسا من غير واسطة (٢٢) .

أما اتصال العراق بالصحافة المصرية فقد جاء متأخرا بالنسبة للصحف اللبنانية وجريدة الجوائب وربما كان السبب في ذلك هو عدم وجود حدود مشتركة بين القطرين الشقيقتين ، ولكن مع هذا فقد كان لمجلة المقتطف قراء في العراق قبل نهاية القرن التاسع عشر فقد جاء في عددها الصادر بتاريخ ١٨٩١/٤/١ وتحت حقل مسائل وأجوبتها ما يلي « بغداد داود أفندي فتو الصيدلاني : بعض الأدوية تأتي من أوروبا حبوبا ملبسة بمادة بيضاء نقية صلبة وقد جربنا تلبسها بطرق عديدة ولم نقر بالمطلوب فكيف يتم ذلك ؟ » (٢٣) . ومن المحتمل جدا أن تكون المجلة قد وصلت قبل هذا التاريخ بدليل ان هذا السائل كان يعرف فضل المجلة في النواحي العلمية فكان منه هذا السؤال ،

(٢١) الجنان عدد ١٣١ (سنة ١٨٧٢ ص ٤٣٣ .

(٢٢) انظر الجنان عدد ٢٤ سنة ١٨٧٢ ص ٨٢٩ .

(٢٣) مجلة المقتطف عدد ٧ سنة ١٨٩١ ص ٤٨٦ .

واستمرت أسئلته في الاعداد التالية حول موضوعات لا تخص مهنته ، ومن ثم تتعدد الأسئلة بتعدد أصحابها ، لتتحول الصحافة المصرية في بداية هذا القرن الى أهم مصدر ثقافي للعراقيين ، وصرنا نرى مظاهر الاحتجاج حينما تمنع صحيفة مصرية من دخول العراق ، كالذي نشرته جريدة الرقيب حيث قالت : « قد ورد الامر للولاية من نظارة الداخلية عطا على قرار شورى الدولة بمنع ادخال جريدتي الصاعقة والقاعدة المصريتين للولايات العثمانية ولا ندري كيف سكت مجلس الامسة عن هذه الاهانة التي هي أول أعمال الاستبداد والضغط على الافكار » (٢٤) . ويذكر الدكتور البصير ما للصحافة المصرية من أثر في ايقاظ العراقيين وقيام ثورة العشرين في قوله « منذ أن شبت نيران الثورة في القطر المصري سنة ١٩١٩ وصلت جرائده طافحة بأخبار قطع السكك الحديدية واطلاق العيارات النارية على الافكليز وتذكر الصحف كيف يهاجم الجنود الافكليز ، فانطبعت على السنتنا هذه الكلمة : ان انباء مصر يهاجمون المدافع بقلوب من الفولاذ » (٢٥) .

وتتقدم وسائل المواصلات وينتظم البريد فتصل الصحف كل اسبوع ويطلع عليها الناس بسهولة ويسر فهذه جريدة الرقيب تقول : « واقانا بريد الشام هذا الاسبوع حاملا أول عدد من جريدة المقتبس »

(٢٤) الرقيب عدد ١٦ سنة ١٣٢٥ هـ .

(٢٥) البصير - تاريخ القضية العراقية - ص ٧٦ .

القراء التي طالما اشتاق القراء الى مطالعتها ... » (٢٦) .

وتبادل مجلة العلم النجفية التي صدرت في نهاية العقد الأول من هذا القرن ، أعدادها مع صحف كثيرة في شتى بقاع العالم ، قالت : « كانت الصحف في كل اسبوع تنهال على ادارة العلم من كل فج عميق بين مجلة وجريدة ولايحة باللغات العربية والفارسية والتركية والهندية وقليل من الفرنسية والانكليزية بعدد يتراوح بين الخمسين والمائة ، وكانت الادارة توزعها بين المكتبات العمومية ودور القراء وبين الفضلاء » (٢٧) . وتذكر المجلة في عدد آخر من اعدادها اسماء الصحف التي ترد اليها والبلاد التي تصدر فيها « ذكر الصحف المشهورة من الامصار المتمددة التي وصلت اليها ، وهي من الاستانة الحضارة والعدل ... ومن بيروت الاتحاد العثماني اليومي والرأي العام والاقبال والبشير والبرق ... ومن حلب التقدم ومن طرابلس الوجة مدان والاجيال ... ومن دمشق المقتبس ... ومن القاهرة مصر المؤيد اليومي والمنار والشمس ... ومن ايران أكثر جرائدها . ومن الهند الاخبار اليومية والحبل المتين ، ومن أمريكا الزمان ومن اليابان الاتحاد الاسلامي ، ومن فرنسا نهضة العرب ، ومن ايطاليا السياسة المصورة ومن سنغافورة الوطن والاصلاح ، ومن تونس مرشد الامة ومن

(٢٦) الرقيب عدد ٩٩ سنة ١٣٢٨ هـ .

(٢٧) مجلة العلم عدد ٢ سنة ١٩١٠ ص ٦ .

الجزائر كوكب افريقيا » (٢٨) .

وعلى هذا فانتا لا يمكن ان ننسى دور الصحافة كوسيلة ثقافية هامة في عصرنا الحديث ، كما أن الصحافة العراقية لم تخلق من العدم بل وجدت أمامها مثالا يحتذى تأثرت به شكلا ومضمونا واخراجا ، وهذا ما نلاحظه على الصحف الرائدة التي استفادت من الصحافة العربية أولا والصحافة العالمية بعد ذلك ، لان هذا الاطلاع يؤدي الى مجال فكري أوسع وتبادل ثقافي يساعد على نمو الحركات العلمية .

وحينما كان بعض أدباء العراق يجدون صعوبة في نشر أدبهم في الصحافة العراقية كانوا يلجئون الى الصحف العربية ، فالرصافي كان كلما ضاقت به الصحافة العراقية أرسل انتاجه الى صحافة مصر ، ذكرت مجلة الوادي أن الرصافي « كان في العهد الاستبدادي الحميدي يشناق الى حرية الصحافة ليصرح بما يعتقد ويقول ما يراه حقا ، لذلك كان يرسل قصائده الى القاهرة فتتشر في المؤيد والمقتبس » (٢٩) . وكان المرحوم يوسف غنيمه يكتاب المجلات الشهيرة في مختلف الاقطار العربية وقد شرع بالكتابة الى المشرق سنة ١٩٠٤ ثم الى المقتطف بعد الحرب الاولى (٣٠) .

وحينما كان العراق يضيق ببعض أدبائه بفعل الظروف السياسية فانهم كانوا يذهبون الى البلاد العربية الاخرى

(٢٨) مجلة العلم عدد ١ سنة ١٩١٠ .

(٢٩) مجلة الوادي عدد ١٥ سنة ١٩٥٩ .

(٣٠) انظر جريدة الزمان عدد ٣٩٣٢ سنة ١٩٥٠ .

ويصدرون صحفهم هناك ، فجريدة العقاب مثلاً « صحيفة أنشأها
أحرار العراق في سوريا ٠٠٠ وترسل منها كميات كبيرة الى العراق » (٣١) .
وأصدر المرحوم ابراهيم حلمي العمر جريدة لسان العرب في سوريا
ابان حكم الامير فيصل ، وحينما تبدلت أحوال العراق نقلها الى
بغداد وجعل عددها متسلسلاً مع الاعداد الاولى ، وفي بعض الاحيان
كان يستدعى بعض الصحفيين العرب للعمل في صحافة العراق ، فجريدة
الشرق العراقية « نهض لتحريرها رجل فلسطيني ممن تزودوا بثقافة
من الجامعة الامريكية في بيروت ٠٠٠ » (٣٢) .

وقد تولى بعض افراد عائلة البستاني الشهيرة في مجال الصحافة
والادب العمل في بعض الصحف العراقية فذكر منهم سليمان البستاني
فبعد أن اشتهر صيته « امتدت شهرته الى العراق ، دعاه وجهاء البصرة
لنشر جريدة فيها » (٣٣) . وهذا كله يدل على مدى ما للصحافة
العربية من تأثير ثقافي في العراق فكانت بحق المصدر الاساسي والهام
الى ثقافة العراق الحديث ، وتطلعه الى مجالات أوسع .

يضاف الى هذا ظهور بعض الحركات الاصلاحية التي كانت
تظهر في فترات متباعدة في القرن التاسع عشر ، منها ما ذكره بعض

(٣١) بطي - الصحافة في العراق - ص ٥٦ .

(٣٢) ن . ف ص ٥٣ .

(٣٣) فؤاد طرزي - تاريخ الصحافة العربية - ج ٢ ص ١٥٩ .

المؤرخين عن داود باشا الذي حكم العراق في الربع الاول من هذا القرن ، فقد كان هذا الوالي مصلحا ومثقفا ثقافة عالية في عصره ، قام بأعمال اصلاحية لم يعهدها العراق من قبل فقد أحب العلم والادب وقرب الشعراء وأوجد حركة فكرية مهما تكن قوتها الا انها ذات تأثير لا ينكر في محيط يطغى عليه الخمول « فقد تفرغ للعلم بعد أن نشأ نشأة علمية .. تثقف على أيدي العلماء الكبار ومنهم صبغة الله الحيدري الذي أجازته في الاصول وتفسير البيضاوي وقرأ على شيخ القراء محمد أمين الموصللي ، والنحو والصرف على الملا حسين ، ودرس التصوف والرياضيات ، كما أجاز بعض التلاميذ وأهتم بالمدارس والمعاهد والجوامع ، وكثرت المدارس في عهده حتى بلغت ثمانية وعشرين معهدا كبيرا للتدريس ... » (٣٤) . وفي هذا ابرز دليل على من يذهب الى القول بخلو العراق من العلماء والادباء طيلة القرن الماضي وفي مختلف فروع المعرفة بل وكان هذا الوالي سببا في ظهور كتاب (دوحة الوزراء في تاريخ الزوراء) فقد ذكر مؤلفه رسول الكركوكلي : « أمرني من لا يريد له أمر بتأليف هذا الكتاب » والمقصود هنا هو الوالي داود باشا ويشرح المؤلف في مواضع مختلفة من هذا الكتاب الأعمال التي قام بها هذا الوالي ، حيث ضرب بيد من حديد على المشاغبيين وهدأت الفتن وتقدمت البلاد وعمها الرخاء والامن ... حتى انطلقت ألسن الشعراء

بمدحه والثناء عليه (٢٥١) . وبعض المؤرخين ينسب اليه انشاء صحيفة ومطبعة كما سنلاحظ ذلك في فصل قادم . وقد تركت اعماله وما قام به من اصلاحات أثرها في عصره والعصور التالية له .

وكذلك ظهر عظم آخر له تاريخ حافل في الاصلاح ونعني به مدحت باشا الذي كان يكنى بأبي الاحرار، فما كاد هذا الوالي يصل الى العراق «حتى أعلن عزمه» على الاصلاح ، ورغم فشله في كثير من خططه فقد جاء بالعجائب ووضع الحجر الاساسي نهضة العراق في كثير من ابوابها فأكمل وزاد على الابنية ، واصدر جريدة ، واسس مصانع عسكرية ومستشفى ومأوى للأيتام ، ونظم البلديات والمجالس الادارية ، وبنى المدارس فقد كانت نسبة المتعلمين من أبناء المدن نصف بالمائة فأصبحت بهمة المجدد الكبير من خمسة الى عشرة بالمائة ، ومن خطته أنه اسس مدرسة ابتدائية مجانية في كل قضاء ، عدا المدارس الحربية ، واسس أول مدرسة ثانوية الأولاد سنة ١٨٧٠ » (٢٦) وهي نهضة لا يمكن ان ينكرها أحد، أقل ما يمكن أن يقال فيها انها هيأت النفوس للاصلاح ولو سار الولاة الذين جاؤا بعده على خطته لتغير وجه العراق .

فاذا أضفنا الى هذا العامل الداخلي عاملا آخر لا يقل عنه أهمية وهو تجاور العراق وتركيا ، وسهولة انتقال العراقيين الى هذه البلاد

(٣٥) انظر رسول الكركوكلي — دوحة الوزراء في تاريخ الزوراء

ص ٢٧١ .

(٣٦) جريدة البلاد عدد ٩٧ سنة ١٩٣٠ .

باعتبارهم من رعايا هذه الدولة استطعنا أن نتوقع ما يمكن أن يكون لهذا من أثر ثقافي على العراق ذلك أن الدولة العثمانية وعاصمتها الاستانة كانت أكثر اتصالا بالعالم الخارجي من العراق وأكثر اتصالا بالثقافات الاجنبية والتي لا شك أنها انتقلت الى العراق كما انتقلت الى غيره ، ثم ان كثيرا من العراقيين الذين كان لهم دور يذكر في النهضة كانوا يعرفون التركية وينقلون عنها الكثير من القصص والمقالات ، بل ان المدارس العراقية كانت تدرس اللغة التركية كلغة رسمية ، بالاضافة الى العربية يشهد بذلك ما ذكرته مجلة لغة العرب حيث قالت : « وجدت في العراق بعد منتصف القرن الماضي ... ثقافة رسمية ، عليها صبغة الاساليب الغربية وللغة التركية فيها المقام الاول ... ويحوي منهاجها شيئا من مبادئ العلوم الحديثة ، مع علوم الدين ودروسا عربية ضئيلة تلك هي المدارس الاميرية العثمانية » (٣٧) .

ومثل هذا ينطبق على ايران ، وذلك أمر طبيعي تفرضه طبيعة وجود العتبات المقدسة في العراق بالاضافة الى عامل التجاور ، مما ادى الى الاتصال الثقافي والفكري ، بل إن كثيرا من الايرانيين كانوا يتركون بلادهم ليعيشوا قرب العتبات المقدسة ، ويذكر بعض المؤرخين ان السيد كامل التبريزي وهو ايراني « أنشأ مطبعة حجرية جلبها من ايران سنة ١٨٦١ . وقبلها كانت مطبعة حجرية أخرى جلبت من ايران سنة ١٨٥٦ في عهد مشير العراق والحجاز محمد رشيد باشا

الذي عرف بحبه للعلم والادب وفيها طبعت رحلات الألويسي الكبير ابي
الثناء» (٣٨) .

هاتان المطبعتان لا يمكن الا ان تكونا ذات شأن يذكر في تحريك
الاجواء عن طريق ما تقومون بطبعه . وقد أبدى احد الكتاب مخاوفه
مما سماه الاحتكاك الفارسي قال : « ولكنني أظن ان الاحتكاك الفارسي
وان نبه الشعور العربي الا ان يد الاستعمار استعملته لقضاء أغراضها
... اتنا لا نبخس حق الاحتكاك الفارسي ولا نرفض القول بأنه أحد
المتبهمات التي دعت العرب النجفيين يفكرون في مستقبل أمرهم » (٣٩)
وهذا على ما فيه ، اعتراف صريح بأهمية الاحتكاك بين القرس والعرب
منذ القرن الماضي وأثره على الثقافة في العراق .

وهناك مصدر ثقافي آخر حديث يشمل في المدارس التي كانت
تقيمها الجمعيات التبشيرية المسيحية في العراق على النمط الحديث ،
وللغات الأجنبية فيها دور كبير مع اهتمام واضح باللغة العربية ، وقد
تخرج من هذه المدارس كثير من رواد الصحف والأدب في العراق ، منذ
بداية هذا القرن ، نذكر منهم الأب الكرمللي صاحب لغة العرب اذ لما
بلغ الثامنة من عمره دخل مدرسة الاباء الكرمليين وبقي فيها الى
الحادية عشرة حيث أدخل مدرسة الاتقان الكاثوليكي وبقي فيها مدة

(٣٨) مجلة الاثير عدد ٦ ، ٧ سنة ١٩٤٥ ص ٣ .

(٣٩) مجلة النجف عدد ٤٣ ص ٣ .

درس الصرف على الشماس يوسف خياط . ثم عاد الى مدرسة
اللاتين الكرملين وهنا تلقى مبادئ الفرنسية ^(٤٠) . ومن خريجي هذه
المدارس المعلم داود صليوه صاحب جريدة صدى بابل التي ظهرت في
العقد الاول من هذا القرن والاستاذ السمعاني صاحب جريدة الزمان
المشهورة ويوسف غنيمه صاحب جريدة السياسة الذي « اعترف من
خير ثقافة عصرية هيأتها عاصمة الرافدين حينذاك ، فألم بالفرنسية
والانكليزية حتى أخذ يكتب المجلات الشهيرة في مختلف الاقطار
العربية ، فشرع بالكتابة الى المشرق سنة ١٩٠٤ وكان أول بحثه
مترجما عن الانكليزية يتعلق بمولد براهيم الهنود » ^(٤١) . كل هذا
يدل على ان هذه المدارس كانت تؤدي خدمة كبيرة منذ النصف الثاني
من القرن الماضي .

ويذكر الاستاذ افور شاول صاحب مجلة الحاصد البغدادية ان
لجالية اليهودية في بغداد مدارسها الخاصة بها ، يتولى التدريس فيها
اجانب جيء بهم من فرنسا تحت اشراف جمعيات يهودية مهمتها تثقيف
الجاليات اليهودية في كل قطر يكثر فيه اليهود ^(٤٢) .

(٤٠) انظر مجلة لغة العرب عدد ١ مجلد ٧ سنة ١٩٢٩ ص ٦١ .

(٤١) مجلة الجزيرة عدد ١٢ سنة ١٩٤٧ ص ١٣ .

(٤٢) لقد اعتمدنا على الصحافة في اهمية المدارس الدينية
التبشيرية ، وهناك تفصيلات اخرى في كتاب الاستاذ ابراهيم الوائلي

تلك هي مصادر العراق الثقافية في القرن التاسع عشر ، وهي مصادر حديثة ، يرافق هذا كله مصدر آخر يبدو أنه كان بعيد الأثر يتمثل في الدراسات التقليدية التي كانت تقام في الجوامع والمعاهد الملحقة بها ، تخرج منها عدد كبير من الشعراء والادباء ، ومنهم شخصيات لامعة في الأدب العراقي الحديث ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ علي الشرقي الشاعر العراقي المشهور الذي تلقى علومه في تلك الحلقات قال : « بداية حياتي الأدبية تلمذة على فوادي شيوخ الادب وعرفاه وقادته ، كانت هذه النوادي ملأى بشيوخ لهم وزنهم الأدبي وقيمتهم الأدبية ، عليهم تلمذنا . ويؤسفني ان هذه النوادي قد خلت الآن من هذه الصنوة ، وللنصف في ذلك العهد أثر عظيم على الشعر فهي بيئة للأدب . ليس هناك استاذ بعينه ، فليقت عنه ، وانما هناك محافل وأندية ، منها اندية تكاد تكون دائمة ، وهي الحلقات التي كانت تنعقد في بيوت بعض قادة النهضة الادبية في النجف ... ففي هذه الحلقات كان الشباب يشاركون ويتعلم » (٤٢) . والشيخ الشرقي يتحسر على تلك الحلقات لما تمتاز به من جدية وسرعة في تخرج الادباء .

ويذكر الاستاذ السجيلي الذي كان يحرق في مجلة لغة العرب أن ادب القرن الماضي كان اقوى من ادبنا الحاضر لان الادباء كانوا

(الشعر السياسي العراقي في القرن التاسع عشر) فمن اراد المزيد فعليه بقراءة هذا الكتاب .

(٤٣) جريدة البلاد عدد ٥١٥٧ سنة ١٩٥٧ .

يولون الأدب كل حياتهم حيث يقول : « انني لا أذكر أوائل ايامي حينما كنت أجالس بين الفينة والأخرى بعض كبار العلماء والادباء في صحون مرقد الأئمة في النجف وكرلاء والكاظمية فأقال العلم العزيز من مجالسهم في وقت قصير ، وكذلك كان لتردي في بغداد على مدرسة العلامة السيد محمود شكري الألوسي ، ومجلس عبد الرحمن النقيب ودير الاب الكرملی » (٤٤) ومن هذه الزمرة الاستاذ فهمي المدرس الذي عمل في الصحافة والتعليم فترة طويلة وقل مثل هذا في الشيخ رضا الشيبلي والشيخ باقر الشيبلي وغيرهم . ولم يكن هذا فحسب بل ان هذه الدراسات كانت منتشرة في اكثر المدن العراقية ، وهناك بعض الزعماء الذين يهتمون بالأدب ويولونه عنايتهم ، يذكر الشيخ محمد رضا الشيبلي « ان سلطة الاتراك كانت محدودة على الأكثر بحدود الحواضر العراقية الكبرى كبغداد والموصل ، وأما السلطة الفعلية في الأرياف الداخلية فكانت بين أمراء القبائل وزعماء المدن أما القرى الصغيرة فلم تتأثر سجاياهم بما كان الحكامهم من عادات وثقافات ولهذا بقيت لغة التعليم فيما بقي من معاهد الدراسات القديمة في بعض حواضر المدن كبغداد والنجف والحلة ، وهي معاهد أهلية بحثة كانت معنية بدراسة العربية لغة وثقافة .. » (٤٥) .

(٤٤) البلاد عدد ٤٣٢٩ سنة ١٩٥٥ .

(٤٥) الزمان عدد ٣٨١٤ سنة ١٩٥٠ .

ومن ثم يبدأ الشيخ الشبيبي بذكر اهم الاعلام الذين عاشوا في
القرن الماضي ، الامر الذي يدل دلالة قاطعة على ان العراق لهم يكن
يعيش في دور سبات ثقافي في القرن الماضي كما ذهب الى ذلك بعض
المؤرخين في الأدب أو السياسة .

الفصل الثالث

تاريخ الصحافة العراقية

تاريخ الصحافة العراقية تاريخ ممتنع يغرى المرء بمطالعته لما فيه من جواذب تعكس الى حد بعيد طفولتها الاولى قبل أن تصبح فناله أصوله وكيانه . وعلى الرغم من تسلط السياسة وجبروتها وخضوع الصحافة لهذا السلطان الا أنها كانت مع ذلك تجدد فترات متقطعة تستطيع أن تظهر بها على حقيقتها لتؤدي دورها الحقيقي في التعبير عن الصالح العام . ومشكلة تسلط السياسة هذه مأساة لا ينفرد بها العراق فحسب بل هي ظاهرة عامة نجدها في كثير من بلادنا العربية، وقد تركت أثرها على الانتاج الفكري والادبي وخنقت الكثير من الافكار والآراء التي يشتم منها رائحة المخالفة للنظام القائم ، وحرمت الصحافة والأدب من النجوى الصالح الذي لا يمكن ان يكون بغير الحرية يذكر طه حسين في مقالة له تحت عنوان « محنة الأدب في ظل الاحكام العرفية » يتعرض فيها لهذه النقطة بالذات ويبين أسباب الركود الادبي في مصر بقوله « ان أول هذه الأسباب يأتي من ظروف السياسة ... بحيث نستطيع أن نقول غير مسرفين اننا حرمتنا الحرية اكثر من

خمس عشرة سنة في أقل من ربع قرن ، والحرية قوام الحركة الادبية ،
فاذا ذهبت أجذب الأدب وعقم التفكير مافي ذلك من شك ، وقد قال
نابليون ذات يوم : ليس لنا أدب جيد وتبعة ذلك على وزير الداخلية
فالأديب يكتب لكي يقرأه الناس ... وهذا لا ينشر حين يتحكم في
نشره الرقيب فهو يحضر على الناس مالا تحبه الحكومة » (١) .

وقد ذهب الدكتور حمزة الى أن العيب الذي يوجه الى الصحافة
ناجم عن كونها تعبر عن رأي الحكومات أكثر من تعبيرها عن رأي
الشعوب (٢) .

وفي هذا كله تعميم لأنه يحصر الأدب في دائرة ضيقة هي
دائرة السياسة ومفهوم الحرية يختلف باختلاف الأفراد والجماعات ،
وبخاصة في بلاد لا تزال في طور النمو تحتاج الى حياة موجهة ، وسوف
نهتم بهذه النقطة في فصول قامة .

وتاريخ الصحافة العراقية ينقسم الى أدوار طبقا للظروف السياسية
التي مرت بها البلاد ، دور الحكم التركي ، ثم الاحتلال ، ودور الحكم
الاهلي ، ليأتي بعد ذلك دور الحكم الجمهوري ، غير ان هذه الادوار
متداخلة ، كل دور منها يفضي الى الآخر ، ولا مجال للطرفة رغم تغير
الظروف السياسية ، فكثير من الصحفيين الذين عملوا في هذا الحقل
عاشوا في أكثر من عهد واحد ، والتطور الذي أصاب الصحافة بعد

(١) جريدة الاهالي عدد ٦ سنة ١٩٥٢ .

(٢) انظر مستقبل الصحافة ج ١ ص ٢١ .

هذا تطور طبيعي بفعل افتتاح العراق على العالم الخارجي وتطلعه على مصادر ثقافية مختلفة .

والمعروف تأريخيا أن العثمانيين حكموا العراق بعد انحصار موجة المغول التي اكتسحت العراق منذ النصف الثاني من القرن السابع الهجري بعد أن قضت على الخلافة العباسية في بغداد ، وبهذا أصبح العراق تحت سيطرة حكم هسجي لا يقيم وزنا للثقافة والعلوم . غير ان هؤلاء المغول - على ما تذكر المراجع التاريخية - لم يستمروا في وحدتهم إذ سرعان ما دب اليهم الضعف وانقسموا الى دويلات صغيرة فجم عنها في النهاية « دولتان حلتا محل المغول وهما دولة بني عثمان في الشمال والدولة الصفوية في بلاد فارس فكان العراق مرة لهؤلاء ومرة لأولئك حتى استخلصها العثمانيون بعد انحلال الدولة الصفوية وظل كذلك انى الحرب الكونية الاولى » (٣) .

وفي هذه الفترة دمرت معالم الحضارة وانطوت النفوس وفترت العزائم واخذ الناس يتلهون بالتوافه من الأمور فنوت الحياة العلمية وتقلص ظلها واستمر كذلك حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر حيث بدت أولى بوادر النهضة لا كما ادعى بعض المؤرخين من أن العراق كان منعزلا عن العالم الخارجي حتى نهاية الحرب العالمية الاولى وقد وقفنا على ذلك في الفصل السابق .

ففي نهاية العقد السابع من القرن التاسع عشر ظهرت بوادر حركة

اصلاحية لكنها لم تستمر طويلا ، وذلك حينما عين مدحت باشا واليا على العراق ، فقد قام هذا الوالي باصلاحات لم تعهدها البلاد من قبل نذكر منها قيامه « بتأسيس مدرسة للصناعة ، ومد خط ترام بغداد الكاظمية ومعمل لسد حاجات الجيش وحوض لاصلاح السفن التجارية والمستشفى الملكي وبعض المدارس الاعدادية » (٤) .

فكانت هذه الاصلاحات بادرة جديدة غير انها لم تستمر طويلا فقد خفت صوتها بعد نقل هذا الوالي المصلح . وأهم من هذا كله ما قام به في ميدان الصحافة والطباعة ، ذلك ان هذا الوالي كان أول من أصدر صحيفة في العراق سنة ١٨٦٩ في السنة الأولى التي عين فيها . فقد كان مشبعا بروح الثورة الفرنسية وحركة الاصلاح ، قضى في باريس فترة وهو يعمل كسفير لبلاده ، وحينما نقل الى بغداد أخذ « يتهاى ويدرس واصطحب معه جماعة من رجال العلم لتشغيل جهاز حكومته الجديدة وقد وجدنا بينهم مدير مطبعة ورئيس تحرير وآليا للمطابع ، وبعد ايام من وصوله أسس مطبعة الولاية وهي أول مطبعة آلية في العراق جلبها من باريس وكافت راقية تدار بالبخر » (٥) .

لقد كان ظهور هذا الوالي في هذه الفترة بالذات بشير خير للبلاد غير أن الاوضاع العامة داخل العراق وفي الدولة العثمانية

(٤) جريدة البلاد عدد ٤٧٢ سنة ١٩٣٥ .

(٥) مجلة منير الاثير عدد ٦ ، ٧ سنة ١٩٤٥ .

ذاتها لم تكن مستعدة لمثال هذه الإصلاحات ، فكانت الأوضاع السياسية في الدولة والفتن الخارجية عقبات تحول دون استمرار هذه الاعمال ، يذكر الاستاذ أحمد أمين أن مدحت باشا كان من زعماء الإصلاح الحديث ولكنه « جاء والدنيا مديرة عن الدولة العثمانية والمملكة تنتقص من أطرافها ويدب الفساد داخلها ٠٠٠ في هذه الاجواء عاش مدحت باشا » (٦) .

ذلك هو المعروف بين اكثر المؤرخين أن مدحت باشا هو أول من أنشأ مطبعة وجريدة في العراق ، غير ان الاستاذ روفائيل بطي ينقل عن مجلة المؤرخ لصاحبها رزوق عيسى أن هذا الاخير يستشف من كتب بعض الرحالة الافرنج ان داود باشا الكرجي وزير العراق المعروف قد أسس عندما تقلد الحكم في مدينة السلام سنة ١٨١٦ صحيفة باسم (جورنال العراق) كانت تطبع بمطبعة حجرية باللغتين العربية والتركية وتذاع فيها وقائع القبائل وأبناء القطر العراقي وأخبار السليطة العثمانية وقوانين البلاد وأوامر الوالي وكانت توزع على قواد الجيش وأعيان المدينة وتعلق منها نسخة على جدران دار الامارة ليطلع عليها الجمهور (٧) . ونحن وان كنا لم نجد أثرا لهذا الخبر في مصدر آخر فال معروف عن هذا الوالي انه كان اول مصلح في تاريخ العراق خلال القرن التاسع عشر وقد وقفنا على بعض أعماله ، ونحن

(٦) أحمد أمين . زعماء الإصلاح في العصر الحديث - ص ٢٦ .

(٧) انظر مجلة منير الاثير عدد ٣ سنة ١٩٤٥ ص ٣ .

ندرس مصادر ثقافة العراق ولا يبعد أن يكون أول من أسس جريدة في العراق وان كنا لم نعثر على نسخة من هذه الجريدة غير أن هذا في حد ذاته لا يشكل سندا يمكن معه قضي صدورها لاننا لم نعثر على كثير من الصحف التي صدرت حديثا ، فكيف يكون الامر مع جريدة صدرت في الربع الاول من القرن التاسع عشر .

ولجريدة الزوراء — وهي أول جريدة صدرت في العراق — قصة طريفة وممتعة وذلك من حيث الفترة التي وجدت فيها ، والاسلوب الذي كانت تعبر به والعمر المديد الذي عاشته . فقد صدرت سنة ١٨٦٩ في بغداد واستمرت في الصدور مدة تسع واربعين سنة الى أن احتل الجيش الانكليزي مدينة بغداد سنة ١٩١٧ حيث توارت عن الانظار وبلغ مجموع ما صدر منها ٤٠٤٩ عددا ، ذلك هو ما اتفق عليه أغلب المؤرخين . ودل عليه العدد الاول الذي استطاعت وزارة الارشاد العراقية الحصول عليه في نهاية السنة الماضية وأعادت طبعه جريدة الجمهورية البغدادية بمناسبة العيد المئوي للصحافة العراقية فهو يحمل تاريخ الخامس من ربيع الاول سنة ١٢٨٦ هـ الموافق ٣ حزيران (يونيو) سنة ١٢٨٥ غربي ، وهذان التاريخان يقابلهما سنة ١٨٦٩ بالميلادي .

ولم نحصل على مجموعة كاملة من هذه الجريدة فقد عبث بها يد الاقدار ، ويبدو أنه كان منها عدد لا بأس به ولكنه فقد بمرور الزمن ، وقد ذكر الاستاذ رزوق عيسى في مجلة الحرية « ان في

خزانة الكتب في دير اللاتين خمس مجلدات عشرة أعوام من الزوراء وفيها من النبد التاريخية النفيسة ما لا توجد في مصحف من مصاحف التاريخ العراقي . . . وان القيود القديمة لهذه الجريدة كانت قد احترقت » ^(٨) . وتحتفظ مكتبة الآثار العراقية بأكثر من مائة عدد وهي الاعداد الأولى من هذه الجريدة .

وقد كانت جريدة الزوراء منذ صدورها تنشر باللغتين العربية والتركية واستمرت على هذا المتوال حتى اعلان الدستور العثماني فغيرت خطتها بسبب ظهور النزعة العنصرية لدى الاتراك فأصبحت تصدر بالتركية فقط ، الامر الذي أثار خفيضة أهالي بغداد فعادت انى سيرتها الاولى كما ذكرت مجلة لغة العرب ^(٩) .

وقد جاء في صدر كل عدد من أعدادها مايلي « هذه الجريدة تطبع في الاسبوع مرتين يوم السبت والثلاثاء وهي حاوية لكل نوع من الاخبار والحوادث الداخلية والخارجية » وفي العدد الاول منها صورة فرمان العالي بتولية مدحت باشا ولاية بغداد فقتبس منه بعض الجبل النقف على اسلوبها « دستور مكرم مشير مفخم نظام العالم مدبر امور الجمهور بالتفكر الشاقب ، متمم مهام الانام بالرأي الصائب ، مهده ببيان الدولة والاقبال، مشيد أركان السعادة والاجلال المحنوف بصنوف عواطف الملك الاعلى من أفاضل وكلاء دولتي

(٨) مجلة الحرية عدد ٦ ، ٧ سنة ١٩٢٤ .

(٩) انظر مجلة لغة العرب عدد ٣ مجلد سنة ١٩١٣ .

العلية ... » (١٠) .

وعلى هذا النمط يستمر فرمان ، واكله ألقاظ فضفاضة وسجم متكلف يضيف هالة قدسية على هذا فرمان العالي وعلى من أصدره ، يلي ذلك خطبة الوالي نفسه ومنها « هذا فرمان الجليل العنوان الصادر من لدن حضرة مولانا السلطان ، حكمه العالي فهمه من يعلم اللغة التركية ، فيلزم على من علم ، أن يفهم من لم يفهم ، نخبة مقاصد ولي نعمتنا وسلطاننا الجلية ان جميع من هو تحت ظل رايته وعدائته من الملل المسلمة وغير المسلمة ذكور وإناث (١١) . فرداً وجمعاً متفرقا ومجتمعاً استكمال رفاهيتهم ومحافظة راحتهم وازدياد ثروتهم هو المقصود بالذات ومأمورين الدولة العلية أول دين هو في ذمتهم خدمة هذه الوظيفة ... » .

ولا حاجة للتعليق على الركافة الظاهرة في هذه الجريدة وصعوبة فهم المراد منها ولهذا مجال آخر .

ومن خلال الاعداد التي بين ايدينا والتي احتفظت لنا بها مكتبة الآثار نلاحظ أن اهتمامها الاول كان ينصب على الأخبار الداخلية التي تخص ولاية العراق وذلك تحت حقن (مواد خصوصية) ويشمل هذا الحقن اعمال الوالي واصلاحاته وتنقلاته واخبار اللصوص وقطاع الطرق الذين أولتهم عناية خاصة لكثرتهم حينذاك « حسبما استبان من الاخبار

(١٠) جريدة الزوراء عدد ١ سنة ١٢٨٦ هـ .

(١١) هكذا في الاصل والاختلاء كثيرة لن تشير اليها في المستقبل .

الرسمية أن مقدار خمسين ثمر من أشقياء ايران الذين هم من طرف المحمرة احدى الممالك الايرانية الواقعة في مقابلة البصرة قد عبروا شط العرب ليلا وداسوا أذان سومات (ابو الخصيب) وجرحوا مأموريها وأخذوا الاموال الرسومية وهرّبوا أما الاشقياء الموجودين في المحمرة المذكورة فانهم قبل هذا في أثناء تشريف الشاهي الى هذا الطرف كانوا قد فعلوا هكذا تجاوزات ووقوعات وهجموا على ادارة رسومات الدواسر وجرحوا بعض المأمورين وأخذوا الاموال الرسومية ومضوا حتى ذلك الوقت كانت التبليغات اللازمة في خصوص تأديبهم قد تبذرت للحكام الايرانية لكن ما رأى ذلك من ثمره » (١٢) .

وهنا تختلط العامة بالفصحى فتداخل تداخلا غريبا حتى ليتعذر على البعض فهم ما يريد أن يقوله هذا الكاتب . اننا لنحس في هذه الأساليب قلقاً فكرياً هو الذي يمنع صاحبه من الاباقة والوضوح .

وقد كان للزوراء مراسلون في بعض مناطق العراق المهمة ففسد جاء في احد اعدادها هذا الاعتذار من مخبرهم المخصوص كما تقول الجريدة « هذا المكتوب الوارد من مخبرنا المخصوص في البصرة : منذ مدة ما حررت لكم مكتوب حيث أن الحوادث مفقودة ، فأنا اعرف نفسي أفنكم تعذروفتي وأنا أفنخر باشعار الحوادث التي اسمعها وأراها » (١٣) . يعتذر من قلة الاخبار ، كأن الحياة تظلموا من الحوادث

(١٢) الزوراء عدد ٢٤٧ سنة ١٢٨٨ هـ .

(١٣) الزوراء عدد ١٧٧ سنة ١٢٨٨ هـ .

والمشاكل ، جذب فكري او قلق نفسي ينأى بالانسان عن خلق صور
حية ناطقة حتى ولو كانت الاخبار معدومة كما يقول .

كما كانت الزوراء تفتح صدرها لرسائل المواطنين وتعرض مشاكلهم
الأمر الذي يدل على انتشارها بين مثقفي ذلك العصر ، وانها في كثير
من الاحيان كانت تحدث صدى بين قرائها نتيجة فكرة عابرة أو خبر
مؤثر « هذه الورقة الواردة لمطبعتنا باسم التاجر الحاجي عبد الحميد
جلبي : بناء على أن مجبكم متوغل في قراءة جريدة الزوراء، بينما كنت
اطلع على العدد ١٤٣ من نسختها اذ لاح لنظري فيها بحثان فحصل لي
من قراءتهما مزيد الممنونية ومزيد السرور فأما البحث الاول منهما
فانما هو مادة سوق العساكر المتصورة السلطانية الى منطقة نجد ، وأما
البحث الثاني فانما هو ضبط قطعة العسير مع كمال اليسر والاثيان بها
الى قبضة الشيخ وذلك من همة العساكر السلطانية التي لا زالنا نرى
بسالتها العظنفرية بعيون الافتخار ، فلما طالعت هاتين الفقرتين سنح
لخاطري العاجز مادتين (كذا) وحسب محبتي الكلية للوطن والملة ،
فقد صرت مجبورا على تحريرها وارسالها الى مطبعتكم ودرجها في
جريدتكم المعتبرة حتى توضح الدى أنظار أولي الأمر » (١٤) أسلوب
لا بأس به، يندر أن نعرش على امثاله في جريدة الزوراء ، فهو يكاد يحلو
من الأخطاء النحوية يفهم بسهولة ويسر وان كان الاطناب هو الميزة
الظاهرة عليه لأنه من الممكن ان تعرض هذه الفكرة بسطرين أو ثلاثة .

لقد تناولت الزوراء موضوعات هامة وعالجت مشاكل ملحة يبدو أنها كانت تشغل بال الكثيرين ممن يحسون بوطأة الجهل وتفتشي الامية في الولاية كقول احد كتابها « سبحان الله العظيم لا زلت أرى واسمع واطالع من صحايف الزوراء بحثا تكرره وقلهج به من فقدان المعارف في بلدتنا وتدني العلوم فيها وعدم الرغبة من كل أحد ، وان المكاتب الابتدائية قد بقيت معطلة مذبذبة في ايدي الجهلة من الذين ليسوا بأهل اسوء الجهل ، الناصيين حائل الرزق على ابواب دكاكينهم المشغولين في تحرير العرضحالات والذين قد انزوا في زوايا المساجد ، الذين كل منهم جاهل بسيط ، ومن التأسف على بقاء أولادنا في يد العي والتعابوة الى غير ذلك من الطرق التي لا زالت الزوراء تظهرها حتى أن الأهالي يظنون معنى المثل المشهور وهو : الجنون فنون ، ان الذي يعرف الفنون فهو مجنون ، فترى المدارس دوارس والدرس مدروس والعلم مقفود وطريق التعليم درب مسدود ، وأما الفنون فانها مثل الققاعة اسم من دون جسم ، لاعين لها ولا أثر ولا رسم ، فاذا بكت الزوراء على بغداد وفاحت عليها ووعظت أهلها ونصحتهم فلا لوم عليها بحسب الفيرة الوطنية والمحبة للمية » (١٥) .

وبالاضافة الى حقل مواد خصوصية ، هناك حقل آخر تحت عنوان (مواد عمومية) وتعني بذلك الاخبار المتعلقة بالدولة العثمانية ، وتعتمد فيه على الصحف التركية التي تصل الى بغداد في الاستاؤة

لنترجم عنها وبخاصة صحف دار السعادة ، وتغلب على هذه الترجمة الركافة الممقوتة التي تفوق ما وقفنا عليه حتى الآن كقولها « الآتي هو مترجم من الجريدة المسماة (تايمس) التي هي ترجمان افكار دولة انكلترا ، وقد شاهدناه ورأيناه في جريدة دار السعادة ، ولما كان هذا البند لايقا للدقة والمطالعة فقد درجناه عينا ! من يوم جلوس المافوس من ذات الحضرة الشاهانة أن ترقى افكار العامة في التركستان هي معلومة لدى ارباب الدقة حتى ان عهد نامة في أثناء انعقادها وان كان كل أحد في أوروبا قد شاهد الشروط التي وضعت على الروسية لكن هذه المعاهدة المذكورة با جلبت دقة أحد في انها هي نافعة للتركستان فقط ان الاجاييني (١٦) الذين في التركستان كانوا يرون معاونة الدولة الغربية لكننا عظمة ملتهم حالا لما كانت تخدش خواطرهم ، فقيام أوروبا بحماية التركستان كأنما كان قد أتى عليهم ثقيلًا وان روسيا حال كونها كانت مغلوقة فقد استوجب زيادة أسفهم » (١٧) .

لا يستطيع أحد أن يفهم معنى هذا مهما أوتي من الدقة والصبر اللهم إلا اذا قابله بالنص التركي .

أما اهتمامها بالشعر فيبدو انه كان ثاقوبًا بدليل ندرة ما فيها من هذا الشعر وربما يعود السبب الى قلة احتفال الشعراء بالصحافة

(١٦) هكذا في الاصل .

(١٧) الزوراء عدد ١٢٧ سنة ١٢٨٧ هـ .

أو لانهم كانوا ينظرون اليها نظرة ازدراء . كل ما في هذا الشعر
قصائد قيلت في مدح الهوالي أو ازجاء التهاني في مناسبة من المناسبات
من ذلك ما جاء في أحد أعدادها وفيه المقدمة التالية « هذا التاريخ في
فتح نجد الذي جاد به طبع صاحب السعادة السيد أحمد أفندي
رشدي زاده من متخيري علماء الجعفرية ومن كبار المجتهدين :

بدا نور ظل الله يشرق كالصباح

بح فطابق وجه الارض بالعدل والنجح
ملك على العرش استوى والعزه

جميع ملوك الارض تعلن بالمدح
ارادته العظمى بتأيد حكمه

لقد صدرت كي يدل النعي بالصلاح
الى مدحت المولى الوزير الذي غدا

لسيده ما اختار شيئا سوى النصح
من اقتض بكر الفكر في طلب العلى

فجاءته تسعى غير طاوية الكشح
وزير على متن الوزارة قد رقى

أحاط بها خير من احتاج للشرح (١٨)
وهناك قصائد أخرى منبثة في ثنايا بعض أعدادها لا تعدو هذا
الغرض وكله شعر تغلب عليه الركافة والعجمة .

هذه هي جريدة الزوراء الرسمية وهي الجريدة البكر في العراق
وقمنا على نماذج مختلفة مما كتب فيها ، وهي تعكس لنا المرحلة التي
كانت تعيشها البلاد حينذاك ، وكيف ان الجهل كان يخيم على أغلبية
الناس حتى وصل بهم الحال الى درجة كانوا يجدون معها صعوبة في
ايجاد كاتب يستطيع أن يحرر في جريدة عامة تنشر في البلاد ، ولقد
كان اسلوبها هذا ماثرا انتقاد شديد من بعض الصحف العربية ، فقد
ذكر صاحب المقتبس الدمشقية عن جرائد الولايات العثمانية — والزوراء
منها — كلمة يشير الى الهوة التي انحطت اليها هذه الصحف « كل شيء
أخذ بالنمو والنشوء في هذه الديار إلا جرائد الولايات العربية الرسمية
فانها كلما طال عليها الزمن تنحط مكاتبتها لانها كانت ولا تزال تقس
اعمال الولاية وتزكيتهم إلا قليلا » ، وجرائد هذه حالها كيف يرضيك
خبرها ومخبرها . للحكومة العثمانية اثنتا عشرة ولاية عربية تصدر
فيها إحدى عشرة جريدة رسمية هي طرابلس وبيروت ودمشق وبغداد
والموصل تنشر باللغتين الأولى لغة الحكومة ، والثانية لغة البلاد ،
والعربية منقولة عن التركية بالحرف ، ولكنه نقل لا تقدر أن نقول عنه
عربيا ولا مولدا وأحر به أن يكون لغة خاصة يكاد لا يفهمها الا قليل
ممن ألفوها أو ممن يفهمون التركية ، فاذا عسر عليهم فهم عبارة قلبوا
الوجه التركي من الجريدة فقرأوا الاصل لينحل معهم الاشكال . . . ولو
كانت منتشرة بين القوم انتشار الجرائد العربية لافسدت (كذا) من

ملكة الأدب العربي فساداً لا يشبهه فساد ولكن من حسن الحظ أن قراءها محصورون أو يكادون يعدون على الأصابع « (٢٠) ولم يكن صاحب المقتبس هو الوحيد الذي انتقد هذه الصحف فقد نقل عن الأب الكرمللي قوله « وأما مواضع الزوراء فلا تستحق الذكر ، وإسفاه على مدينة بغداد أن تكون جريدتها الرسمية بهذه الصورة الدنيئة » (٢١) . وهناك جريدتان رسميتان أخريان بالإضافة إلى الزوراء ، صدرت أحدهما في الموصل سنة ١٨٨٥ ، والآخرى في البصرة وصدرت سنة ١٨٩٥ واستمرت في الصدور حتى الاحتلال الانكليزي لهاتين المدينتين ، ولم يذكر عنهما أحد شيئاً ويبدو أنهما لم تكونا ذات بال في الحياة الصحفية .

تلك هي الصحف الرسمية التي كانت تصدر في مراكز الولايات الثلاث : بغداد والموصل والبصرة ، واستمرت في الصدور حتى الحرب العالمية الأولى وكان إلى جانبها ثلاثة صحف أخرى غير رسمية صدرت قبل اعلان الدستور العثماني وهي اكليل الرد « دنية شهرية أصدرها الآباء الدومنيكان في الموصل الحداة ، بقيت نحو ستة أعوام وتوقفت بعد اعلان الدستور ، عالجت الموضوعات العلمية والبحوث الدينية والطائفية التي اشئت من أجلها » (٢٢) . ومثل هذا كانت صحيفتا

(٢٠) مجلة المقتبس عدد ٣ سنة ١٩١٠ .

(٢١) روفائيل بطي - الصحافة في العراق ص ١٧ .

(٢٢) الحسيني - تاريخ الصحافة العراقية - ص ٢٥ .

زهيرة بغداد والايمان والعمل والتي كانت تصدرها المنظمات التبشيرية في العراق للعرض ديني ولم نعر على شيء من هذه الصحف .
وتقفز الصحافة العراقية فقرة كبيرة لم تنهياً لها وذلك بعد اعلان الدستور العثماني . فقد هيأ هذا الدستور الحرية للمواطنين لا في داخل الدولة العثمانية فحسب بل في الاقاليم التابعة لها كذلك ، فتسم الناس الحرية وأقبلوا بشغف كبير على اصدار الصحف يعبرون فيها عن آرائهم وافكارهم ، وانطلقت الاقلام تعالج المتطلبات الملحة التي تقتضيها طبيعة الفترة . فظهر على أثر ذلك فيض غزير من الصحف لم تعهده البلاد من قبل ، ويذكر الاستاذ خير الدين العمري « أن بعض الصحف العراقية في العهد العثماني حاولت أن تنهض بشيء من العمل النافع فلم تفلح لان القراء كانوا أميين فلم تنجح الصحافة في العهد العثماني أي نجاح » (٢٣) قد يكون هذا الاطلاق صحيحا قبل اعلان الدستور العثماني اما بعد اعلان الدستور فانه تعميم لا يؤيده الواقع ، ذلك ان صحفا معينة سنقف عليها بعد قليل استطاعت أن تثبت وجودها فتؤدي خدمة أدبية وعلمية للبلاد لا يمكن ان ينكرها أحد ، نعم لقد صدرت صحف عديدة في العراق بلغ عددها في أقل من سنة واحدة نيفا وخمسين صحيفة في مختلف الموضوعات (٢٤) ، لكن مات أكثرها ولم يبق منها الا القليل والصحفيون الذين استمروا في اصدار صحفهم — على قلتهم — داهتهم

(٢٣) بطي — تاريخ الصحافة في العراق — ص ٣٧ .

(٢٤) انظر الثورة العراقية الكبرى — الفيض — ص ٥٨ .

الحرب العالمية الاولى فانقطعوا عن العمل . والظاهر ان هذه الحرية التي هيأها الدستور العثماني الجديد سهلت لاشباه العوام فرصة اصدار هذه الصحف فكانوا مثلاً سيئاً ترك أثره في النظرة الى الصحافة ذاتها ، ويذكر الاستاذ روفائيل بطي ان كثيراً من اصحاب هذه الصحف كانوا يتناولون الى مقامات العلماء وتسلق مقاعد الكتاب والادباء وانهم جعلوها واسطة تعيش وارترقاق (٢٥) .

غير ان تلك الصحف لم تلبث ان ماتت ، وخلفتها صحف كتب لها البقاء فذكر منها جريدة الرقيب لصاحبها عبد اللطيف اثنيان ، وجريدة صدى نابل لصاحبها المعلم داود صليوة ، ومن المجلات مجلة العلم لهبة الدين الشهرستاني ومجلة لغة العرب لصاحبها الأب انستاس ماري الكرملبي وسنقف عليها عند الكلام على اللغة والصحافة .

أما جريدة الرقيب فكافت مثال الصحيفة التي وضعت لنفسها خطة لم تحد عنها ، تذكر المسيء وتقبح فعله مهما كان شرفاً عالماً غنياً وتذكر المحسن وتقدر احسانه ، واتخذت من الصراحة وسيلة الى كثير من كتاباتها ، ولا تتشر الا ما يلائم خطتها وتعتذر عن نشر كل ما يخالف ذلك . وقد جاء في الاسباب الموجبة لاصدارها انها « جريدة عربية تركية خادمة لترقي الوطن للكمال الحرية تصدر مرة في الاسبوع مؤقناً » بدأت عملها بصفحتين في العديدين الأولين ثم بأربع صفحات في الأعداد التي تلي ذلك ، وانصب اهتمامها على القسم العربي وتضاءل

القسم التركي حتى انه لم يتجاوز في بعض اعدادها العمود الواحد في أغلب الاحيان . ولقد عالجت جريدة الرقيب القضايا التي كانت تشغل بال الرأي العام حينذاك بأسلوب تغلب عليه التفصاح والوضوح ، ومن حسناتها حرصها على سهولة العبارة والبعد عن التكلف . ومن المواضيع المهمة التي عالجتها الجريدة مشكلة استعمال اللغة العربية في المدارس والمعاملات الرسمية ، وكانت تتوسل الى ذلك بطرق مختلفة يغلب عليها طابع الحث والتأثير ، الأمر الذي عرض صاحبها لأشد الاخطار وبخاصة بعد ظهور النزعة التركية ، وحسبنا للتدليل على ذلك تلك الدعوة الصريحة التي ثبتتها حيث تقول :

« ان أهم ما يجب على الجرائد خصوصا ، وعلى الامة عموما ، توالي الابحاث في التعليم والتربية وتحسين الأخلاق ، فان البحث في هذه الامور مهما طال لا يمل ومهما سعى في تعقيبها الافسان لا ينبغي أن يكل ، لأنها روح المدنية ... وبسبب قلة وجود المكاتب الابتدائية في ولايتنا نرى أن من يعرف القراءة والكتابة ان راجعنا عدد الأهالي لا يكون الا بنسبة واحد بالمائة على جهة المبالغة والا فانه بنسبة عدد العشائر لا يكون الا واحد في الالف ... ولو كان التعليم بصورة مناسبة حسب القوافين لم تكن نسمع من الاولاد بل والرجال حتى ممن هو معدود من المعلمين تلك الالفاظ الشائنة للأدب المغايرة لشعائر الانسانية حتى ان السب بأقبح الالفاظ والشتيم بأبشع أنواعه وبعض ما يؤول الى الكفر والعياذ بالله من الالفاظ فاش شائع على أغلب الناس

... ليس لنا من طريق سوى ان نباشر بتكثير المدارس الابتدائية للذكور وأن لا نفعل عن مدارس الاناث اذ ربما يكون الزم وأمن تأثيراً واللوم في هذا على المعارف ، فالولاية عموماً بتواضعها تحتاج لمائتي مكتب ولعلها لا تكفي ، أما لغة التعليم فيجب ان تكون عربية في ولايتنا وكذلك في عموم العراق وسوريا والحجاز واليمن ، ففي المكاتب الابتدائية يعنى باللغة العربية المحضة وأما التعليم في المكاتب الرشدية، فمن الواجب أن يكون باللغة التركية ويضاف اليها درس باللغة العربية المحضة » (٢٦) .

لقد ابتدعت الجريدة حقولاً لهم نجدها في كثير من الصحف التي سبقتها او تلك التي تلتها بفترة غير قليلة ، من ذلك ما نسميه اليوم بالكتاب المفتوح ، توجه فيه أنظار أعضاء مجلس المبعوثين الذين ينتخبون ليمثلوا العراق في الآستانة الى واجباتهم نحو الامة ، وتذكروهم بمهمة النائب وواجباته تجاه ناخبيه (٢٧) ، كل هذا في سبيل الحث على العمل المشر للصالح العام . كما تناولت فواحي الحياة الاجتماعية بأسلوب لم تسبق اليه فعالجت مشاكل اللصوص والرشوة . وعندها أن الأديب الحق هو الذي يدافع عن امته ووطنه فيجعل أدبه في سبيل خدمة المجموع ويوقظ فيهم مشاعر تحرك الهمم والعزائم « لا ، لاسقت ايها القلم لا تسمي المقذع كاتباً ، ولا قسم المتشدد منشئاً ، لا تسمي المهذار خطيباً

(٢٦) الرقيب عدد ٧ سنة ١٣٢٧ .

(٢٧) النظر الرقيب عدد ٨٢ سنة ١٣٢٨ هـ .

تعرف من هو الكاتب يا قلمي المثقف ، هو ذلك الذي يلتهب قلبه حنافا على قومه ، يلتهب شفقة على أمته ، هو ذلك الذي يندفع ظهيرا للحق نصيرا للواقع ، ذلك الذي يحرك العزائم ويبعث في شعبه روحا جديدة يوقظه من النوم والكسل . من هو الكاتب ؟ انه فتى يسيل رقة فتى يقطر ، لطفة ، يندوب لنا أمام أصفياه ، الكاتب يكفيه من (أخاه) (٢٨) الفاضل أنه ابن البشرية يكفيه أنه ربيب الانسانية » (٢٩) .

والذي لا شك فيه ان جريدة الرقيب سبقت عصرها بزمن غير قليل ، فكثير من الصحف التي صدرت بعد الربع الاول من هذا القرن لم تصل الى ما وصلت اليه الرقيب من حيث الاسلوب والخطه والمواضيع التي عالجتها حتى ان صاحبها تعرض للمضايقة من قبل الوالي العثماني ناظم باشا فاضطر أن يهرب الى الحجاز نجاة بنفسه .

أما جريدة صدى بابل التي كانت تعاصر جريدة الرقيب فهي « صحيفة سياسية تجارية أدبية اخبارية لترقي الوطن تصدر في الاسبوع مرة مؤقتا » صدر العدد الاول منها في ١٣ / ٨ / ١٩٠٩ لصاحبها المعلم داود صليوه ، غير انها كانت اقل أثرا من جريدة الرقيب ، فلم تكن صريحة في عرض كثير من المشكلات التي كانت تواجه البلاد ، وكان صاحبها متحفظا الى حد بعيد لا يملك الجرأة على التصريح بما ينبغي أن يقال في وقت كانت البلاد بحاجة ماسة لمن يدافع عنها . لقد

(٢٨) هكذا في الاصل والصحيح اخيه .

(٢٩) الرقيب عدد ٨٦ سنة ١٣٢٨ هـ .

انحدرت هذه الجريدة بالعمل الصحفي وتحولت الى مجرد بوق لا هم له الا الدعاية لهذا الوالي أو ذاك ، ههنا أن تكييل المدح وترحب بالقادم قبل أن تعرفه حتى انها اصدرت حين عين فاضل باشا واليا على بغداد ملحقا خاصا بالمناسبة قبل قدومه ، وفيه قصيدة عصماء كما تقول الجريدة في مدحه فيها من المبالغة مالا يمكن أن تتقبله النفس الاية (٣٠) .

في حين لم يكن نصيب الصحافة منه الا البطش بها ، فقد كان اول عمل قام به هو اغلاق دور الصحف وتقديم اصحابها الى المحاكمة والغاء القسم العربي من جريدة الزوراء كما قدمنا .

ومن أهم المجلات التي صدرت أيضا في هذه الفترة مجلة العلم ومجلة لغة العرب . التي فرجى الحديث عنها الى موضعه في باب اللغة والصحافة . أما مجلة العلم فمجلة يغلب عليها الطابع الديني وقد صدرت في مدينة النجف الأشرف ، وهي مدينة محافظة الى حد بعيد ينظر أهلها الى الصحافة نظرة غريبة فيها كثير من الازدراء ، حتى ان صاحبها الشيخ هبة الدين الشهرستاني يقول في ذلك « ان من مضار المجلة لشخص منشئها سقوطه عن انظار العوام وأكثر المثقفين وجملة من رجال الدين سيما المستبدين » (٣١) . ومن أجل ذلك كان شعارها بعض الآيات القرآنية والاحاديث النبوية كقوله عليه الصلاة والسلام « طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة » تكرر ذلك في كل عدد

(٣٠) انظر صدى بابل عدد ٣٧ سنة ١٩١٠ .

(٣١) مجلة العالم عدد ١ مجلد ٢ سنة ١٣٢٨ هـ .

من أعدادها • وكان رائدها التعريف بالدين الاسلامي دون ان تغفل أبوابا تتصل بالعلم والمخترعات مما كانت تنقله عن المجلات العربية وبخاصة المقتطف ، كما شجعت الأدباء ونشرت ادبهم ، ولعلها أول مجلة رصدت الجوائز فيما يشبه المسابقات الأدبية •

تلك هي أهم الصحف التي صدرت في العهد العثماني • وبعد ذلك يبدأ عهد جديد هو عهد الاحتلال الانكليزي للعراق الذي بدأ باحتلال الانكليز لمدينة البصرة في ٢٢/٤/١٩١٤ وكان أول عمل قام به المحتلون هو أنهم استولوا على مطبعة الولاية واشتروا جميع المطابع التي كانت هناك لتأمين العناية لهم ، ثم بدأوا باصدار نشرة بالربية والانكليزية لنقل اخبار اقتضاراتهم في جبهات القتال المختلفة ، تحولت بعد ذلك الى جريدة يومية سياسية باسم الأوقات البصرية ، وكافت تصدر بأربع لغات هي العربية والانكليزية والفارسية والتركية •

والمتصفح لهذه الجريدة يلاحظ اهتمامها بنقطتين اساسيتين : اولاهما الحط من قيمة الاتراك والتعرض لهم بلهجة قاسية بغية اساءة سمعتهم لدى أولئك الذين ما زالوا يعطفون عليهم لعامل ديني كقولها: « ان السياسة التي جرت عليها الحكومة الاتحادية لافناء المسيحيين واليهود في سوريا وفلسطين هي من أفظع التكبكات في هذه الحرب ، ولا تنسى ما نزل بالمسلمين من الفظائع التي تقشعر لها الأبدان ، ولو زرنا سجون عالية وشاهدنا ما يجري فيها من فظائع الاتحاديين وما يحل بأشراف المسلمين من التعذيب لتحركت العاطفة الافسانية • ان تركيا

ما دخلت الحرب الا للقضاء على الحياة الجديدة التي دبّت في العناصر وعلى رأسها النهضة العربية قضاء لا مرد له » (٣٢) .

وقصدها من هذا اثاره شعور العداء نحو الاتراك والخط من قيمتهم ، وقد كانت هذه اللهجة محور كثير من الصحف التي كانت تصدر في غير البصرة . والنقطة الثانية هي اهتمامها بأخبار المعارك والدعاية للحلفاء وما يقال عن مدى تشبعهم بالروح الانسانية وانهم جاءوا لتحرير الشعوب لا لاستعبادها ، وهم في سبيل هذا كله ، راحوا يحشون الناس الى العلم والتشجيع عليه باعتباره وسيلة هامة الى الترقى والتقدم، غير أن الطابع السياسي والدعائي هو الغالب على هذه الصحيفة فكافت تملأ صفحاتها بالترجمة عن الصحف الانكليزية المهتمة بالمنطقة العربية قبل كل شيء .

واحتل الانكليز مدينة بغداد في ١١ / ١٣ / ١٩١٧ بقيادة الجنرال مود ، الذي اصدر بيانا طويلا لا زالت عبارته المشهورة وهي قوله « جئنا محررين لا فاتحين » ترون في آذان العراقيين لتدل بالتالي على روح الغدر الذي كان يضره المحتلون لهذه البلاد ، ويبدو ان العراقيين صدقوا هذه الوعود لأنهم كانوا في وضع غير طبيعي تحت حكم الاتراك . غير ان هؤلاء المحتلين الجدد سرعان ما قلبوا للعراق ظهر المجن وظهرت نياتهم الخبيثة ، وتبين انهم ليسوا بصدد تحرير العرب من ظلم الاتراك وانما هم بصدد تجزئة البلاد العربية الى مناطق نفوذ .

وعلى كل حال فقد ارتبط مصير العراق ببريطانيا وادى الى ربط القضية العراقية بالسلطات الانكليزية مباشرة فأخذت تتصرف في أمور البلاد على طريقته الخاصة وعينت الموظفين من ضباط الحملة البريطانية ، وكانت تصرفاتها مثار استنكار شديد من قبل ابناء الشعب بعد ان ظهر زيف ادعاء الانجليز . وقد حفظت المصادر التي اهتمت بدراسة هذه الفترة بالكثير من تصرفات المحتلين كأخذهم الاطعمة بأثمان زهيدة واستيلائهم على البيوت بأجور زهيدة ، كما فرقوا بين ابناء الشعب العراقي وقبوا النزعة الطائفية وبثوا الجواسيس في كل مكان حتى كان يخيل للمرء أن الاحجار والاشخاص اصبحت في زمرة الجواسيس كما يقول الاستاذ العمري .

ولم ينس المحتلون أهمية الصحافة في خدمة اغراضهم ، فمنذ أن وطئت أقدامهم مدينة بغداد فكروا في اصدار جريد باسم الاوقات البغدادية على غرار الاوقات البصرية « غير ان الاب الكرمل يذكّر انه استشار في هذه التسمية محمود شكري الالوسي فاقترح عليه أن تدعى العرب فاستحسن السر برسي كوكس هذه التسمية فكانت جريدة العرب » (٣٣) .

وقد جاء في العدد الأول منها انها « جريدة سياسية اخبارية تاريخية أدبية عراقية عربية المبدأ والغرض يصدرها في بغداد عرب للعرب » وقد صدرت في ١٩١٧/٧/٤ ، وهي لا تختلف عن جريدة

الاوراق البصرية من حيث المبدأ ، فقد جعلها الانجليز وسيلة دعاية لهم
تطعن بالاتراك وتعرض لهم بقارص الكلم ... حرر فيها نخبة من أدباء
العاصمة نذكر منهم الكرمللي وكاظم الدجيلي والبصير والزهناسوي
وغيرهم ، وكان أكثرهم لا يذكرون اسماءهم صراحة الأمر الذي يجعلنا
نعتقد أنهم كانوا يتوقعون تغيرا في سياسة المحتل .

أما أسلوبها فأسلوب صحيفة حديثة ، لا تختلف في شيء عن
جرائدنا العصرية ولا تهتم بقيود الصناعة اللغوية ، وفتحت صدرها
للشعر الذي يتضمن الطعن على الاتراك ويطري سياسة المحتلين كقول
شاعر بتوقيع (ابن السليقة) في مدح الملك جورج الخامس :

دعائي وحمدي ومدحي اتصل

لسلطاننا وعميد الدول

هو الملك المرتقى في علاه

مراقي ينحط عنها زحل

لقد نشر العدل في العالمين

وهل عادل مثله قد عدل (٣٤)

وفي الموصل ، وهي آخر مدينة عراقية احتلها الانكليز ، لتغدو
فيما بعد مشكلة مهمة ساومت بريطانيا عليها للحصول على مزيد من
المكاسب ، أصدروا جريدة الموصل ، وواجهتهم مشكلة الحصول على
صحفي أو أديب يستطيع أن يدير دفة الجريدة والتحرير فيها فاستعانوا

بائنين من أساتذة التعليم حتى تسنى لهم استقدام اديب صحفي من لبنان هو أنيس صيداوي (٣٥) . ولعل أهم الموضوعات التي عالجتها هذه الجريدة ، تلك التي تتعرض للثورة الشيوعية التي تصادف قيامها في هذه الفترة ، لقد امتلأت أعمدة هذه الصحيفة بالعديد من المقالات التي تحط من قدر هذه الثورة ورجالها واصفة إياهم بأبشع الاوصاف كقولها تحت عنوان (البولشفيفية) « طرقت مسامعنا هذه الكلمة الغريبة مرارا عديدة وتناقلتها الصحف العالمية بكل ما في معانيها من الهول والفوضى والاباحية ، حتى خيل لنا عند ذكر البولشفيفية ظهور شبح القوى الروسي وعظم قلبه الجلمود وكرهته لذوي التيجان والأشراف وأصحاب الأملاك ، لذلك فقد استاء الرأي العام ذو الوجدان الحي والضمير العادل لدى علمه بمآثم الحكومة السوفيتية وفظائع السلطة البولشفيفية التي أباحت النهب وزرعت بذور الفوضى وسفكت دماء الاحرار واتهكت المقدسات ورمت بملايين الابرياء بين مخالف الجوع والتعاسة والفقر » (٣٦) وقد استمرت هذه الجريدة حتى بعد ظهور الحكم الاهلي وهي تحمل نفس السياسة رغم تبدل ظروف الحكم ، في حين اغلقت جريدة العرب وحلت محلها جريدة العراق لصاحبها رزوق غنام .

ولم يكن بوسع العراقيين أن يسكتوا على هذه الأوضاع الشاذة ، فقاموا بتقديم الاحتجاجات على هذه التصرفات

(٣٥) انظر بطي تاريخ الصحافة في العراق - ص ٤٤ .

(٣٦) جريدة الموصل عدد ٥٨٢ سنة ١٩٢٢ .

الشاذة وطالبوا بابداء حرية الرأي والسماح لهم باصدار الصحف الوطنية التي منعتها السلطات عنهم ، وحينما لم تجد هذه المطالب العادلة صدى في نفوس المحتلين قامت الثورة المسلحة سنة ١٩٢٠ في النجف الاشرف والمناطق الجنوبية من البلاد ، والتف حول هذه الثورة الكثير من شيوخ القبائل ومثقي المدن ورجال الاحزاب .

لقد استطاعت هذه الثورة أن تثبت وجودها في بادئ الامر واستولت على مناطق كثيرة من العراق وكلقت بريطانيا الكثير من الاموال والرجال ، فقد ذكر المستر تشرشل ناظر الحرية البريطانية حينذاك في مجلس العموم « ان نفقات جنود الحامية البريطانية في العراق للسته الأشهر الاولى المنتهية في ٣٠/٩/١٩٢٠ تقدر بثلاثة عشر مليون ليرة » (٣٧) بالاضافة الى عدد كبير من الجسود « ان خسائر البريطانيين في حروب العراق قد بلغت على ما ادعى المستر لويد جورج في احدى المؤتمرات التي عقدت بعد انتهاء الحرب مائة ألف جندي بين قتل وجريح » (٣٨) ويبدو أن هذه الثورة كانت منظمة حتى ان الثوار انشأوا حكومة من بينهم واصدروا صحفا خاصة بهم تنشر أخبار الثورة وتحث الناس على الجهاد (٣٩) . ومن هذه الصحف جريدة القرائة ، اصدرها الشيخ الاديب محمد باقر الشيباني فكان

(٣٧) جريدة العراق عدد ١٣١ سنة ١٩٢٠ .

(٣٨) البزائر - العراق من الاحتلال الى الاستقلال - ١٥ .

(٣٩) انظر الثورة العراقية الكبرى الفياض ص ٢١٠ .

لها دوي كبير حينذاك صدر منها خمسة اعداد فقط ومن ثم اختفت باختفاء الثورة . وقد حاولنا العثور على عدد من اعداد هذه الجريدة فلم نفلح ، حفظ لنا المرحوم روفائيل بطي مقالا من مقالاتها تأخذ منه ما يلي « ... هون عليك يا ممثل الدولة الافكليزية ، ان الامة التي ناصبتها العداء وحكمت فيها السيف فأرقت دماءها وأزهقت أرواحها عداء محضا وتحكما صرفا بلا خوف من الحق ولا وجل من العدل ، ستقف واياك أمام محكمة التاريخ ليعلم من هو المجرم الذي ألتف النفوس وجنى على البشرية بلا رحمة ولا عطف . فالويل لمن صبغ الارض بدماء الابرياء . يا ممثل الدولة الافكليزية ماذا صنعت أمة العراق المظلومة حتى تستحق من ضباط الاحتلال هذا الفتك الذريع والتمثيل الشنيع والهتك الفظيع . أفعال تخجل منها العصور الاولى وتشمئز من فجائعها قرون الظلمة والظلم ، ويل لكم يا ضباط الاحتلال من ظلامه أمة كان جواب مطالبها الشرعية حز الرؤوس وتوصيل الاعضاء وحرق الجثث والتمثيل بالنفوس المحترمة ليت الذين رفعوا مقامكم في العراق التنفروا محبتهم في القلوب يشهدون ماذا اقم عاملون ومقترفون . ليت الذين بعثوكم للحرية والمساواة يشهدون فصلا واحدا من المأساة التي قمت بها ... ويل لمن اقامك تمثالا للقسوة والغلظة ، اما الرحمة ، واينها منكم يا قساة الرحمة ، ففضيلة تنحت من قلوبكم وابتعدت عن ضمائرکم » (٤٠)

اسلوب له أهميته في التأثير بالقراء لما فيه من تجسيم أعمال المحتل واطهارها بمظهر الحمجية والوحشية لكي يوغر صدور الناس على المحتلين ، ويقول الذين عاصروا هذه الثورة ان هذه الصحيفة كانت تنتشر انتشار النار في الهشيم ، وانها كانت ترسل الى خارج العراق لتبلغ مقام الملك حسين في الحجاز وبلاط فيصل في الشام . وهناك جريدة أخرى للثورة هي جريدة الاستقلال لم يصدر منها غير ثمانية اعداد وماتت بموت الثورة كذلك . ورغم ان بريطانيا قضت على هذه الثورة عسكريا الا انها لم تستطع أن تخدم جنودها في النفوس فرأت أنه لا مناص من استبدال الاحتلال العسكري بصيغ أخرى على أن لا تتعارض هذه الصيغ مع سيادتها ومصالحها ، وهنا يبدأ العهد الملكي في البلاد ، ولا فصيل الى جعله فترة قائمة بذاتها وان كانت ظواهر الامور تشير الى شيء من ذلك ، لان الحوادث المتتابعة أظهرت ان المحتلين ما زالوا يسيرون امور البلاد في الداخل والخارج ، فهم الذين هيئوا الحكم لأمير عربي ليس له من السلطة الفعلية شيء ، يذكر الاستاذ البزاز أنه « بينما كان الجانب الوطني يريد ان يكون البناء الجديد في وجهه ومادته وفي ظاهره وباطنه عربيا كان الجانب البريطاني يريد ان يبني البناء بريطانيا في باطنه وجوهره عربيا في ظاهره » (٤١) حينما طرد الامير فيصل من سوريا جيء به الى العراق عن طريق الانكليز أنفسهم ، وبهذا يكون مدينا لهم بهذا المنصب الخطير الذي

ظهر بعد مؤتمر القاهرة « وأسفر عن تقرير السياسة البريطانية في العراق بإنشاء دولة عراقية عربية يرأسها أمير من البيت الهاشمي » (٤٢) ومؤتمر القاهرة هذا عقده الساسة الانكليز سنة ١٩٢٠ حيث « أجرى ونستون تشرشل مع الامير فيصل محادثات ، توصل الفريقان خلالها الى نوع من التفاهم حول القضايا التي تهم الطرفين وقد تمخضت هذه المحادثات عن ترشيح الامير فيصل على عرش العراق على أن يتعهد الأخير بتوقيع معاهدة تحالف مع الحكومة البريطانية ، وقد برت بريطانيا بوعدھا للامير فيصل وفرشخته لعرش العراق في مؤتمر القاهرة سنة ١٩٢١ » (٤٣) وقام الانكليز بدورهم في تهيئة الجو للامير فيصل ، فكافوا يدعون الناس للموافقة على مضابط أعدت سلفا لكي يعطوا الانتخاب صفة شرعية ، في وقت لم يكن الناس يعرفون معنى الانتخابات ، ومع هذا فان بعض المناطق كلفت تعلن صراحة عن عدم رضاها عن النظام الملكي ويظهر « ان جماعات كبيرة من العراقيين لم يرضوا عن التنايير التي اتخذتها بريطانيا لانها لم تكن مطمئنة لامال العراقيين ، وكانت جماعة توفيق الخالدي من بين الجماعات التي تؤيد الحكم الجمهوري في العراق والتي إستمرت في معارضتها لتوضع الجديد » (٤٤) .

(٤٢) روفائيل بطي - الصحافة في العراق - ص ٨٠ .

(٤٣) عبد الله الفياض - الثورة العراقية الكبرى - ص ٣٢٩ .

(٤٤) ن . ف ص ٣٣٠ .

وكانت بعض الصحف تتهم بميلها للحكم الجمهوري كهذا الذي حصل مع الاستاذ داود السعدي صاحب جريدة دجلة ، فقد استغل البعض جرأته وصراحته في الشروط التي يجب ان تتوفر في الملك الذي يحكم البلاد فراح يوقع بينه وبين الملك ، في حين لم يكن هذا الصحفي اللامع غير واحد من المواطنين الذين يحسون بثقل المسؤولية التي عليهم أن يتحملوها في هذه الظروف الدقيقة التي عليها يتقرر مصير البلاد ، كما يظهر في قوله : « ... لا يهمننا اسم الملك بقدر ما تهمننا قدرته على القيام بواجبات البلاد ، وفي نظرنا أن الادارة الجديدة الصادرة عن اخلاص هي في مقدمة الصفات المطلوبة للذي يريد القبض على زمام العرش حتى لا يكون العوبة بيد اصحاب المطامع ... ويجب أن لا ننسى صداقة الملك للبلاد التي توج عليها لا البلاد التي ولد فيها ، ويجب على الملك اذا كان غريبا أن يتناسى ماضيه وان يتجرد عن الشعور الذي كان يحمله نحو مسقط رأسه والا فانتنا نرفض كل ملك يمنع عن الامة حريتها » (٤٥) .

وقد مرت ظروف عديدة بالبلاد كان الملك لا يملك رأيا خاصا فيها ، بل ان كثيرا من الحوادث أثبتت ان الملك لم يكن سوى خيال واه امام الانكليز ، فحينما « عقدت اتفاقية بين السعودية والعراق سنة ١٩٢٥ وقع فيها من الجانب السعودي الملك عبد العزيز بختمه ووقع فيها من الجانب العراقي (كلبرت كلارين) بختم ملك العراق فيصل

الاول « (٤٦) . ولا يمكن ان نجد مبررا لهذا التفويض في دوالسة مستقلة . ولما ألفت أول وزارة في العراق بعد التتويج « قدم الملك فيصل قائمة وزارته وقدم المندوب السامي قائمة وزارته فاذا بها تختلف عن قائمة الملك وبعد أخذ ورد طويلا عين النقيب للوزارة الجديدة وفقا لرغبة المندوب السامي « (٤٧) . وفي عهده كان أكثر الموظفين من الانكليز ، وكلان الكل وزارة مستشار هو الذي يسير الامور ، وقد استمر هذا كله الى الحرب العالمية الثانية .

أما قبود الاقتداب والمعاهدات المختلفة التي تلت ذلك فأمرها قد يطول لما فيها من اجحاف بحق البلاد ، وقد اثارت كثيرا من القلق الفكري والنفسي حينذاك ، انعكس صدها على الادب والصحافة وجعلتهما يدوران في هذه الحاقة ولا يكادان يتعدان عنها . لقد اصبحت الصحافة في حرب سجال بينها وبين السلطة الحاكمة ، مما اضطر هذه الاخيرة الى سن قوانين صارمة تحد من حريتها فقد ذكر كثير من المطلعين أن الظروف التي كانت تخضع لها الصحافة في العهد العثماني كانت أكثر حرية من هذه القوانين الجديدة والمتغيرة التي كانت تسنها الحكومات المتعاقبة (٤٨) .

وعلى هذا الاساس فلا مجال للفصل بين عهد وآخر حتى ان

(٤٦) الحسني - تلويح الوزارات العراقية ج ٢ ص ٦ .

(٤٧) فوستر ص ١٥١ .

(٤٨) انظر الحسني - « الصحافة العراقية » ص ٨ .

كثيرا من الصحفيين كانوا أكثر من مخضرمين نذكر منهم الاب الكرملبي
الذي أصدر لغة العرب في العهد التركي وعمل في جريدة العرب أيام
الاحتلال ، وعاد الى لغة العرب في العهد الملكي وقل مثل هذا مع
روفايل بطي ، وابراهيم حلمي العمر وابراهيم صالح شكر وغيرهم
الكثير .

والصفة العامة الصحافة هذا العهد هي أنها عكست هذا
الوضع العام بكل ما فيه من متناقضات ، كما تطورت من حيث
الخراج والحجم والموضوعات وهذا طبيعي ، لتغير ظروف البلاد
وكثرة المدارس وانتشار التعليم بين عدد كبير من الناس ، فبدأت
هذه الطبقة الجديدة تفرض وجودها وتبحث عن غذاء فكري وثقافي
فوجدته في الصحف على الاكثر وفي الكتاب بعد ذلك . وكان نزوع
هذه الطبقة الجديدة الى الحرية مشار انزعاج للسلطة العامة في البلاد
فاختصرت الطريق وراحت تحارب الحرية بمفهومها العام ، فما ان
تأتي حكومة الى دست الحكم الا وتحمل بين جنبيها قانونا جديدا
يزيد من القيود السابقة . وقد ترك هذا كله أثرا كبيرا على الصحافة
فبينما تجد عددها يصل الى المئات في بعض الاحيان اذا به ينقص الى
اقل من اصابع اليد الواحدة . ومن اهم الصحف التي ظهرت في هذا
العهد جريدة العراق لصاحبها رزوق غنام وجريدة الاستقلال العبد
الففور البدري وجريدة البلاد الروفايل بطي والزمان للاستاذ قوفيق
السمعاني ، بالاضافة الى الصحف الحزبية التي ستعرف عليها في فصل
قادم .

كما ظهرت في النجف صحف أدبية كثيرة وخاصة في الثلاثينيات
اهتمت بالثقافة العربية القديمة وأولت الشعر العربي اهتماما كبيرا في
حياتها الطويلة •

كما ظهرت في النجف صحف أدبية كثيرة وبخاصة في الثلاثينيات
فكانت حدثا تاريخيا هائلا لم يكن يتوقعه العراقيون بهذه السهولة
والسرعة ، وان كانت كل البوادر تدل على حدوث مثل هذا التغير •
وكان المفروض بالشعب العراقي أن يستغل هذه الثورة ليعوض ما فاته
من سني الكبت والحرمان الى حيث العمل الجدي المثمر • غير أن
الاضاع الشاذة التي كان يعيشها الشعب قبل الثورة والتناقضات
الكبيرة في مستوى حياته الفكرية والمعيشية لا يمكن الا ان تترك اثرا بعد
أن تهيأ لها الجو المناسب •

فالجو الارهابي الذي عاشته البلاد وبخاصة في السنوات التي
سبقت الثورة اضطرت الكثيرين الى أن ينخرطوا في المنظمات السرية
المختلفة ، وقد ظهر فيما بعد أن بعض هذه المنظمات لهم تكن بمستوى
المسؤولية بحيث تستطيع ان توجه اعضاءها توجيها سليما • لقد استقطبت
هذه الاحزاب كثيرا من الشباب المتحمسين الذين لا يملكون ركيزة
ثقافية تؤهلهم للعمل الحزبي فاندفعوا وكأنهم آلات مسخرة لذوي
الاطماع يسرونهم كيف يريدون •

اما الاحزاب العلنية فقد كانت الحكومات المتعاقبة تلاحقها ، فما
تكاد تظهر الا لتختفي بعد ذلك ، فاضطر كثير من منتسبيها أن يتوجهوا

شطر الاحزاب السرية ، ولكنها مع هذا أدت واجبها في كثير من الاحيان التي كانت تظهر فيه على المسرح السياسي . لقد انعكست هذه التناقضات بصورة واضحة منذ الايام الاولى للثورة وان تأخر ظهورها قليلا ، وقد ساعدتها على ذلك اختلاف الآراء داخل صفوف الثوار انفسهم فتحيز بعضهم لجهة دون أخرى ، وكان لا بد لجهة منهما أن تكون . فتحول النزاع الى نزاع نظري وعملي . لقد تهيأ الجو للحزب الشيوعي وجماعة اليسار في أن يسيطروا على الصحافة ويوجهوا وسائل الاعلام فحولوها الى واجهات للخدمة اغراض معينة ، واستغلوا الصحافة والادب استغلالا فظيلا لنشر مبادئهم ، وفي الوقت نفسه راحوا يشعلونها حملة ضارية على مناوئهم بعد أن جردوهم من كل وسيلة دفاع . لقد كانت جل صحف هذه الفترة تحمل طابع الهجوم والمقال التزالي ، من ذلك جريدة اتحاد الشعب لسان حال الحزب الشيوعي العراقي السري والتي انتشرت انتشارا واسعا لم تعهده الصحافة العراقية من قبل ، بل لقد اصبحت تعويذة يقتتها المرء دفاعا عن نفسه ، وقل مثل هذا في جريدة التقدم وصوت الاحرار وبعض الصحف الاخرى التي تحوالت بحكم الظروف الى صحف يسارية مع انها كانت صحفا يمينية أو معتدلة كجريدة الزمان وجريدة البلاد . أما مقالاتها فكانت تدور في حلقة معينة لا تخرج عن التعرض للقومية العربية والخط من دعايتها ، وفي كثير من الاحيان كانوا يستعدون البسطاء على مخالفتهم من الجهة الاخرى .

اما في المجال الادبي فقد ظهرت صحف كثيرة لا عهد للبلاد بها كانت مثار نشاط فكري وادبي ، ولكنه أدب موجه يلتزم خطا معيناً ، ومن هذه الصحف مجلة الانسانية والحضارة والمثقف والاديب العراقي وغيرها الكثير .

على ان هذه الاوضاع لم تدم طويلا لأن الجهة المناوئة كانت هي الاخرى تعمل في الخفاء فأجمعت أمرها وانقضت على وزارة الدفاع سنة ١٩٦٣ وبهذا بدأ عهد جديد يختلف اختلافا جذريا عن سابقه فحصر السلطة بيده ومنعها عن الجانب الاخر ، ومن هنا برزت صحف جديدة تلائم الوضع الجديد تحمل نفس الطابع الهجومي واللهجة القاسية مع ما فيها من تهديد ووعيد .



الباب الثاني

اللغة والادب في الصحافة العراقية

الفصل الاول

اللغة والصحافة

يخطيء من يظن أن فكرة القومية العربية وليدة مناهضة سياسة التتريك التي ظهرت في نهاية العقد الاول من هذا القرن، فالمسألة أعمى من هذا بكثير . فمن يتتبع الصحافة العربية التي كانت تصدر في النصف الثاني من القرن الماضي ، يلاحظ أن أكثر اهتمامها كان ينصب على حركة احياء اللغة وجعلها متطورة مع العصر الذي تعيش فيه ، فجد همدًا بصورة واضحة في جريدة الجوائب وفي مجلتي الجنان والمقتطف . على أن هذا الاهتمام باللغة ، لم يكن غاية في حد ذاته ، بل كان وسيلة الى شيء أعم وأشمل . لقد رأى هؤلاء الرواد من اللغويين والأدباء ان احياء امة ران عليها الخمول والكسل طيلة قرون عديدة يتطلب احياء قرائها وأمجادها ، وان احياء هذا التراث وتلك الامجاد

يتطلب احياء اللغة وآداب تلك اللغة •

يذكر الاستاذ أحمد عزت الاعظمي صاحب مجلة المعرض البغدادية والصحفي البارع الذي نشر كثيراً من بحوثه في الاستافة ، وعمل الكثير من أجل جمع كلمة العرب هناك ، يذكر في مجلته « يقولون ان اليقظة القومية وليدة الانقلاب التركي نشأت في أحضان سوء التفاهم بين الترك والعرب وتغلنت بلبان الحقد والحسد وترعرعت تحت ظلال الدسائس والفتن • ولكن هذا القول ما هو إلا هراء • فقد ولدت اليقظة القومية قبل أن يولد الدستور وقبل الانقلاب التركي بعقود من السنين » (١) •

فحركة احياء اللغة العربية وآدابها كانت بداية الحركة القومية في عالمنا العربي • نظر هؤلاء الرواد الى واقع أمتهم فوجدوه واقعاً مريراً يغلب عليه الخمول في عصر يعج بالتطورات الفكرية والعلمية • وهم في سبيل أن يغيروا هذه الاوضاع التفتوا الى اللغة ، باعتبارها أكبر وسيلة في ايجاد شعور مشترك يساعد على بعث هذه الأمة من رقدها وسباتها • ولكي تصل اللغة الى هذه الغاية ، فان عليها أن تتقبل الافكار الجديدة والعلوم العصرية وتستوعب الحياة الحديثة التي يحياها الناس في عصر النهضة • هذه فاحية ، وفاحية أخرى أنهم وجدوا أن السلطة العثمانية تحكم العرب باسم الاسلام ، وكتاب الاسلام المقدس هو القرآن ، ولغة القرآن هي العربية ، ومعنى هذا أنهم حينما يخدمون العربية لا يثيرون عليهم نقمة السلطة ، لأنهم بهذا إنما يخدمون لغة القرآن ومن

هنا دخلوا ، فوجهوا جل عنايتهم الى اللغة ، فكانوا حركة دائبة لاتعرف الكلل وبهذا عبدوا الطريق أمام الأجيال اللاحقة لتجد لغة سهلة متطورة تلائم العصر الذي تعيش فيه . كل هذا ما كان ليكون لولا هؤلاء الرواد من الصحفيين واللغويين والأدباء ، الذين أفنوا حياتهم في خدمة العربية وآدابها . ونستطيع أن نعرف مقدار الجهد الذي بذله هؤلاء الرواد اذا تصورنا لغة جمدت في مكانها ما يقارب أربعة قرون ، خضع العرب خلالها لأهم شتى تتكلم لغات شتى أوشكت معها العربية على الضمور والاختفاء لولا تمسك المسلمين بأمر دينهم . فابتعدت العربية طيلة هذه الفترة عن التطور وانطوت على نفسها ، حتى جاء عصر النهضة ، عصر هؤلاء الرواد فوجدوا حاجة ماسة الى تطويرها وجعلها ملائمة للعصر ، في وقت كثرت فيه الاكتشافات والاختراعات التي فرضت نفسها على الناس فرضاً وهجمت عليهم هجوماً غريباً ، فلم يعد أمام أعلام هذه النهضة فرصة للانتظار ، فعملوا كل ما في جهمهم لمسايرة هذا التيار وتطوير اللغة ما شاء لهم اجتهادهم ، يقول جرجي زيدان « لم يمر على اللغة العربية عصر أثر في الفاظها وتراكيبها تأثير النهضة الاخيرة في أواسط القرن الماضي لأنها جاءت على غرة دفعة واحدة ، فانهاالت فيها العلوم انهيال السيل ، وفيها ألطب والطبيعات والرياضيات والعقليات وفروعها ، ولم تترك الناس فرصة للبحث عما تحتاج اليه تلك العلوم من الألفاظ الاصطلاحية مما وضعه العرب واقتبسوه في نهضتهم

الماضية» (٢) . وربما كان هذا الهجوم الكاسح للألفاظ والأصطلاحات الحديثة في عصر النهضة هو الذي أدى الى وجود رأيين خرج منهما رأى آخر هو الذي استطاع أن يثبت في الميدان ويقوم بحركة احياء اللغة وتطويرها ونشرها عن طريق الصحف والمطبوعات . الرأي الاول يرى أن العربية لم تعد مسايرة للعصر ، وأنها قاصرة عن تقبل كل هذا الفيض الغزير من الاصطلاحات الحديثة في مبادئ العلوم والفنون ولهذا فلا بد من ادخال الألفاظ الشائعة على الألسن من اللغات الاخرى لشيوعها ومرونتها ، من ذلك ما ذهب اليه أحمد لطفي السيد « لغتنا واسعة في القاموس ضيقة في الاستعمال ، خصبة في المعاني والمسميات القديمة مجدبة في المعاني الجديدة والاصطلاحات العلمية ، فقد انقطع رقيها من قرون طويلة الأتومييل والبسكليت والجاكيت والبنطلون والحزمة والمودة كل هذه الأسماء ما ذنبها حتى تهجر في الكتابة الى غيرها من الألفاظ . . . ان هذه الاسماء الاعجمية وأمثالها قد دخلت في لغتنا دخولا تاما واستعملت استعمالا شائعا فلا نستطيع أن نضع لها اسماء جديدة لا يعتد بها أحد » (٣) .

وهناك دعوة أخرى قريبة من هذه تطالب باستعمال الحروف اللاتينية بدل الحرف العربي من ذلك ما ذهب اليه عبد العزيز فهمي وحجته في ذلك سهولة الكتابة فيها وعدم احتمالها

(٢) جرجي زيدان - اللغة كائن حي - ص ١٠٤ .

(٣) انور الجندي - المعارك الادبية - ص ٧٣ .

لعدة صور في المعاني ، فكلية (كتب) مثلاً تحتل ان تكون فعلاً ماضياً مبنياً للمعلوم وللجهول وجمع كتاب ، وربما كانت هذه الدعوة متأثرة الى حد بعيد بحركة كمال أقاتورك حينما غير الحروف العربية الى حروف لاتينية في الكتابة والغاية منها إشاعة التعليم بين الجماهير المختلفة في زمن قصير والعمل على توطيد الصلة بين الثقافة العربية والثقافات العالمية المختلفة الامر الذي يساعد على نشر الثقافة وشيوعها بين مختلف طبقات الناس . لقد اخذت هذه الدعوة وامثالها وقتاً طويلاً في الصحف العربية ، فكانت ماثراً مناقشات طويلة وحادة أغنت الادب العربي وجعلت اللغة سهلة طيبة مقبولة في الكتابة والقراءة . ويقابل هذا الرأي رأي آخر لا يقل عنه تطرفاً ، يرى أن العربية من أغنى لغات العالم وانها ليست بحاجة الى هذه المصطلحات الحديثة التي تحط من قدرها وقدسيته وتجعلها تابعة لغيرها من اللغات ، وهذا ما سنعرفه عند الكلام على مجلة لغة العرب بعد قليل .

أما رواد النهضة الحديثة في القرن التاسع عشر ، فقد وضعوا في حسابهم لغة جمعت في مكانها عدة قرون ، وانهم يعيشون في عصر امتدت فيه النهضة الى كل جانب من جوانب الحياة ، فكان عليهم أن يعيشوا هذه اللغة أولاً وأن يطوروها ثانياً ، وهو موقف يدل على شعور بالمسؤولية ، مقدر للتطورات ، معترف بما للعربية من أصالة . فاذا كان الاولون قد تصرفوا باللغة واجتهدوا في حدود متطلبات عصرهم ، فالاجدر بهم أن يتصرفوا كما تصرف أولئك لانهم ورثتها ، وليس

الأولون بأكثر تمدنا من أهل هذا العصر ، ولا حياة للغة اذا لم يحاول أهلها التجديد فيها ، ولهذا فقد استعملوا أدواتهم التي تساعدهم على ذلك ، ففتحوا واشتقوا وعربوا ماشاء لهم اجتهدهم ، فأدخلوا كلمات جديدة ليس لها أصل في العربية ، وأصبح لكل واحد من هؤلاء الاعلام اصطلاحات خاصة به كان أول من أوجدها واستعملها لتشييع بعد ذلك وسوف نقف على كثير من هذه الالتاظ في نهاية هذا الفصل .

لقد صورت الصحافة العربية كل هذه الآراء اذ نجدها منبثة في جريدة الجوائب والجنان والمقتطف وغيرها ، فصاحب الجوائب مثلاً عنى باللغة العربية وآدابها عناية تامة ، وفتحت جريدته صدرها لكثير من العلماء والأدباء واللغويين في ذلك الوقت ، يقول الشدياق عن حبه للعربية « اني قد عشقتها عشقا وكلفت بها حتى صرت لها رقا ، فلم يشغلني عنها هم ، ولم يصدفني أرب خص اوعم ، فكانت أنسي عند الوحشة وسلواني عند الحزن وصفوي عند الكدر وسروري عند الشجن » (١) فكان أن قضى أكثر حياته في خدمتها ، الأمر الذي يدل على حبه للعروبة في لغتها . ولم تقف خدمته اللغة عند الجوائب فحسب بل ألف عدة كتب لغوية كانت مثار استحسان كثير من الناس في عصرها ، ومنها سر الليال في القلب والابدال والفارياق أو الساق على الساق ، الجاسوس على القاموس ، منتهى العجب في غرائب لغة العرب . واليه ينسب وضع اصطلاحات عديدة وبخاصة في ميدان العلوم .

(٤) انور الجندي - اللغة العربية بين خصومها وحماتها ص ١٣٦ .

ونجد ايضا مثل ذلك عند البستانيين ويعقوب صروف ورفاعة الطهطاوي والكرملي وغيرهم ، قال صاحب لغة العرب « وقد توالى بعد ذلك الاحقاب والعصور واللغة لم تزل متسكعة في ديجور القبور الى أن مست الضرورة الى تدارك هذه الحال ، فمن الله على العربية في النصف الاخير من القرن التاسع عشر ببضعة رجال هم على الحقيقة أولو عزم وحزم من فحول بر الشام ومصر ، ألا وهم الشيخ فاصف اليازجي والمعلم بطرس البستاني والدكتور كرينليوس فاندريك وأحمد فارس الشدياق ورفاعة الطهطاوي وعبد الهادي الأياري ، فيحق لهؤلاء الزعماء والأماثل ان تدون اسمائهم بمحلول من التبر في صفحات التاريخ اجلالا لقدرهم » (٥) .

وكل واحد من هؤلاء اشتغل بالصحافة باعتبارها خير وسيلة لنشر اللغة واشاعتها فجاءت صحفهم تعج بهذه الاصطلاحات ، وبالمقالات الكثيرة في اللغة والادب ، وبالمناظرات وبالمطارحات المختلفة التي كانت تقوم بينهم ، لتحول هذه الألفاظ والاصطلاحات الى كلام سهل مقبول من القراء . وقد حفظت لنا الصحافة العربية كل تلك المطارحات ، نجدها في الجوائب والمقتطف والجنان والضيء وغيرها ، تقوم بين أشهر أعلام اللغة في ذلك الوقت ، فذكر على سبيل المثال لا الحصر ما كان يجري من جدل بين الشدياق وابراهيم اليازجي على صفحات مجلة الجنان ، قال الشدياق « لا يخفى أن الخواجا ابراهيم اليازجي كان

قد كتب في صحيفة الجنان مقالا خطائي فيه فيما أوردته على لفظة (الفطحل والمرابض) (٦) ثم انتقل منها الى بعض ألفاظ وردت في مقدمة سر الليال في القلب والابدال وأطال لسانه بالتهكم والتنديد مكافأة لي على كوني رثيت أباه . . .

ان تخطيطه كانت ظاهرة ولأن كلامه كله بني على المغالطة والتمويه وتلك صفة كثير من أمثاله الذين زببوا قبل أن يحصرموا ، فاذا قالوا شيئاً فانما يريدون به اعجاب جيرانهم ومعارفهم من الاغبياء لا ارضاء العلماء ، الا اني لما استقر بي المقام في الآستانة رأيت الجواب عن سقطه المذكور أولى من السكوت ، لكي يعلم الناس أنني ما زلت مراعياً لحقوق العربية التي تقضي علي بأن اردع كل سفيه عنها . . .» (٧).

ومع ما في هذا من تحامل مقصود به الاذى والتعريض بالخصم، الا أنه تحامل مقبول ، يجعل اللغة أداة طيعة في التعبير ، كما أنه يشكل عنصر إثارة في مجال النشاط الفكري والثقافي . وقد رد عليه الشيخ ابراهيم اليازجي في نفس العدد فقال « قد علم الكثيرون ما وقع بيني وبين احمد فارس بسبب ما أوردته في صحيفة الجوائب من الاعتراض على أبي رحمه الله في مسألة (الفطحل والمرابض) وما أجبتة اذ ذاك

(٦) الفطحل كما جاء في لسان العرب : دهر لم يخلق الناس فيه

بعد . وزمن الفطحل زمن نوح النبي . وجمل فطحل ضخم .

والمرابض الغنم كما ماطن للابل واحدها مربض .

(٧) الجنان عدد ٢١ سنة ١٨٧١ ص ٧٢٩ .

بصحيفة الجنان ، فكأنما أوغر ذلك صدره وكبر عليه أمر تخطئتي له فيما اعترض به ، وتنبيهي على بعض ما رأيت من الخطأ في كتاب سر الليال . فأخذ في الوعد والتنديد مرة بعد الأخرى ... حتى عدل الى المسافهة والمهاترة وصرح بما لا يليق ذكره ، فعجبت من ارتكابه هذه الخطوة المنكرة لأننا كنا قد دخلنا في أول الأمر من باب المناظرة الادبية ... وقد كنت أحسب ان تمادي الايام قد حان له أن يهذب من أخلاقه ويمكن عنده أسباب الحلم والدمائة والصبر على المكروه أكثر مما أرى في نفسه هذه المرة ، فاذا دمه لم يزل على حرارته المعهودة » وقد استمر هذا الجدل في اعداد كثيرة من مجلة الجنان فأغنى العربية بأداب المناظرة مما كان له أكبر الاثر على الاساليب والاهتمام بالناحية العلمية .

ولم تكن اللغة هي المجال الوحيد لهذه الصحف ، فقد أولت الادب عناية خاصة ، واهتمت بالأخبار والاكتشافات العلمية الحديثة ، وكانت وسيلة للنقل والترجمة عن اللغات الأجنبية مما جعلها بحق جسرا الى عصرنا الحديث .

اما الصحافة العراقية فلم تتح لها فرصة المشاركة في هذه الحركة اللغوية التي كانت تجري في الصحافة العربية ، وذلك لتأخر العراق في اصدار الصحف الشعبية نتيجة ظروف البلاد الخاصة . غير انه منذ ظهور هذه الصحف ، بدأت تشعر بالمسؤولية ، وأولت هذه الناحية ما تستحقه .

واهتمام الصحف الرائدة في العراق باللغة العربية ، انما يعبر عن طبيعة المرحلة التي وجدت فيها هذه الصحف - وهذا امر طبيعي - لأن البلاد في هذه الفترة كانت تحكم حكما مباشرا من قبل العثمانيين ، كانت فيها اللغة التركية هي اللغة الرسمية السائدة في المعاملات الحكومية والمدارس الاميرية ، ولم يكن من المعقول والحالة هذه أن تهتم الصحف باللغة ذاتها نحوا وصرفا ولغة وتركيبا ، قبل أن تهتم بما هو أكثر ملائمة للاوضاع ، والا كان عملها كمن يحاول أن يضع الشيء في غير موضعه ، ومن هنا انصب اهتمامها على المطالبة باستعمال اللغة العربية في المدارس الابتدائية وفي المعاملات الرسمية والمحاكم ، قبل الاهتمام باللغة ذاتها ، باعتبار أن هذا القطر عربي ، يتكلم أهله العربية ، فلا حاجة لارغامه على استعمال لغة بعيدة عنه ، وهذا ما نلاحظه في جريدة الرقيب وجريدة صدى بابل . فقد كانت هاتان الجريدتان - وبخاصة الأولى منهما - تلحان على استعمال العربية في كثير من مقالاتهما ، في وقت كانت فيه أمثال هذه الدعوات تعرض صاحبها لأقسى العقوبات ، من ذلك قول جريدة الرقيب « كلنا نعرف أن الاولاد المتعلمين في المكاتب الابتدائية الذين حازوا الشهادة منها لا يعرفون شيئا من اللغة التركية لان تلك المدة لا تكفيهم لتعلم اللغة تكلما فضلا عن القراءة والكتابة بها ، ولا يعرفون شيئا من القواعد العربية فضلا عن التحرير بها ، فماذا حصل لهم من التوائد من وجودهم في المكتب ؟ أما لو كان التعليم في المكاتب الابتدائية بلغة الوطن العربية

لتمكن الولد أن يتعلم في مدة بقائه فيه ما يمكنه من تحرير جواب كتاب
يرد إليه . . أليس من الخزي والعار أن لا نجد في بلاد العرب من
يحسن كتابة سطر بالعربية ؟ أليس هذا من الأسباب لانقراض هذه
اللغة الشريفة ؟ » (٨) . تحليل منطقي معقول ، فالأطفال في مثل هذه
السن المبكرة يجدون صعوبة كبيرة في تعلم لغة لا يستعملونها في البيت
أو في الشارع ، ومن هنا تضع الفائدة المتوخاة من دراستهم ويذهب
الوقت عبثاً ، فلا هو بقادر على أن يكتب بالتركية ولا هو بقادر على
أن يكتب بلغته العربية . وفي المقال بعد هذا ما يدل على شعور
بالمسؤولية إذا أخذنا بنظر الاعتبار هذا التعصب للتركية ومحاولة إرغام
الناس على تعلمها ، وربما كان هذا هو النسب الذي أفقد الناس الثقة
بهذه المدارس وإرسال أطفالهم إليها ، كما أفقد العربية حرية الحركة
والمرونة لقلة استعمالها وانزوائها في مناطق معينة حيث الجوامع والمساجد،
بعيدة عن الاستعمال الحديث ، ولم تكتف جريدة الرقيب بهذا بل
راحت تهتم بأخبار اللغة وكل ما يؤول الى تقدمها فكان من ذلك
قولها : « من أخبارنا الخصوصية أن الحكومة العثمانية عازمة على جعل
اللغة العربية لساناً رسمياً كالتركية ، وربما تقرر هذا في القريب العاجل،
وحينئذ تكون الحكومة العثمانية أول حكومة ذات لسانين رسميين ،
ولعمري أنه لخبر هام يهش له كل عربي بحث ٥٥٥٥ » (*) غير أن هذا
الشعور بالتفاؤل ، لم يكن في محله ، اذ سرعان ما ظهرت فزعة التتريك

(٨) جريدة الرقيب عدد ١٢ سنة ١٣٢٧ هـ .

(*) ن . ف عدد ٩٦ سنة ١٣٢٨ هـ .

وقضت حتى على هذا النزر اليسير ، فحينما عين ناظم باشا والياً على العراق قام بأمور غريبة أهمها محاربة العربية في موطنها « قد كان حضرة والينا ناظم باشا أعلن منذ قدومه للولاية عدم قبول الأوراق التي ترد الى الدوائر الرسمية باللغة العربية » (٩) .

ولم يكتف بذلك بل حارب الصحافة العربية وألقى القسم العربي في جريدة الزوراء الرسمية كما ذكرنا .

ولما جاء عهد الاحتلال البريطاني لاحظ المحتل مدى اهتمام العراقيين بلغتهم فأخذ يضرب على هذه النغمة ، ويجعل منها وسيلة تقرب الى الشعب العراقي ، فأنشأ المدارس وجعل العربية لغة التدريس ، وأصدر جريدة العرب التي أوأت هذه الناحية عنايتها واتخذت منها وسيلة دس وطعن على الأتراك كقولها : « كيف فسدت اللغة العربية حتى افحطت الى هذه الدركات من التسفل ؟ سببه الترك ، تلك الأمة الفاسدة المستبدة ، التي أخذت على عاتقها أن تفسد كل صلاح على الأرض ، حتى ان من جملة ما آلت به على نفسها أن تفسد لغة عدنان ، لغة قریش ، لغة هاشم أفصح من نطق بالضاد ، لغة دين المسلمين ، لغة شريعتهم وآبائهم وأجدادهم ... وبقي الأمر جارياً على هذا الوجه حتى سقط بغداد في هذه السنة ، وكان الأتراك قد أقاموا عدة مدارس يدرس فيها لسانهم على الأساليب الحديثة وليس في المدينة كلها مدرسة واحدة عربية للتعليم ، سوى بعض كتابيب لا يلتفت اليها لخمولها ... »

وما أن دخل الافكليز إلا وأجبروا الناس على تعلم اللغة العربية في جميع المدارس ، وصرحوا بأنهم لا يهتمون بتدريس الافكليزية فيها . . . » (١٠) طعن على السياسة التركية في أهم نقطة تشغل بال الرأي العام حينذاك ودعاية لسياسة المحتل الذي أولى هذه الناحية ما تستحقه من عناية . وعلى كل حال فإن خدمة اللغة العربية في الصحافة العراقية خدمة لغوية صرفة لم تظهر إلا في بداية العقد الثاني من هذا القرن بظهور مجلة لغة العرب المشهورة لصاحبها العلامة اللغوي الأب أنستاس ماري الكرمللي .

لقد أدت مجلة لغة العرب خدمة كبيرة للعربية وآدابها ، حتى أن دراستنا لتبدو ناقصة الى حد بعيد اذا نحن لم نعطاها ما تستحقه من عناية تليق بها وبصاحبها الذي خدم لغة الضاد خدمة تذكر فتشكر . أما صاحبها فراهب متبتل أنصرف بكليته الى خدمة اللغة العربية وآدابها فلم يعد يشغله عنهما شغل ، كما كان موسوعة علمية قائمة بذاتها ، يرتبط اسمه بمجلة لغة العرب التي كان لها تاريخ حافل في هذا المجال ، وتعتبر بمثابة الجسر الذي عبر عليه كثير من رواد النهضة العراقية الى عصر النور والعرفان .

وتبدو أهميتها اذا تذكرنا اللغة تعاني سكرات الموت ، لما مر عليها من ظروف قاسية وطويلة ، كانت اللغة التركية هي اللغة السائدة في المدارس والمعاملات الرسمية ، في حين كانت العربية منزوية في الجوامع

ومدارسها القليلة ، بعيدة عن كل ما هو خارج عن حدودها ، اذا تذكرنا هذا كله ، أدركنا مدى الجهد الذي قامت به لغة العرب وصاحبها في خدمة اللغة العربية وآدابها .

لقد كان الكرمللي حارساً أميناً وسوكة في عيون أولئك الذين يدعون الى استعمال العامية بدل الفصحى أو الذين يدعون الى استعمال الحروف اللاتينية بدل الحروف العربية ، لما له من قدرة علمية بارعة تستطيع أن تقول رأيها في المعضلات ، قال البروفيسور جب « لو خيرت في انتخاب عبارة واحدة لوصف الاب الكرمللي لأخترت عبارة شديد المراس ... فقد كان بارز الشخصية في كل مجتمع ، لما له من مظهر تفاد تافه مسوح الرهبانية ، ومع هذا فقد كان يحتفظ ببساطة فاحرة وعقلية فذة حتى نهاية حياته ... وحسبنا دليلاً على ما تقول انتخاب الاب الكرمللي ممثلاً عن العراق في المجمع اللغوي العربي الذي انشيء في القاهرة سنة ١٩٣٣ ففي ذلك اكرام لشخصيته وتقدير لمكاته كعالم لغوي وأديب فذ ، ويكفي أن آتى على خدمة من خدماته العديدة التي قدمها الراحل للأدب العربي ألا وهي تأسيسه لمجلة لغة العرب ، ابان حكم الاتراك فنال شهرة ملموسة رغم الظروف فقد بلغت شأوا عظيماً في الاوساط الأدبية لما فيها من مقالات في شتى المسائل اللغوية والتي دبح معظمها هذا العلامة بنفسه » (١١) .

ولم تقتصر مجلة لغة العرب على اللغة وحدها ، بل كانت مجلة

فكرية جامعة الى أبعد حد لشمولها واهتمامها بالثقافة العربية ، وعلى هذا الاساس اعتبرها كثير من المستشرقين والمهتمين بالثقافة العربية أكبر مرجع لهم في دراسة الأدب العربي الحديث الذي لم يتأثر بالثقافات الاجنبية كما في مصر وسوريا . كتب المستشرق الالمانى كنفار « إن مجلة لغة العرب التي يحررها الأب الكرملى في العراق هي المجلة الوحيدة التي تزخر بالمقالات العلمية والتبذ التاريخية والقصائد الشعرية ، وانى أنصح المستشرقين الأفاضل أن يطالعونها بامعان لأنها عربية محضة ، وكتابها وشعراؤها من العرب الأقطاح ، وانى أفوقها على كثير من المجلات في مصر وسوريا ، لأن مجلات مصر وسوريا كتابها وشعراؤها يترجمون عن الافرنجية ، وقد تحقق عندي أن في العراق كتابا وشعراء مجيدين ، ولكنهم من قبل أن تصدر لغة العرب يعيشون بنات أفكارهم الى جرائد مصر وسوريا ولا يضعون اسم العراق ازاء أسمائهم . فلذلك أهملوا ، فعليكم أيها المستشرقون بمطالعة لغة العرب لتستفيدوا من مواضيعها العربية البحتة » (١٢) ولا غرو في ذلك فقد تهيأت لهذا العلامة من الظروف ما لم تنهيا لغيره ، دخل مدرسة الالباء الكرملين وبقي فيها الى الحادية عشرة من عمره حيث أدخل مدرسة الاتقان الكاثوليكي وبقي فيها سبعة أشهر درس خلالها مبادئ النحو والصرف على الشماس يوسف خياط ، ليعود بعدها الى مدرسة الثلاثين الكرملين ، حيث تلقى هنا مبادئ الفرنسية ، ويبدو من خلال دراستنا لهذه الشخصية أن حبه

للعربية جاء عن طريق دراساته الخاصة في كتب النحو واللغة والصرف ،
حتى اذا ظهر منه هذا الميل والنبوغ عينه مدير الارشالية الكرملية
مدرسا للعربية وآدابها في المدرسة المذكورة ولم يتجاوز عمره حينذاك
السادسة عشرة . (١٣) وبعدها ذهب الى بيروت ودخل المدرسة الاكليرية
للأباء اليسوعيين ، وهناك درس العربية واللاتينية واليهودية . وبعد
أكثر من سنة غادرها الى بلجيكا حيث بدأ حياة الرهبنة فسمى الأب
أنستاس ماري الكرمللي . ثم ذهب الى فرنسا وهناك درس الفلسفة
واللاهوت والكتاب المقدس والتاريخ الكنسي ، وبعد مدة رحل الى
أسبانيا لمشاهدة آثار العرب وخزائن الكتب والمخطوطات المختلفة ،
ليعود بعد ذلك الى بغداد وتستند اليه ادارة المدرسة الكرملية التي كان
تلميذاً فيها وليدرس العربية والفرنسية هناك . وفي سنة ١٨٩٧ تفرغ
الأب الكرمللي للوعظ والخطابة والكتابة في المجلات والجرائد من
فرنسية وعربية ، ولم تبق مجلة او جريدة كبيرة إلا وطلبت اليه أن يكتب
فيها ، تذكر مجلة الحرية البغدادية ان الأب الكرمللي « حينما تفرغ
للعربية وأسرارها أضطر أن يدرس بعض اللغات الشرقية لكي تساعد
في معرفة أصول العربية فدرس الآرامية والعبرية والحشية والفارسية
والتركية ، فأخذ منها ومن أصولها ما يحتاج اليه للتعلم في دراسة
اللغة العربية » (١٤) .

(١٣) انظر مجلة لغة العرب عدد ١ سنة ١٩٢٩ ص ٦١ .

(١٤) مجلة الحرية عدد ٦ ، ٧ سنة ١٩٢٤ ص ٥٥ .

تلك هي الظروف التي تهيأت للكرملي ، حب للحرية منذ الصغر ، ودراسة متعمقة في كتب النحو واللغة والصرف ورحلات كثيرة لأهم متمدنة ، ساعدته على ايقاظ خياله وتنمية تفكيره ، ولغات شتى لأمم شتى عاوثته على دراسة العربية والتعمق بها . كل هذا يمث فيه حب العمل لفائدة الناس ، وبحث الرجل عن وسيلة يستطيع بها أن يعمم هذه الفائدة فلم يجد خيراً من الصحافة يمكن أن تفي بهذا الغرض ، وذلك لسرعة انتشارها وسهولة وصولها وعموم فائدتها .

لقد خلق الكرملي للصحافة وأفاد بالصحافة ونشر أفكاره وآراءه بالصحافة ، ولع بها وجذبه اليها ، وحينما لم تكن هناك صحافة في العراق كان يكتب بأفكاره الى الصحافة العربية أو الاجنبية ، ويذكر الاستاذ الحسني أنه كان للكرملي مجلة تدعى زهيرة بغداد وهي « مجلة أدبية شهرية كانت الى معالجة الابحاث الدينية والمذهبية أقرب منها الى معالجة الابحاث الأدبية والاجتماعية ، أصدرها الآباء الكرمليون في بغداد سنة ١٩٠٥ واستمرت تصدر أكثر من سنة وتوارت عن الانظار » (١٥) ولم نعر على شيء من هذه المجلة والظاهر أنها كانت دينية تبشيرية ، كما يذكر الحسني أن الأب الكرملي أصدر مجلة أخرى تدعى الايمان والعمل الى جانب زهيرة بغداد وذلك باللغة الفرنسية ثم احتجبت مع الأولى .

وقبل أن نقف على الجانب اللغوي في مجلة لغة العرب والصحافة

العراقية ، نرى من اللازم أن نلم بتاريخ هذه المجلة وأهميتها من الناحية الأدبية ، مسرعين •

أصدر الأب الكرمللي مجلة لغة العرب في تموز (يولييه) من سنة ١٩١١ أبان فترة الحكم التركي للعراق ، واستمرت تصدر حتى الحرب العالمية الاولى ، حيث نفى صاحبها ظلماً وعدواناً كما يقول ، حتى اذا اقنتت الحرب وكان الصلح عاد الى بغداد ، ولكنه لم يعد الى إصدارها بل أصدر جريدة دار السلام مدة تزيد على ثلاث سنوات وهي « مجلة شهرية تبحث في العلم والأدب والاجتماع والتاريخ وتعنى بشئون العراق الخاصة ، أصدرتها حكومة الاحتلال البريطاني في بغداد وعهدت بإدارتها إلى الأب الكرمللي والى ليف من الكتاب والباحثين لقاء أجور مغرية وبقيت حية ثلاث سنوات ثم توارت بصورة نهائية » (١٦) •

ثم اشتغل الكرمللي بعد ذلك في جريدة العرب التي اصدرها المحتلون حيث أرادوا « خلق جريدة تخدم أغراضهم وأرادوا أول الأمر تسميتها بالاولقت البغدادية غير أن الأب الكرمللي يذكر أنه استشار في هذه التسمية محمود شكراي الآلوسي فأقترح أن تدعى العرب فاستحسن السير برسي كوكس هذه التسمية » (١٧) •

وليس في هذه الجريدة أي اهتمام باللغة الصرفة ، وقد كان لعمله في هذه الجريدة آثار سيئة حيث اتخذها مخالفة وسيلة طعن وجهت

(١٦) لغة العرب عدد ١ سنة ١٩٢٦ •

(١٧) روفائيل بطي - تاريخ الصحافة في العراق ص ٤٤ •

الى وطنية الرجل ، فحيثما أقيم له احتفال كبير في بيت رئيس الوزراء السعدون (١٨) بمناسبة عيد ميلاده الخمسين أو ما يسمونه باليوبيل الفضي ، قامت الجرائد المعارضة له وللحكومة فصبت جام غضبها على الرجل كقول احداها « يكرمون الكرمللي وأي شيء في الكرمللي يستحق التكريم ؟ الكرمللي أداة خلقها التنطع ، وسهم فوقه التبشير ، وسيف صديء جرده الاستشراق على رؤوس العرب الشرقيين ... ولا أباالغ اذا قلت أن مهمته كانت ولم تزل سياسية أكثر منها علمية .. حقا ان اللحظة كانت موقرة ولكن من هو المحتفى به . وقف سكرتير لجنة اليوبيل يعدد مزايا الكرمللي ويقارن بين الزهاوي والكرمللي من جهة ، وبين الشريف الرضي وامي اسحاق الصابي من جهة أخرى ، فما رأيت محاولة أسخف من هذه المحاولة ، وتخرصا أقبح من هذا التخرص ، وهذا دليل على نقص في التربية والتواء في الخلق وجهل بضرب المقاييس ... » (١٩) .

ولسنا بصدد التعليق على هذه الناحية ، لأن الرجل حينما خدم في جريدة العرب ، كانت سمعة الانكليز وقتها حسنة باعتبارهم جاءوا محررين لا فاتحين ، ويكفي أن نذكر للرجل هذه الخدمة الصادقة للعربية وآدابها ، ردا على هؤلاء المعارضين له والذين حاولوا الحط

(١٨) سياسي معروف تولى الوزارة العراقية في العقد الثالث من

هذا القرن ، وا قدم على الانتحار في نهايته .

(١٩) جريدة الاستقلال عدد ١٣٢٨ سنة ١٩٢٨ .

من قدره الى أبعد حد ، قال كاتب في مجلة الوميض البغدادية يتعرض للكرملي ايضا « ... » وجدير بمن له أقل غيرة وحب بآثار العرب ، أن يحاسب هذا المشعوز عن أعماله ، وان يضعه في ميزان النقد الادبي التزيم ليظهره للجُمهور ولناشئة الأدب ورجاله في صورته الصادقة ليكونوا على علم بما هناك » (٢٠) هجوم غريب قد لا يكون في محله لأن للرجل مكافئته العلمية في خدمته العربية وآدابها لا يمكن أن ينكرها منصف . اما مجلة لغة العرب فهي أول مجلة عراقية تجاوزت حدود البلاد ، لتجد لها آفاقا رحبة في البلاد العربية وفي غير البلاد العربية ، كما كانت مجموعة من الحركة التي لا تعرف التهاون والكسل بدليل هذا الفيض الغزير من الرسائل والتعليقات والمقالات التي تتوالى عليها من مختلف ارجاء العالم ، لتجد فيها جوابا لكل شيء يمكن أن يسأل عنه .

وكانت مقالاتها وبحوثها ماثار مناقشات وجدل لا بين العرب فحسب بل وغير العرب من المستشرقين والعلماء . جاء في عددها الاول « انها مجلة شهرية أدبية علمية تاريخية بيد الآباء الكرملين ، صاحب امتيازها الألب انستاس ماري الكرملي ومديرها المسؤول كاظم الجيلي » والدجيلي هذا أديب مشهور في عصره ، من ذوي الملكات المزجوجة فهو شاعر وكاتب .

ولكي نعرف هذه المجلة بدقة يجدر بنا أن ننقل شيئا من خطتها ، لانها كانت مثال المجلة التي وضعت لنفسها خطة لم تحد عنها » بعد

حمده تعالى والشكر على آلائه والاتكال على مدده ، فقد عقدنا التية على اصدار هذه المجلة الشهرية خدمة للوطن والعلم والأدب ، والغاية من إنشائها ان نعرف العراق وأهله ومشاهيره ، بمن جاورنا من سكان النديار الشرقية ، وبمن فأى عنا من العلماء والباحثين والمستشرقين في الاقطار الغربية ، وننقل الى وطنيين العراقيين ما يكتبه عنا الافرنج وغيرهم من الكتاب المشهورين ... والذي دفعنا الى هذا العمل هو أننا رأينا أغلب الجرائد والمجلات والصحف السيارة تبحث عن بلاد اصحابها ورجالها ولا تذكر الا النزر اليسير عن هذه الأرجاء ، فرأينا من المناسب أن ننشئ هذه المجلة لتفي بما في الأمنية ليدخل العراق مصاف الربوع المعروفة بين الأمم المتقدمة المتحضرة . أما الابواب التي تطرقها المجلة فظاهرة من اسم المجلة ومن الغاية التي توخينا من وضعها . وزيادة على ذلك نعقد في كل جزء من أجزائها تاريخ الشهر في العراق وندون فيه ما محص من الاخبار والوقائع التي جرت في العراق وفواحيه من ديار جزيرة العرب ، ونكتب في كل عدد من أعدادها رواية تاريخية أو خيالية أو خيالية تاريخية معا يكون موضوعها أحد أبناء العرب أو جرت واقعتها في بلاد العرب . ثم اتنا لا ندع ديوانا من دواوين هذه المجلة الا وفورد شيئا من المصطلحات الحديثة والأوضاع العربية الطريفة مما يوسع لغتنا الشريفة ويحدو بنا الى مجاورة الاقوام المتقدمة في الحضارة المنيفة بما يستحدث فيها من الموضوعات العصرية والمذلولات العقلية والتصاوير الخيالية والافكار العلمية التي لا مقابل

لها ولا مرادف في لساننا في هذا العهد ... لا بد من وقوع هذه
المجلة في أيدي بعض الفضلاء ، فيستحسنها بعضهم ويستقبلونها البعض
الآخر ، على أن مجرد الاستحسان والاستقبال بدون الإشارة على ما
يحمل القاريء على أحد هذين الأمرين لا معنى له ، والمحقق من يؤيد
كلامه بالبرهان ... اننا لا نلتفت الى المدح والافراط فيه، وان ظهر في
كلامه وجه لصحته ، لعلمنا اليقين بقصورنا ، ومن الآن نرحب بكل
ما ينبها الى أغلاطنا بشرط أن يكون خالياً من الهوى ... » (٢١) .
فمن هذه المقدمة نستطيع أن نعرف خطة المجلة والميادين التي
كانت تجول فيها ، فهي لغوية أولاً بدليل كثرة المقالات التي تتناول
اللغة ، وبدليل كثرة الأسئلة اللغوية ، والاصطلاحات التي تنشرها في
ثنايا أعدادها على غير انتظام . وفيها أدب ، وقد أولت الشعر عنايتها ،
وقلما يخلو عدد منها من عدة قصائد ، بالإضافة الى الروايات الأدبية
المترجمة التي اهتمت بها في أعدادها الأولى . أما النقد الادبي فكان
مجاله واسعاً فيها ، وهو نقد يلائم خطتها ويغلب عليه الجانب اللغوي ،
بالإضافة الى أبواب ثابتة في التاريخ والثقافة العامة . وقد كابدت هذه
المجلة الكثير من المنغصات في حياتها وبخاصة في السنوات الأولى ، وهذا
شيء طبيعي ، فالعراق ما زال في بداية نهضته ، والناس لم يعرفوا قيمتها
بعد ، فكان صاحبها يكثّر الشكوى من الخسائر التي تلاقىها مجلته .
وهي شكوى استمرت فترة طويلة من حياتها ، والظاهر أن السبب يعود

الى أن هذه المجلة كانت جادة الى أبعد حد ، وهو ما أفقدها الكثير من عامة القراء ، وبقيت محدودة في مجال معين هو مجال العلماء والأدباء ، وهؤلاء قلة إذا قيسوا بجماهير القراء •

وتتغير حالة المجلة وتشق طريقها ، فتعرف بين العلماء والأدباء في غير العراق على الأكثر فلم نعد نسمع تلك الشكوى ، فقد وجدت لها سوقاً رائجة في مصر كما جاء ذلك في نهاية سنتها السابعة « بلغنا والحمد لله السنة السابعة من مجلتنا بفعل مشتركيها الكرام ... وهنا فوجه الشكر الى الأيادي البيضاء التي مدت الينا من الديار المصرية فيسرت علينا إتمام ما بدأنا به من مشروعنا خدمة للغة المصرية والتكلمين بها » (٢٢) • وهي بهذا الاعتبار كانت ملتقى الناطقين بالضاد في مختلف الديار العربية ، فالمقالات والأسئلة التي ترد إليها لا تخص قطراً دون آخر ، فقد فتحت صدرها لكل ما يرفع الثقافة العربية ، كما كانت حركة ديناميكية لا تني في تشجيع أهالي البلاد على الكتابة إليها ، وبهذا تكون قد ساعدت على انماء الروابط القومية وساعدت على إيجاد شعور مشترك ، وهذا وحده يكفي للرد على تلك التهم الباطلة التي تتعرض لوطنية الرجل ، كل ما هنالك أنه ابتعد عن السياسة واهتم بالعلم لأجل العلم ، ويكفي لأثبت اخلاص الرجل وحرصه على سمعة هذه البلاد وتراثها ما كان يقوم به من رد على تلك الدعوات الغريبة التي كان يطلقها بعض المستشرقين تحاملاً على العرب وثقافتهم ، فكانت تترجم

هذه الآراء وتعلق عليها وتحت الآخرين بأن يردوا عليها ، جاء تحت عنوان (اقتراح على علماء الشرق وأدبائه) وفيه « قرأت في مجلة العالم الاسلامي ص ١٨٣ في مجلدتها الخامس عشر وفي عديدها السابع والثامن من تموز وآب من هذه السنة هذه العبارة الغريبة وهذا تعريبها : ان الفلسفة والعلوم المشهورة بأسم العلوم العربية ، ليست في الحقيقة إلا عبارة عن شرح مؤلفات اليونان ، بخلاف الفقه فإنه من النتائج الخاص بالاسلام ، ومن نتاجه النادر وهذا أيضاً لا يعتبر كذلك إلا طامنا لا تظهر لحمه النسب بينه وبين فقه الروم . فنحن نطالب علماء الشرق والراسخي القدم في التاريخ الاسلامي أن يردوا على هذا المستشرق في الجرائد والمجلات بشرط أن يكون الرد خالياً من الطعن ومعززاً بالدلة والبراهين ، ونحن نرحب بكل مقالة تكتب اليها بهذا المعنى وتفتح لها باباً واسعاً في مجلتنا » (٢٣) .

وتبدو أهمية المجلة من الناحية الثقافية فيما كانت كثيره من حركة فكرية ، لا داخل العراق فحسب ، بل بين كثير من الأدباء والعلماء والمستشرقين خارج القطر ، بعد أن عرف هؤلاء فضلها ، يقول الكرمللي « وقد رأينا من حسن التفات العلماء اليها على اختلاف مذاهبهم وديارهم ما يدفعنا الى اتمام ما بدأنا به ... وهنا نشكر جميع الذين شجعونا بكتابتهم الخصوصية والعمومية كما أننا لا ننسى المستشرقين الذين جادوا علينا بهداياهم وآليفهم وبادلونا بمجلاتهم مع صغر مجلتنا

هذه وحداثة شأنها ، وما ذلك إلا لحسن أعراقهم وعظيم فضلهم اذ لا يعرف الفضل إلا ذووه » (٢٤) .

وقد ترجم الكثير من مقالاتها الى اللغات الاجنبية بالاضافة الى ما كانت تنقله بعض الصحف العربية عنها « وما يدل على أن مجلتنا راقت كثيراً من الادباء من متعربين ومستعربين أن طائفة من مقالات السنة الماضية نقلت الى الانكليزية والفرنسية والايطالية والالمانية ، ومنها ما تناولته صحفنا ومجلاتنا الشرقية من شامية ومصرية وعراقية » (٢٥) .

لقد كانت الصحافة المجال الذي اتخذه الادباء وسيلة لنشر أدبهم واذاعته ، لأنها تمتاز بسرعة انتشارها وشيوعها بين عدد كبير من الناس ، يتأثرون بما فيها من الفاظ وتعايير ومصطلحات حديثة ، لا تلبث أن تجري بها الاقلام وتدور على الألسنة ، وهي من هذه الجهة عامل من عوامل شيوع الفصحى الخالية من الدخيل والفساد ، وتاريخ العربية الحديث يعتد بجريدة الجوائب ومجلة الجنان للبستاني ومجلة الضياء لليازجي والمقتطف للصروف ولغة العرب لفكرملي وغيرهم .

والحركة اللغوية التي قامت في العراق جاءت متأخرة بالنسبة لبعض البلاد العربية الاخرى ، ولكنها مع هذا لم تكن صدى لتلك الحركة اللغوية التي رأيناها في الصحف التي كانت تصدر في النصف الثاني من

(٢٤) مجلة لغة العرب عدد ١ سنة ١٩١٢ ص ١٠١ .

(٢٥) ن . ف عدد ٣ سنة ١٩١٣ .

القرن الماضي ، بل كانت حركة مكملتها ، لأن البحوث اللغوية لا تعرف الجمود ، وعلماء اللغة الحقيقيون يتطورون مع تطور اللغة وملائمتها للعصر وحاجتها الى مزيد من الاصطلاحات الحديثة .

وقد تحملت مجلة لغة العرب في العراق أعباء هذه الحركة لوحدها على الأكثر ، وذلك واقع تكشفته الصحافة العراقية نفسها ، وكل ما جاء في غيرها - على ندرته - ليس غير صدى لمجلة لغة العرب وبحوثها او تقليداً للبعض أبواب هذه المجلة .

ومن يتمعن في دراسة هذه المجلة يلاحظ أنها تتوسل الى خدمة اللغة بطرق مختلفة ، وأهمها المقالات التي يكتبها الكرمللي وغيره من اللغويين ، ثم المجادلات والمطارات التي تنشأ بينهم بفعل اختلاف وجهات النظر وطرق الاجتهاد . ثم هذا الفيض الغزير من الأسئلة التي ترد الى هذه الصحف من قرائها ، وأخيراً اصلاح الاخطاء المختلفة التي يعثر عليها هؤلاء اللغويون أثناء قراءاتهم لمختلف الصحف والمجلات . أما المقالات فكانت النعمة الغالبة عليها ، هي محاولة ادخال المفاهيم اللغوية الحديثة ، وتهيئة اذهان الناس لتقبل هذا التجديد ، وبخاصة بالنسبة لأولئك الذين ما زالوا يعتقدون أن العربية غنية لاتحتاج الى كل هذه الالتاظ الحديثة والمصطلحات الجديدة ، وأن ما فيها من امكانيات خاصة تجعلها صالحة لكل زمان ومكان .

كما كانت ترد على اولئك المتطرفين الذين يرمون العربية بالجمود ويجعلونها قاصرة عن استيعاب هذه المصطلحات الحديثة فدعوا الى

استعمال العامة او استبدال الحروف العربية بالحروف الأجنبية وهنا يقف الكرمليني وغيره من لغويي مجلة لغة العرب امام هذا المد الغريب ، غير مبالين بما كانوا يتعرضون له من نعوت وأوصاف « والاب الكرمليني معروف بعصبيته الحادة للغة العربية الفصحى والتصلب في الرجوع الى ما نطق به السلف الصالح وهو يكره التوسع والتخت والاشتقاق ولا يتساهل في استعمال الكلمات غير القحطانية ، الى حد التمسك بمذهب التقديم بل الى حد الجمود » (٢٦) .

ويبدو للمتبعين لأراء الكرمليني في اللغة ، خطل هذا الرأي ، بل ان بعضهم يتطرف أبعد من هذا ويجعل الكرمليني مولعاً بالغريب ، ويهتم باستعمال ألفاظ مهجورة « فهو فهرست لأسماء الكتب اللغوية ، وهيكل منقوش على صدره كل غريب غير مألوف وكل ما لا يستعمل من الالفاظ المعقدة المهجورة وكل حوشي من الكلام الجاف والمفردات المستنفرة » (٢٧) .

رأي لا ينطبق على واقع الرجل ، ومقالاته الكثيرة خير شاهد على ما نقول ، اذ من النادر أن نعرث فيها على لفظة غريبة أو مهجورة ، بل اننا لنحس وكأننا لسنا أمام عالم لغوي كبير يعرف أسرار اللغة وخفاياها ، وهو لا يعرف التكلف والتعقيد في كل ما يكتب ، والمشهور عنه « أنه لا يعرف النسويد والتبيض بل يكتب مقالاته مرة واحدة ويدفع بها

(٢٦) جريدة العراق عدد ٢٥٧٧ سنة ١٩٢٨ .

(٢٧) جريدة الاستقلال عدد ١٣٢٨ سنة ١٩٢٨ .

الى المطبعة » (٢٨) .

والمقدمة التي ذكرناها قبل قليل خير شاهد على ما نقول ، ولكي نعرف رأيه في اللغة وأسلوبه ننقل ما قانه في مجلة لغة العرب « كثر التساؤل والترداد في هذه الايام عن اللغة العربية وتجدها وموافقتها لأهواء هذا الزمان ومقتضياته . الحقيقة أن العربية في حاجة الى التجدد، ولكن ليس الى مثل ذلك المقدار الذي يفهمه المغالون والمتطرفون بل الى مقدار معلوم وبحدود الآن . أما في المستقبل فنحتاج الى الضروري من التعديل شأن اللغات الأخرى الحية . وهي ليست كما يتشدد عنها الرجعيون المتعنتون الذين ينتونها بكل ما وسعته المفاجم من الألقاب الفخمة ، ويزعمون أنها بغناها وكثرة مترادفات ومتوارداتها ومفرداتها قاهرة على أن تقوم بلوازم العصر ... وانها وان كانت حائزة على درجة من الرقي والجمال لكنها في عوز من الاوضاع العصرية ، فعلينا أن لا نفتر كثيرا ولا تنوهم ما هو مناف للواقع بعيد عن الحقيقة بعد الشرا عن الثرى وتأخذ بقول أحدهم :

ان الذي خلق البرية كلها جعل الجمال وسره في الضاد

أهذا تخيل ؟ أسفاسف ؟ العربية ليست بأكثر جمالا وأعز مكانا وأوفر غنى من اليونانية واللاتينية والفرنسية متلا وكل لغة ميزتها الطبيعية . ولكننا نعلم أن العربية جمدت في مكانها أربعة قرون فلم تتحول عما كانت عليه ... اتنا ورثة هذه اللغة ومن آل اليه أمر بالورثة

تصرف فيه كما يشاء وأنى أراد فلم لا تتصرف فيها حسبما نريد ؟ أو ليست اللغة ملكاً مشاعاً لنا ؟ أكان العرب الذين أورثونا إياها ارقى منا وأكثر تمدناً ؟ اذن ما الذي يمنعنا من فعل ما فعلوا ... فلا حياة للغة ما لم يحاول أبنائها التجديد فيها ، العربية يعوزها الكثير من الاصطلاحات الفنية والعلمية والادبية لتعاصر غيرها فهي سهلة القيادة لينة التكيف » (٢٩) هذا وحده كاف لارد على من يرميه بالجمود ، فهو يقسم اللغويين الى جامدين لا يأنهون بالتطورات العصرية ، ومغالين متطرفين لا يشعرون بالمسؤولية وكلاهما لا يساعدان على انماء اللغة وتطورها ، وعنده أن اللغة يجب أن تسير على خطى متتدة مدروسة بعيدة عن التهور والارتجال وإلا كانت هناك عواقب وخيمة لا يمكن التحكم فيها ، فاللغة المتطورة هي التي تفي بحاجات العصر وتتسع لكل جديد ، ومن هنا راح يحمل على من يصفها بالكمال .

أما أسلوبه فليس فيه ما يدل على شغف بالغريب وبحث عن الالفاظ المهجورة ، بل هو أسلوب عالم لا يتأق في العبارة ولا يهتم بتوشية الالفاظ المهجورة ، همه أن يعبر عن أفكاره بسهولة ويسر .

وكانت مجلة لغة العرب أول مجلة دعت الى انشاء المجامع اللغوية في العراق وبينت أهميتها في حفظ اللغة من العبث والاهواء يتولى أمورها علماء يعرفون جيداً المسؤولية المنقاة على عاتقهم . قالت : « أجل انك تجد مجعماً لغوياً في كل أمة من أمم الغرب .. والغاية منه

الدأب في تحسين لغة أصحابه ، وإذا نرى أن أعضاء هذه الاكاديمية من كل أمة يسهرون على حفظ سلامة اللغة من كل خلل أو فساد ، ويقتبسون من عوامهم بعض الألفاظ المأفوسة التي لا مقابل أو مرادف لها في لغتهم التvisحة والتي لا مندوحة لهم عنها للتعبير عن افكارهم ، لتجعل لغة قومها حية ، ابنة اليوم والعصر ، تغتذي بأطعمة جديدة لتعوض فيها عما فني وبقي منها لقيامها بوظائف الحياة ، وتقذف من احشائها ما لم يعد صالحا لبقائه في المذاخر . . . على أن الاكاديمية اذا كانت واحدة قد تهفو ان لم يعارضها معارض ، اما اذا ناظرها منتدى آخر لغوي كفؤ لها وناقشها في المسائل وجاذبها أطراف ما يقع في الخلاف خلصت اللغة من كل شائبة مشوب » (٣٠) .

والحقيقة أن وراء هذه الاختلافات مزيداً من الحرص على اللغة ومزيداً من البحث على الدراسة المتزنة أوجدتها ظروف الحياة الجديدة ، في وقت هجمت فيه المصطلحات الحديثة هنجوماً غريباً ، الأمر الذي جعل حماة اللغة أمام مسؤولية كبيرة ، فاما أن يبقوا صامتين بحجة قدسية اللغة ، واما أن يجاهروا بأراء غريبة لا تخدم اللغة ولا الأمة التي تتكلمها ، واما أن يستخدموا عقولهم ليجعلوا اللغة حية نامية تتطور مع عصرها . والمعروف عن العرب أنهم حينما يحسون بتغلب عنصر غريب يلتفتون الى لغتهم لتحميمهم من خطر الذوبان في هذه العناصر ، ولهذا تراهم يحرصون عليها الى حد تراهم يجمدون عندها ويعمدون

العربية أغنى لغات العالم وأنها لا تحتاج الى هذه الألفاظ الدخيلة ، معتمدين في ذلك على قواميس اللغة ، مع أن كثيراً منها قد بطل استعماله ولم تعد تواكب العصر الحديث ، فألفاظ الصحراء والابل وصفاتها والرمح والخيول والسيوف وغير هذا الكثير ، لم تعد تتداول بين الناس كما كانت سابقاً ، فحلت محلها اصطلاحات حديثة هي ابنة وقتها .

واللغة الحية هي التي تتطور مع عصرها لتقبل وتستوعب هذه الاصطلاحات وإلا تحولت الى أثر جامد لا حس فيه ولا حركة ومن هنا كانت هذه الألفاظ الجديدة الشغل الشاغل للمفكرين والمترجمين والمؤلفين بالإضافة الى علماء اللغة . لقد صار كل من يضرب بسهم في العلوم الحديثة يشعر بفقر اللغة العربية من هذه الاصطلاحات التي تحتاج اليها هذه العلوم ، لأنها وليدة الحاجة ، وحاجاته الانسان لا تنقطع ، والاكتشافات والاختراعات لا أول لها ولا آخر ، تحتاج الى عمل لغوي مستمر وحركة لا تعرف الجمود في سبيل ملائمة هذه الاوضاع الجديدة .

ومهما يكن من شيء فان هذه الآراء حفزت الى العمل ، فكان نتيجة هذا كله ، هذه الحركة اللغوية التي مهدت الطريق أمام جيلنا الحاضر ليجد لغة تعبر عن الحياة وحاجاتها ولهذا فنحن مديون لهم بذلك الجهد الذي بذلوه .

وكانت ترافق هذه المقالات مجادلات كثيرة تقوم في أكثرها على اختلاف في وجهات النظر او الاجتهاد ، ومن هنا تأتي فائدتها مزدوجة ، فهي في الوقت الذي يصل فيه الناس الى نتيجة من هذه

المجادلات فانها تسهل اللغة وتمنح الناس قدرة وقابلية على التعبير .
وقد حفلت الصحافة العراقية بكثير من هذه المجادلات ، كالذي
حدث بين الكرمللي وجبر ضومط ومن ذلك هذا الرد للكرمللي : (٣٠)
« كنا قد كتبنا مقالة في المقتطف في عدد شباط من هذه السنة موضوعها
(اداة التعريف في التاريخ) فلم يستحسنها حضرة الاستاذ جبر ضومط
فكتب رأيه في عدد يوليو تموز مبينا خطأنا في نظره ، ولما وقفنا
عليها وجدناها من نسج ما حاكه في هذه السنين الثلاث من المذاهب
اللغوية وبثه في مجلات سوريا ومصر . أي أنه حبر مقالاته ليقال عنه
تكلم جبر ضومط ، اما ان هناك آراء مقنونة وأدلة منطقية معقولة
فلا أثر له ، وما كنا ان نجيب عليها لجمودها بل قل لعمودتها ، اذ
انها واهية الاركان من جهاتها الاربع ، نولا ان أحد الاعزاء ألح على
أن نقول كلامنا الاخير في صدر ما يكتبه حضرة خصمنا فنقول : ان
صديقنا لا يكتب ما يكتب توخيا للحقيقة بل يحبر مقالاته ليقال عنه
تكلم ولا يهمه أن يكون الكلام صحيحا أو خطأ ، اذ غايته الكلام لاغير
وأول شيء نأخذه عليه أنه لم يمتد حتى الآن للكتابة اسمنا . والثاني
أنه لا يرى في كلامنا بلاغة ولم يفهم ما يريد بهذه الكلمة ، والعقل
لا ينطق بكلمة الا يؤيدها بالدليل ، وكلامه هذا بلا دليل . الثالث :
من غريب ما كتبه في رده أنه لم يفهم معنى الخصم فقد ظن أن معناه
العدو ولهذا قال : (ولكننا ننكر عليه أن يحسب من يناقش آراءه

(٣٠) من اراد المزيد عن الكرمللي ورائه اللغوية فعليه بكتاب الاستاذ
الدكتور ابراهيم السامرائي وهو (الاب انستاس ماري الكرمللي وآراؤه
اللغوية) .

خصماً لهم) . نعم أن بعض من يردون علينا أقوالنا يردونها لأنهم أخصامنا، ولكن بعضهم قد يكونون من أحب أجبابنا وأخلص أصدقائنا ، وهذا واضح على ان حضرته لم يفهم حتى الآن ما يراد بالخصم ، فالخصم ياسيدي قد يكون عدوا وقد يكون أحب اجبابنا ، فما عليك إلا أن ترجع الى كتاب لغوي لتتحقق أن الخصم هو المجادل لا غير . والرابع : يعارضنا أن (ها التعريف) مقتطعة من فعل الوجود العبري وهو (هوه يهوه) بحجة ان الاقدمين لم يقولوا بقولنا كما لم يذهب اليه أحد من المستشرقين فياله من كلام يزري بالجمان ... فياحضرة الاستاذ ان المسألة مسألة اجتهاد ولا ينظر فيها أكان الاقدمون قالوا بها أو لم يوافقوا عليها ، وعقلاء عهدنا هذا يأخذون ما يقبله العقل من الحجج والبراهين لا ما نحتقره أولاً نقنع به ، فقد مضى زمان هذا الرأي الفطير مع أصحابه والتازعين اليه فكيف تقول به الان .. « (٢١) . وهنا رد صريح على الذين يرمون الكرمللي بالجمود أو أولئك الذين يتهمون بالبحث عن كل لقطة قديمة أو مطبوعة ليضعها في كتاباته ، حتى اننا لنذهب مع الرأي القائل بأن الكرمللي لا يعرف التسويد والتبيض في كتاباته . ومثل هذه الخصومة ما حدث بين الشيخ عبد الله البستاني وبين الكرمللي نفسه ، فكتفي بالقليل لندل منها على ما لهذه المجادلات من أثر في مجال في اللغة قال الكرمللي

« اطلعت في العدد الثاني من جريدة الناشئة الجديدة على بعض الرد المنقول عن صحيفة الوطن انشاء حضرة المغوي الكبير صديقي المحبوب واستاذي البارع الشيخ عبد الله البستاني . . . وقد صدر مقاله بكلام أطول من يوم الجوع ، جدير بأن يكون مقدمة لكتاب ضخيم وليس المراد من تلك السطور أن أبين ما في تلك العبارات من النزعات المنكرة ولا ما فيها من المناحي المستهجنة كما أنني لا أتعرض لما ورد فيها من الألفاظ المتناهرة والحروف المتشابكة مما يمجع اسماع فصحاء العرب وان قدموا ، ولا أن أعدد الاغلاط التي تدفقت فيها تدفق الغناء في السيل العرم ، ان غاييتي أن أوجه الأنظار الى ما خطأني فيه ليثبت للناس ساقط كلامه ونبوه عن منهج الصواب . قال حضرة سيدي الوقور (ولا يقال وقعت على ما دار من البحث اللغوي بين فلان وفلان (وهو كلامي) بل يقال : وقعت على مباحثة دارت لما في ذلك من المعارضة او التعارض ، وهذا كلامه . قات بلى ياسيدي وانت مصيب اذا أردت ان تتكلم بلسان الهنود المتعربين ، وأما بلسان العرب الفصحاء فلا ، وان كان يؤخذ بالقياس ، وكل ما يؤخذ بالقياس يقال ، بل ان العرب يعدلون عنه الى السماع ، قالوا وقعت حرب بين قوم وقوم ، ولم يقولوا محاربة محاربة ، وان كان القياس يجيزه . . . » (٣٢) .

ولعل أهم حقل حفلت به الصحافة العراقية في مجال اللغة هو

حقن الاسئلة والجواب عليها ، ذلك ان القائدة في هذه الحالة لا تقتصر على السائل وحده بل تتعداه الى جمهور القراء ، وحينئذ يمكن تقويم الاعوجاج واصلاح الاخطاء ، وبخاصة حينما تتنوع هذه الاسئلة ولا تقتصر على ميدان معين ، قال « سألنا أحد أدباء بيروت قال : رأيت أحد كبار اللغويين ينكر صحة وفصاحة المنتزة ، فهل هذا اللغوي محق ؟ ج : ان انكار هذا اللغوي لهذه اللفظة مبني على خلو المعاجم منها ومن فعلها انتزه ، والدواوين العربية لا تحوي جميع المفردات ، فان كثيرا منها وارد في كتب الاقدمين واثطارهم ، فعدم وجودها في المعاجم اللغوية لا يعني ردها ، حيث وردت في شعر المولدين ، قال أسامة ابن مرثد :

فكلها لمجال الطرف منتزه وكلهم لصروف الدهر أقران
كما ورد في تاج العروس تحت مادة سفد : وهو أحد منتزهات الدنيا « (٣٣) والقاريء العادي يستطيع أن يفهم من هذا الرد ، ان قواميس اللغة لا تحوي كل المفردات وأن المولدين يمكن الاعتماد عليهم في استعمال الكلمة وشيوعها . ومن الاسئلة الاخرى نذكر السؤال التالي « سألنا أحد أدباء الشام قال : هل صحيح ان كلمة أهمية غير فصيحة بمعنى الخطورة والبال ؟ ج : ان سبب انكاره اياها هو عدم وجودها في كتب اللغة وهذا ليس بدليل لأن القياس لا ياباه ، فكما

قالوا الافضلية والاولوية ونحوهما جاز قول الاهمية » (٣٤) .

وهذا دليل آخر على ما للقياس من أهمية في مجال اللغة .
وتتنوع الأسئلة وتعدد وتختلف جهاتها ، حتى صرنا نرى كثيراً
من الاسئلة التي يوجهها أصحابها من غير البلاد العربية فمن باريس جاء
ما يلي (باريس ج . ص . في لغتنا الفرنسية كلمة حديثة الوضع هي
تلفزيون ومعناها النظر الى الشيء من بعد بواسطة آلة اخترعوها ، فهل
في لغتكم كلمة تفيد هذا المعنى ؟ ج : نعم ولغتنا لا تحتاج الى ماتحتاجون
اليه من لغتين . اذ في شبابها وقوتها غنى عن غيرها . وهذه الكلمة
هي المباشرة . قال الجوهري : باصرته اذا أشرفت تنظر اليه من بعيد .
فهل في لغة الاقدمين او المحدثين من لغة فيها من قوة الولادة ما في
لساننا العذواني العجيب » (٣٥) .

وقد يطول بنا الوقت اذا نحن أكثرنا من إيراد هذه الاسئلة لبيان
مدى ما فيها من فائدة عملية لجمهور القراء في صحيفة يقرؤها كثير
من الناس .

وتاتفقت الصحافة العراقية التفاتة أخرى وهي عنايتها بالعامية ،
ومحاولة ايجاد صلة تقارب بينها وبين الفصحى ، ويظهر لنا من خلال هذه
الدراسات أن هناك اختلافات واضحة في هذه النقطة ، فبينما يرى
بعضهم أن العامية قديمة قدم الفصحى ، يرى الآخرون أنها لغة حديثة

(٣٤) لغة العرب عدد ٧ سنة ٩١٤ ص ٣٧٧ .

(٣٥) ن . ف عدد ٢ سنة ١٩٣١ ص ١٤٥ .

تكونت بفعل اختلاط العرب بأمم أخرى ، فتأثر العوام بهذه اللغة الغريبة ، فسارت على لسانهم وصارت تنتقل من جيل الى جيل •
والذي لا ريب فيه هو أن العامة تميل دائماً الى الخفة والايجاز والى السرعة في التطق ، وربما أصاب الفصحى بعض التحريف أو القلب أو الابدال ، فتكونت لغة جديدة فيها أساس واضح من الفصحى •
ولدينا في العامية العراقية ما يثبت ذلك « كانت الالفاظ العامية جلها أن لم أقل كلها فصيحة صحيحة في عصر من العصور ثم طرأ عليها ما طرأ من موجودات الكون من زيادة ونقصان وابدال وتغيير وتقديم وتأخير وتصحيف وتحريف وقلب وحذف، ونقل ونحت وغير ذلك ، حتى أصبح الخوض في هذا البحث من أصعب المباحث اللغوية • والنحت جعل كلمتين كلمة واحدة كتقول العامة (أشبيك) في أي شيء بك ، (ومنو) في ، من هو و (شنو) أي شيء هو ؟ (وشعبالك) أي شيء عرا بالك ؟ (واشجبالك) أي شيء جاء لك • أما القلب فهو تقديم بعض حروف الكلمة على بعضها أو تأخيرها عن أخواتها مثل خشاف في خفافش و اجا من جاء ، وجضع في ضجع ، والابدال أن يقوم حرف مقام حرف مثل عنجاص في انجاص وجاسم في قاسم » (٣٦) •

ولم يدرس الأقدمون هذه اللغة أو يولوها عنايتهم ، وإن كانوا قد أشاروا اليها من طرف خفي وفي تضاعيف كتابتهم عن لغات العرب ، وربما كان في هذا بعد نظر لأنهم لو فعلوا ذلك لما استطاعوا أن يحافظوا

على الفصحى وجعلها لغة واحدة لجميع المتكلمين بها ، يقول الدكتور مصطفى جواد « الشعر العراقي العامي قديم كقدم اللغة الفصحى ... » وقد جاء في أخبار الوليد بن يزيد الاموي أن حماداً الراوية قال جاداً أو هازلاً : أفا رجل أكلم العامة بكلامها . وذكر ابن خرداذبة أن نسبة ابراهيم الموصلى الى الموصل هو أنه كان اذا سكر كثيراً غنى على سبيل الدلع :

أفاجت من طرف موصل أحمل قلل خمرى (٣٧)

من شارك الملوك فلا بد من سكرى (٣٨)

وفي يتيمة الدهر للثعالبي كثير من الالتقاط العامية التي وردت على ألسنة شعراء القرن الرابع ، فقال على سبيل الظرف والفكاهة ، وبخاصة على لسان الشعراء المكدين امثال الاحنف أنعكبري وشعراء بني ساسان وغيرهم .

ولم تكتف الصحافة بهذه الدراسة بل راحت تقارن بين لغة العامة واللغة الفصحى من حيث الأسماء والمصادر والافعال وغيرها ، وكان يقوم بهذا العمل كبار اللغويين والادباء في عصرهم ، نذكر على سبيل المثال ما كان يقوم به الشاعر المشهور معروف الرصافي من دراسة مهمة

(٣٧) جت اي جئت . من طرف موصل : اي من جهة الموصل ،

وفي هذين البيتين تختلط العامية بالفصحى على سبيل الدلع كما هو مذكور .

(٣٨) مجلة التراث الشعبي عدد ١ سنة ١٩٦٣ عن الأغاني ج٥ ص ١٥٧

في هذا المجال وفي لغة العرب بالذات ، قال تحت عنوان (الفعل المضارع في لغة العوام) جاء فيه « والفعل المضارع مع فاعله قد يقع من كلامهم موقع المصدر ، فاعلاً أو مفعولاً بدون حرف مصدري ، لأن الحروف المصدرية معدومة في كلامهم ، فمن وقوعه فاعلاً قولهم : ما يجوز لك تعمل هذا العمل • اي ان تعمل هذا العمل • ومن وقوعه مفعولاً : أريد أروح الى فلان أي اريد أن أروح الى فلان » (٣٩) ولتنظر الى الدكتور مصطفى جواد وهو يحلل لغة العامة وكيف يحولون تاء اسم الفاعل الثلاثي ميماً اذا ابتدأ بالهمزة فيقول « العراقيون يقلبون تاء اسم الفاعل الثلاثي ميماً اذا كانت همزة ، وهذا من أسرار اللغة العامية العراقية ، فهم يعبرون عن الأكل مأكلاً وعن الإخذ مأخذاً ومن هذا قولهم (الربعمانية) أي الاربعين ويقولون في الذي أصله رباعي (أمبغل) من البغل وأمخشب وأميرطم من البراطم الضخم الشفتين ، ويصرفون الفعل بهذه الطريقة : جاي بمعنى جاء • هو جاي ، هي جاية ، اثنينهم جايين ، اثنينهن جايات ، هم جايين ، هن جايات ، انت جاي ، انت جاية » (٤٠)

ولغة العوام في العراق تختلف كثيراً عن لغة العوام في مصر وبعض الاقطار العربية الاخرى ، وهنا تبدو أهمية الفصحى في تكوين الشعور الموحد في العالم العربي •

ولم يقتصر جهد هذا الجيل من اللغويين على هذا فحسب ، بل

(٣٩) لغة العرب عدد ٦ سنة ١٩٢٧ ص ٣٤٧ .

(٤٠) لغة العرب عدد ٢ سنة ١٩٣٠ ص ١١٥ .

راحوا يخدمون اللغة في مجالات أخرى ، فكانوا بحق حراساً على كل من يتعد بها عن الطريق الصحيح ، كما قيموا الفنون الأدبية المختلفة ، بمقدار سلامتها من الاخطاء اللغوية ، دون الاهتمام بجمال الأسلوب والفكرة ، وهذا ما نلاحظه بصورة جلية في النقد الأدبي ، لقد حولوا هذا الفن ، من مجرد كونه تقييم النصوص الأدبية ، الى مجرد نقد لغوي ، لا يهتم بغير سلامة التراكيب والمفردات ، ومقدار محافظتها على القواعد النحوية والصرفية واللغوية ، لننظر إلى جريدة العراق وهي تنقد قصيدة شوقي في رثاء إسماعيل صبري ، حيث تقول : « قصيدة شاعر النيل الكبير احمد شوقي بك ، في رثاء فقيد الادب اسماعيل صبري ، لا تناسب منزلته في القريض ، وقد وجدت في تصني دافعاً لانتقادها ، قال حفظه الله :

أجل وان طال الزمان موافي أخلى يديك من الخليل الوافي
أجد المعنى مضطرباً لا يتماسك ، وان ربطه بسلسلة الوزن وأحكم وثاقه ، وكنت أظن أول وهلة أنه جعل (أجل) مبتدأ ، وموافي خبراً له ، فاصلاً بينهما بأن الوصاية مع جملتها ، ولكن عدم جواز الابتداء بالنكرة أرجعني الى الهدى ، ونرجح أن المبتدأ محذوف فكأنه يقول : هو أجل ، وحينئذ يكون (موافي) صفة للخبر وهو أجل . هذا جيد ، ولكن الفصل بين الموصوف والصفة بأن والجملة تشويشاً للمعنى كان على الشاعر الكبير ان يتجنب دواعيه .

خفت له العبرات وهي أيية في حادثات الدهر غير خفاف

كأنه يقول : خفت له العبرات وهي غير خفاف ، ولو قال : وكن غير خفاف لزال التناقض باختلاف الوقت ، وكلمة أيية من الحشو البارد الذي لا ينجرع حتى في حمارة الصيف ... » (٤١) .

وكافت كثير من الصحف تفرد حقولاً خاصة ، تحت عناوين مختلفة كأغلاط الكتاب ، أو قل ولا تقل ، أو لغة الجرائد ، تبه فيها الكتاب والقراء على حد سواء ، الى هذه الأخطاء وتصحيحها لتضع مكانها عبارات أو مفردات جارية على السنن العربي الصحيح ، ومن ذلك هذه التعبيرات :

كم سيكون فرحها : والصحيح كم فرحة ستفرح لأن كم تختص بالدخول على الاسماء .

رباه اني : الصحيح : ياربي لأنه لا يجوز جعل الرب مندوبا اي متوجعاً منه .

يطرق هذه الباب : الصحيح : يطرق هذا الباب ، لأن الباب مذكر .

أظافر حادة : أظفار حادة لأن هذا الجمع ليس بعربي .

حميد النوايا : حميد النيات لأن النوايا جمع فوية .

وريث العهد : وارث العهد ، اسم فاعل والجمع الورثة .

خدمة يسطرها التاريخ بمداد الفخر : الصحيح : خدمة تذكر فتشكر .

فيتتبعون حركات صحافينا : فيتحررون حركات صحافينا .

ليس فقط كان أدبياً بل كان سياسياً : الصحيح لم يكن أدبياً فقط بل

• كان سياسيا •

هذا ثوب قشيب بكى معنى الكلمة : هذا ثوب قشيب كل القشابة •
رجال صميمون ورجلان صيمان : الصحيح صميم لأنها لا تشنى ولا

تجمع •

محادثات مع أناطول فرانس : محادثات أناطول فرانس •

الكتاب تحت الطبع : الكتاب يطبع •

دور الاستبداد : عهد الاستبداد •

يجب على الأقل أن تفعله : لا أقل من أن تفعله (٤٢) •

ولسنا هنا بصدد الانتقاص من أهمية هذه النقذات ، فللمعويين
مطاق الحرية في تقويم الاعوجاج والشطط الذي يلحق باللغة ، ولكننا
بصدد هذا التزمت الذي تعدى حدوده ، وبخاصة حينما راحوا يفسرون
المفردات والتراكيب تفسيرات قاموسية دون مراعاة لتطور اللغة وملائمتها
لحاجات العصر •

لقد كان ظهور الصحافة ايذانا بميلاد ثورة جديدة في الفكر على
كثير من المقاييس التي سبقت ظهورها ، حتى ليتمكن اعتبارها حداً فاصلاً
بين أدبين ، أدب القلة وأدب الجماهير ، فالمعروف أن الأديب العربي في
الوقت الذي ظهرت فيه الصحافة كان مقدسوراً على قلة من الناس تغرم
بالاشكال والزخارف ، يعج أدبهم بغريب الكلام ووحشي اللفظ ،

(٤٢) هذه التعبيرات مأخوذة من مجلة لغة العرب وغيرها من

الصحف .

متخذين من الرسائل والمقامات مثلاً يحتذي في كثير مما يكتبون ، لقد وجدنا آثار هذه الأساليب في بعض الصحف، الرائدة أو تلك التي يتولى أمورها كتاب ما زالوا يعجبون بهذه الصيغ ، وربما كان لهم العذر في هذا كله ، لأنهم من أولئك الذين تلقوا علومهم ودراساتهم في حلقات الجوامع والمساجد ، ولم تنتهياً لهم بعد ظروف الانفتاح على الثقافات الحديثة فبقوا يعيشون لأنفسهم ولأترابهم ، يستوحون موضوعاتهم من تلك النماذج التي ألفوها في أدبنا القديم ويعيشون في غير عصرهم الذي هم فيه ، وهذا ما نلاحظه في بعض الصحف النجفية التي تعنى بالقديم أو تحاول بعثه من جديد لإرضاء لرغبة بعض قرائها ، وكان القراء الآخرون من الذين تلقوا دراساتهم في المدارس الحديثة ينظرون إليه نظرة فيها الكثير من التهكم والسخرية ، دون أن يكلفوا أنفسهم عناء البحث عن أسباب هذه الظاهرة ، ومن ذلك هذا النموذج للشيخ حميد نصار من أبناء القرن الثاني للهجرة يمدح فيه أمير خزاعة: «أيها الركب يغري شفق البيد ، على أمثلة السيد ، وأشباه القنا الميد ، من النجب المناجيد (٤٣) . لك الله وحياك ، وأرشدت بمسراك . اذا شمت من البرق، غماما مسبل الودق (٤٤) . وعانيت من البحر، خضما مزبد الزخر ويمت من الروض ربيعاً ، ومن الليث منيعاً ، فترى الوفد على الوفد، بالظاف

(٤٣) السيد : الذئب : والقنا الميد : الرماح المتحركة ، النجب :

الكرام الحسب والمناجيد : أي الشجعان .

(٤٤) الودق : المطر ، والمسبل : اذا هطل بغزارة .

من الرشد ، وآمال من القصد • قياماً وقعوداً صدوداً وردوداً • هناك أعقل يد البكر ، ويمم واحد الدهر ، وشاهد ملك الفخر ، وقف والشم الترب ، ولا يزعجك الرعب • ترى تبع قحطان ، وسابور بايران ، وسيفاً وسط غمدان ، وكفين بمجان • • » (٤٥) تلك هي الاساليب السائدة قبل ظهور الصحافة ، مجرد حركة لفظية ، تأخذ جهداً ووقتاً لا يستطيع الكاتب الحديث أن يجدهما ، بالاضافة الى خلوها من المضمون الذي صار الأديب الحديث يعنى به عناية تامة •

لم يعد هذا الأسلوب بقادر على أن يستوعب التطورات الحديثة والأفكار الجديدة ، فظهرت الحاجة ماسة الى أسلوب جديد يلائم كل الملائمة الحياة الجديدة ، وصار الأسلوب القديم مثار سخرية وتهكم لأنه لا يجاري العصر الحديث ، كتب أحد قراء مجلة المقتطف تحت عنوان (الكتابة العصرية) جاء فيه « قرأت في بعض الصحف السورية مقالة أجلت رائد فكري في سجعها جولة بحث ، فألفيته نهج نهجاً لم تسلكه الآن حملة الاقلام ولا كتبة العصر ، فإن مهيع السجع ومنهج النشر في صفحات الجرائد السيارة قد نسجت عليه عناكب الاهمال • • • أن سبيلها مسلوك في المقامات لا في مقالات المجالات وقضت حكمة الله في هذا الوجود أن يلبس كل عصر حلة تلائم طباع ذويه » (٤٦) •

فالصحافة لم تعد تخاطب صفوة من الناس ، بل صارت تخاطب

(٤٥) مجلة البيان عدد ٢٧ ، ٢٨ سنة ١٩٤٧ ص ٧١٧ •

(٤٦) مجلة المقتطف عدد ١٢ مجلد ٢٩ سنة ١٩٠٤ •

كل الناس باللغة التي يفهمونها مهما اختلفت مستوياتهم الثقافية •
ان التطورات الهائلة التي صاحبت النهضة في ميادين العلوم والفنون
والسياسة والاجتماع والاقتصاد مع ما رافقها من نهضة في اللغة
والاصطلاحات استوجبت أسلوباً جديداً يتسع لكل هذه التطورات ،
وقد تحملت الصحافة عبء هذا العمل لشيوعها وانتشارها وسرعة تأثير
الناس بها ، فطوعت اللغة وجعلتها مرنة تفي بالحاجة للتعبير عن كل هذه
المتطلبات ، وقد رافق هذا كله انتشار التعليم وشيوعه ، فكان ذلك كله
سبباً في ظهور أدب جديد ، نزل الى مستوى الجماهير وخطبهم باللغة
التي يفهمونها وبالواقع الذي يحيونه •

لقد تحملت الصحافة عبء الحركة اللغوية ، كما تحملت عبء
تحويل هذه الالتفات الى واقع حي ملموس فخلقت في الجماهير حب
الادب والمطالعة التي حرموا منها أزماناً طويلة •

أن تطور الاسلوب انما جاء كنتيجة طبيعية لاتساع أفق الحياة ،
ففتحت الصحافة اللغة على هذه الحياة وجعلتها وسيلة مرنة طيبة للتعبير
عن هذه الحاجات ، واهتمت بالبساطة والوضوح وبالجملة النافذة
التي تعطي معنى مباشراً ، بحيث يستطيع أن يفهمها أولئك الذين لم
تتح لهم الفرصة لأن يتعمقوا أكثر في دراساتهم ، ولا يتعد عنها المتعلم
تعلماً عالياً ، أسلوب يستمد بلاغته من الحياة الواقعية ، ومن الاحساس
المشترك الذي خلقته الصحافة •

فتنوع الأساليب الصحفية إنما جاء ليراعي رغبات الجماهير ومقتضى

الحال، وطبيعة الموضوع الذي يتناوله الكاتب ، فهناك أسلوب العرض المنطقي الذي يراد به اقناع القاريء لفكرة معينة ، وهناك الأسلوب الوجداني الذي يترك الكاتب لنفسه حرية التعبير عما يجيش في نفسه من افكار ، وهناك أسلوب الريبورتاج الذي اهتمت به الصحافة الحديثة لنقل أحداث معينة يقصد الكاتب منها التأثير في قارئة أو اطلاعه على أمور تغيب عنه ، وسوف نلم بهذه الاساليب ونحن نتعرف المقال في الصحف العراقية .

لقد انصرت موجة الاسلوب التقليدي في الصحافة ، فكانت عاملاً مهماً في التخفيف من أثر هذه الاساليب والقضاء عليها ، فلم يعد المحافظون يجدون لأنفسهم قراء يتذوقون أدبهم ، فراحوا يصفون الأدب الجديد بكل صفة مذمومة بغية الحط من قدره ، واعتبروه أدباً مستورداً غريباً عن الروح العربية لخلوه من الفخامة والجزالة ، وعندهم أن كل أسلوب سهل بسيط يوازن بين اللفظ والمعنى هو من قبيل الأساليب الافرنجية التي تمتليء بالركة والضعف يقول الاستاذ العقاد « الأسلوب الافرنجي هو كل أسلوب معيب في رأي فئة من النقاد ، وكل ركيك مستضعف فهو عند هؤلاء النقاد من الأساليب الافرنجية التي طرأت على اللغة بعد اختلاط الشرق بالغرب . . . كأن الركافة شرط أصيل يشترطه الافرنج في كلامهم . . . ويأخذون على ما يسمونه بالأسلوب الافرنجي قلة المحسنات البديعية والاستعارات المجازية

يظنونها من مزايا لغة العرب » (٤٧) .

وحينما عجزوا عن مجاراة هذا التيار ولم يقدرُوا على الوقوف بوجهه ، راحوا يراقبون زلات الكتاب المغوية التي لا تسير على سنن العرب واتخذوا منها وسيلة للتشهير والنشيع ، والذي ساعدهم على هذا طبيعة دراستهم التي هي أكثر التصاقاً بالعربية نحواً ولغة وحرفاً ، دون مراعاة للتطور السريع الذي أصاب اللغة .

لقد أوحى البعض من هؤلاء المتعصبين بأن للجرائد لغة خاصة لكثرة ما فيها من اخطاء لم تجر على ما ألفه العرب ، وفاتهم أن اللغة لم تمت إلا على صفحات المعاجم ، وأن القدماء أنفسهم لم يترمتوا كل هذا التزمت ، وأن الحريري نفسه جوبه بمن يرد عليه في زمانه حينما اورد في كتابه (درة الغواص في أوهام الخواص) نيفاً ومائتي عبارة زعم أنها من الأوهام التي تشين الذوات فتولى اصلاحها ، غير أن قاضي القضاة أحمد شهاب الدين ، رد على الحريري وبين صحة كثير منها (٤٨) .

ان اللغة لا تعرف الجمود وكل عصر يضيف كلمات جديدة الى العصر السابق له وهي بنت الحاجة ، وفي خلال هذا كله قد تموت كلمات بعينها لقلة الحاجة اليها أو بتأثير كلمات جديدة أوجدتها ظروف العصر وتطوراتهِ .

ان جمود اللغة معناه جمود التفكير لأنها وسيلة للتعبير عن الافكار،

(٤٧) العقاد - المراجعات - ص ١٠٠ .

(٤٨) انظر جريدة العراق عدد ٨٠٦ سنة ١٩٢٣ .

والأديب الحق هو الذي يحول هذه الالفاظ الى أفعال محسوسة وحوادث ناطقة ، أما تفسير هذه الالفاظ تفسيرات قاموسية فانما هو قتل للغة وقضاء على سنة التطور ، ننظر الى بعضهم تحت حقل أخطاء الكتاب وكيف يفسر الالفاظ والتعيرات حيث جاءت في المعجم « يقولون وحش كاسر أي ضار ، وانما الكاسر في مثل هذا من صفات جوارح الطير ، يقال كسر الطير اذا ضم جناحية يريد الوقوع وباز كاسر وعقاب كاسر ... » (٤٩) .

ومثل هذا كثير لا يخرج عن تفسير العبارة والكلمة تفسيراً قاموسياً ، وإلا فأى عيب في استعارة كلمة كاسر من الطير الجارح الى الحيوان المتوحش الذي ينقض على فريسته الى الانسان الذي تغلب عليه غريزته فيتحول الى ما يشبه الوحش في عمله ذاك .

أما لغة الجرائد ، وهو الكتيب الذي جمع فيه الشيخ ابراهيم اليازجي بعض العبارات والالفاظ التي خص بها كتاب الصحافة ، فقد أحدث صدى عميقاً في حينه ورد عليه كثير من اللغويين والأدباء ، وقاريء هذا الكتيب يلاحظ ثلاثة نقاط تستحق أن نعلق عليها ، الأولى ، هي ما ذهب اليه المؤلف من أن هناك بعض الأخطاء التي وقع فيها كتاب الصحافة ، وهذا صحيح لأن كتاب الصحف ليسوا على مستوى واحد في ثقافتهم اللغوية والنحوية فمن الطبيعي أن يقع بعضهم في مثل هذه الأخطاء وعلى الآخرين واجب تقويمهم وارشادهم .

والنقطة الثانية أن بعض هذه الأخطاء موضعية لا تتعدى حدود منطقة بعينها . والنقطة الثالثة أن الشيخ اليازجي يفسر الالفاظ تفسيرات قاموسية ، مع انه كان من أعلام اللغة الذين أدوا للعربية خدمات جليلة ، وهو حينما لا يجد لهذه اللفظة أساساً في المعجم يقول عنها انها لم تجر على سنن العرب ولهذا فلا لزوم لاستعمالها ، مع أن العربية غنية بالوسائل التي تساعد على انماء اللغة وتطورها ، كالنحت والقياس والتعريب وغير ذلك مما يعترف به اللغويون أنفسهم .

فمن التعابير التي أوردها اليازجي مثلاً واعتبرها من أخطاء كتاب الصحف قوله : « التحرير التي لم يبق كاتب جريدة ولا مؤلف كتاب إلا وردت في كلامه مئات من المرات ، يريدون بها معنى التنقيح والتعديل والاحكام . ولم ترد بهذا المعنى في كتب اللغة ... » (٥٠) .

ومثل هذا في قول الشيخ اليازجي « ومن ذلك قولهم : خرج فلان عصارى ذلك اليوم ، يريدون وقت العصر ، ولا وجود لهذه اللفظة في كتب اللغة ... » .

وقد تعقبه بعض اللغويين والأدباء فيما ذهب اليه كالذي صنعه الأب لويس شيخو العالم النعوي ، فيما نقلته جريدة العالم العربي ، قال : « وهذا شيخنا اليازجي ، نشر في مجلة الضياء فصولاً متتابعة تحت عنوان لغة الجرائد دون فيها نحو ٢٥٠ مفرداً ومركباً جمعها من الجرائد وادعى أنها تفسد اللغة ، فتصدى له غيره من العلماء كالامير شكيب أرسلان والمرحوم رشيد الشرتوني وغيرهما ، وأثبتوا

أن عدداً عديداً من تلك الاغلاط المزعومة لها في اللغة وجه صحيح فسكت الشيخ عن ردودهم ... ولكننا نرى في بعض هذه المزاعم تضيقاً زائداً على الكتب فيأخذون بخناقهم لبناء حكمهم على القديم الموجود في كتب النحويين دون مراعاتهم للسماعي الحسن .. والمولدون لهم رأيهم منذ أن دخلوا في الحياة العربية بعد الجاهلية وصدر الاسلام ولا تثريب على هؤلاء المولدين ، فكيف يريد بعض هؤلاء المتهوسين أن يضيقوا على المحدثين ، ويحولوا بينهم وبين أنوار العصر صيانة لكرامة الاقدمين ، فان كان لكل مقام مقال فلكل زمان مكان واستعمال » (٥١) .

ومن ذلك أيضاً ما ذكره الشيخ محمد بهجت الاثري ، حيث اثبت صحة كثير من الالفاظ التي خطأها الشيخ اليازجي كقوله : « ... وقد أدمج فيها كلمات سبقه الى انتقادها أمثال الحريري والخفاجي من غير اشارة الى ذلك ... أذكر من ذلك على سبيل المثال افكاره استعمال (النوادي) مع كونه القياس في جمع النادي . وهذه دعوى لا تسلم له ، وقد استعمل هذا الجمع قديماً ولم ينكر أحد وروده سواء ، قال معاذ بن حزم الخزاعي فارس خزاعة :

ولست برعديد اذا راع معضل ولا في نوادي القوم بالضيق المسك وقال صاحب المحيط (محمد خير من حضر النوادي) وقد هالني تشدده في منع (مشاهير) في جمع مشهور بدعوى أنه لم يرد في كلام

العرب ، ولا أدري ما يضير اللغة لو قسناه ، وباب القياس في لغتنا أوسع ولا شك من سم الخياط » (٥٢) .

وعلى هذا الاساس فلا مجال لأن تكون للجرائد لغة خاصة بها، كل ما هنالك أن بعض الكتاب المجددين ، آثروا جمال الاسلوب على الاهتمام بهذه التراكيب القاموسية ، ولا يمكن الصاق كل خطأ بكتاب الصحافة ، فلآخرين أخطأؤهم ، وان كان المفروض بالأديب أن يلم بمادته اللغوية والنحوية قبل كل شيء ، وكتاب الصحافة يخاطبون الجماهير وفي بعض الاحيان تدعوهم الحاجة الى التحرر من بعض القيود اللغوية ولا سيما في صوغ العبارات المختصرة او التركيز على ناحية دون أخرى ، والاهتمام بالبساطة والوضوح والتأثير المباشر .

ولكن ليس معنى هذا ان الصحافة لا تخلو من بعض الجوانب السلبية التي تركت أثرها على الادب وافقدته كثيرا من جوانبه الفنية التي يعتد بها ، فكانت بحق سلاحا له حدان ، يتمثل الحد الاول في أنها استطاعت أن ترفع الجماهير الى مستوى معين وجعلهم يتذوقون الفن والادب ويقدرّون قيمة الثقافة والاطلاع وجانب سلبي يتمثل في فقدان الادب الكثير من جوانبه الفنية بفعل عامل السرعة التي جبلت عليها الصحافة في الوقت الحاضر .

وقبل أن نختم هذ الفصل يجدر بنا ان فلتنت الى نقطة مهمة وهي أن الصحافة كانت عاملا مهما في اشاعة الألفاظ والاصطلاحات

الحديثة لتدل على معان بعينها ، وقد تأثرت هذه الاصطلاحات بالثقافة الاجنبية التي لها نفوذ سياسي أكبر من غيرها ففي بداية هذا القرن مثلاً ، كانت هناك اصطلاحات تركية تشيع على كثير من ألسن الناس أخذوا أكثرها من العربية أصلاً ومن ثم أعادوها على غير وجهها الصحيح . ولما كانت الفرنسية أكثر شيوعاً من الانكليزية في العراق كانت العامة تنطق بالفاظهم ، ثم لما دخل الانكليز تأثروا بهم وتحولت هذه الاصطلاحات الى لغتهم ، يقول مصطفى جواد : « أسس قطار السكك الحديدية في زمن العثمانيين وكانت الفرنسية أشيع اللغات القريبة فسموه (شمن دفر) بالاسم الفرنسي ، وبعد الاحتلال الانكليزي سمي (ريل واي) فاختصروه فقالوا (ريل) ، حتى وضع له بعض الادباء اسم القطار أخذوا له من الجمال المقطورة ، وهي القطعة من الايل يلي بعضها البعض في السير على نسق ... وهكذا السيارة فكانت تسمى (أتوموبيل) في العهد العثماني ، ثم (مرقور كار) في الانكليزية ، حتى جا المرحوم أحمد زكي فسمّاها السيارة فقتلت الاسمين معا وهكذا الكهرباء والاسلاك والاذاعة والدراجة والباخرة ... » (٥٣) .

أما الاصطلاحات التي أشاعتها الصحافة فكثيرة تتعرف بعض جوانبها ، مع الاهتمام بالاصطلاحات التي تنسب الى بعض الادباء واللعوين الذين اتخذوا الصحافة وسيلة لخدمة أهدافهم .

ينسب للشيخ ابراهيم اليازجي الاصطلاحات التالية : الحساء ،

الجناح (البلكون) ، المأساة (تراجيدي) ، الملهمة (كوميدي) ،
المجلة ، الجرثومة ، الدارجة ، الشحنة ، اللولب ، المقصف ،
الحوذي

وينسب لاحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب : الجريدة ،
المؤتمر ، المنطاد ، المطعم ، بالاضافة الى كثير من اصطلاحات علم
الحيوان .

وينسب لصروف : الفواصة ، الدبابة ، الرشاشة ، النواة ،
الكهرب ...

لقد ساعدت الصحافة بحكم تمكنها من نفوس الجماهير ، على
اشاعة هذه الالفاظ وجعلها تدل على معان معينة ، ففي المجال السياسي
فجد الفاظا مثل : الديمقراطية ، الدكتاتورية ، المؤتمر ، السفارة ،
الاستعمار ، المحافظون ، الاحرار ، الاشتراكية ، الاعيان ، النواب ،
البرلمان وغيرها الكثير .

وفي المجال الصناعي : القطار ، القاطرة ، الباخرة ، الرقاص ،
السكك الحديدية ، المعامل .

وفي المجال الصحفي أشاعت الصحافة ألفاظا مثل : محرر ،
مطبوعات ، طباعة ، مراسل ، مجلة ، جريدة ، منشورات ، دوريات .
وفي المجال العسكري : مشير ، فريق ، لواء ، اركان حرب ،
ضابط ، غواصة ، دراعة ، بارجة .

وفي الادارة : مفتش ، معاون ، متصرف ، محافظ ، تشريعات ،

رواتب ، مدير ، ناظر ، قضاء ، فاحية •

وقد جمع المرحوم جرجي زيدان اشياء الكثير من هذه الالفاظ
والاصطلاحات المولدة والمعربة (٥٤) فكتني بهذا القدر الذي يبين ما
للصحافة من أثر في مجال الاصطلاحات واحياء اللغة العربية وجماها
لغة الجماهير •

الفصل الثاني

الاديب والصحافة

الصحافة حركة ثقافية واسعة ، يحتل الادب فيها مكان الصدارة
واذا أخرجنا من دائرتها ما له علاقة بالاخبار والاعلام ، كانت الصحافة
فنا أدبيا حديثا دخل البلاد العربية في بداية نهضتها ، وعاملا قويا في
نشر الثقافة العامة وايصال المفاهيم الحديثة بين مختلف الطبقات ، كما
كانت ثورة على كثير من القيود التي تكبل الانسان في فكره وحرية
وتعبيره .

ان أي باحث يريد أن يدرس أدبنا العربي الحديث ، سيكون عمله
ناقصا ان هو أغفل الصحافة من حسابه ، فهي منذ وجودها وحتى اليوم ،
كانت الوعاء الطبيعي لكثير من التيارات الأدبية والفكرية ، اعتمدت على
الأدب وتفاعلت معه وامتزجت به امتزاجا غريبا ، بل ان كثيرا من الظواهر
الأدبية والفنية في حياتنا الفكرية ، كان من الممكن أن لا تجد سبيلها
الى القراء ، لولا هذه الجرائد والمجلات التي أعانتها على الظهور ،
وشجعتها على النمو ومحتتها القدرة على التأثير وأعطتها بعض صورها
وملامحها (١) .

(١) انظر : شكري فيصل — الصحافة الادبية ص ٥ .

لقد اعتمدت الصحافة في مراحلها الأولى على كواهل الأدباء ، فتولوا الكتابة فيها ، وعرضوا ثمرات أفكارهم على صفحاتها ، فضمت في كثير من مراحلها الأولى بواكير الأدب الحديث على نحو ما نرى في صحفنا الرائدة التي كانت تصدر في مصر وسوريا والعراق .

فالصحافة العربية التي كانت تصدر في القرن الماضي وبداية هذا القرن كانت معرضاً جميلاً للأفكار والآراء التي حملها أولئك الرواد ، الذين أخذوا من الصحافة وسيلة لنقلها إلى جميع الناطقين بالضاد في مختلف ديارهم ، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أحمد فارس الشدياق وجريدة الجوائب ، وما قدمته هذه الجريدة من خدمة كبيرة لكثير من الأقطار العربية التي كانت تصل إليها ، وقل مثل هذا في الشيخ رفاة الطهطاوي والشيخ محمد عبده ومحمد حسين هيكل والشيخ علي يوسف وغيرهم الكثير ، وهكذا هم أصحاب الصحف اللبنانية من أمثال الشيخ قاصف اليازجي وابنه إبراهيم ، والبستاني بطرس وسليم .

لقد كان هؤلاء الرواد يحملون فكرة معينة أرادوا بها خدمة بلادهم فلم يجدوا خيراً من الصحافة في إيصال هذه الأفكار ونشرها بين أكبر عدد ممكن من الناس ، ومن هنا جاءت صحفهم حركة فكرية وأدبية ، فكانت بحق جسراً إلى نهضتنا الحديثة ، فما أثّرت ضجة أدبية في وقت من الأوقات إلا تردد صداها في الصحف ، بعد أن أصبحت ملتقى النابهين والمفكرين يعرضون فيها ما تجود به قرائحهم وأفكارهم ، يقول جرجي زيدان « فلم ينبغ من شاعر أو أديب أو عالم أو مؤرخ

إلا وكتب في مجلة أو جريدة » (٢) .

ان فهمنا للتطور الأدبي في العصر الحديث مرتبط ارتباطاً تاماً بالصحافة ، لأن الأدب والصحافة عنوان ، ودراسة تاريخ الصحافة إنما هو دراسة تاريخ النهضة الأدبية الحديثة التي كانت الصحافة عاملاً هاماً في ظهورها وشمولها ، واليهما يعزى ذلك التطور الخطير الذي أصاب أدبنا الحديث من حيث أسلوبه وموضوعاته التي بدأ يعالجها ، كما كانت مدرسة لتدريب كثير من الشبان على فنون الكتابة الحديثة وبخاصة اولئك الذين لم تنهياً لهم فرصة التعليم المنتظم في المدارس والجامعات ، في وقت لم يكن الكتاب قد عرف وجوده بعد .

لقد امتنن الجيل الأول من أدبائنا الصحافة ، فأفنوا حياتهم في خدمة الأدب عن طريقها ، وكل واحد منهم كان يحمل فكرة معينة أراد أن يشر بها عن طريق الصحافة ، فالكرملي كان أدبياً لغوياً أفنى حياته في خدمة العربية وآدابها ، بدأ حياته بالكتابة الى الصحافة العربية ، قبل أن ينشئ مجلة لغة العرب ، قال الأستاذ كوركيس عواد « لقد أحصيت مقالات الألب الكرملي في صحف ومجلات الأقطار العربية ، فإذا بها تربو على ألف ، تزيد في مجموعها على خمسة آلاف صفحة أكثرها بأسماء مستعمارة والله ١٢٧ اسماً مستعاراً » (٣) وحينما أصدر مجلة لغة العرب كان هذا الجهد الذي عرفناه في حقل اللغة والصحافة .

(٢) جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية ج ٤ ص ٢٤٦ .

(٣) مجلة الجزيرة عدد ١٢ سنة ١٩٤٧ ص ٣ .

أما ابراهيم صالح شكر صاحب مجلة الناشئة الجديدة فهو من أوائل الرواد في نهضتنا الأدبية الحديثة ، حمل بيده معول الهدم يريد أن ينقض به على كل ما هو زائف وبهرج ، لا تصدر له صحيفة إلا لتغلق ، فيعود مرة ثانية للأصدار أخرى ، فهو صاحب فكرة يريد أن يغير بها ما ألفه الناس أحقاباً طويلة ، في وقت لم يكن هؤلاء على استعداد لتقبل هذا التحول السريع ، فأصطدم الرجل بالواقع وسبب لنفسه الكثير من المشاكل ، حتى أن بعض الصحف كانت تعرف جيداً مصير صحف ابراهيم منذ الأعداد الأولى لصدورها ، قالت جريدة العاصمة وهي تعلق على صدور الناشئة الجديدة : « شاهد أمس أهالي بغداد ، (الناشئة الجديدة) الصحيفة الأدبية الأسبوعية الظرفية ، وقد أتى العدد الأول منها مثلاً للذوق الأدبي ، نرجو للرسيفة الزواج والانتشار ونطلب إليها أن لا تحاول الطفرة في توجيه النقد الى من لم يعتادوا من الناس سوى سماع ألفاظ المجاملة ، وان أمثال هؤلاء لا يفهمون مرامي الفن الجديد » (٤) ، هذه النصيحة وأمثالها لا تنفع مع شخص لا يعترف بأنصاف الحلول ولا يعبأ بالمجاملة والمدحاجة ، فهو أديب يحمل فكرة جديدة عن الأدب والحياة ، يريد أن يزاولها وينشرها رغم الصعوبات ورغهم طبيعة العصر .

وتبدو هذه الفكرة واضحة من خلال اطلعنا على صحف ابراهيم ، قال في مقدمة الناشئة الجديدة : « ان البلاد بحاجة ماسة الى صحيفة

أسبوعية تعنى بالنهضة الأدبية والفكرية ، وخطتها أن تطرح في قربة الناشئة جوب الجرأة والنشاط وتحرك فيها يداً ، وتثير فيها عقلاً للتفكير ، فقد سئمت النفوس فجاجة القديم وفهاهة العقيم » (٥) وحينما أغلقت هذه المجلة بسبب روحها الثورية التي لم يقدرها بعض أهل عصرها ، وبخاصة رجال السلطة ، لم يسكت ابراهيم صالح شكر على ذلك ، بل عمد الى اصدار غيرها وغيرها ، لأنه يحمل فكرة جديدة يرى أن من واجبه نشرها بين مواطنيه ، قال في مقدمة الزمان « انني من حملة المعاول ، وسوف أجعل من هذه الجريدة معولاً أهدم به وأحطم به ، لا لأن الهدم والتحطيم منا تحتاجه البلاد ، وانما لأنني ولوع في الهدم شغوف بالتحطيم ، وليس ذلك فقط ، وانما أنا رجل أفيض بالنقمة على عبادة الأصنام ، وسوف أتعمد في هذه الجريدة امتهان الأصنام وعبادتها ، سوف أكشف في هذه الجريدة البهارج المصطنعة في الكرامات الكاذبة » (٦) ومن هنا جاءت صحفه معرضاً لكثير من الآراء الحديثة ، كان من نتيجتها أن هيأت النفوس لتقبل أنوار العصر الحديث والنهضة الجديدة .

لقد امتهن الجيل الأول من الأدباء الصحافة ، فكافت ملكة الأدب تطفئ على كثير منهم ، ولم يبالوا بالصعوبات التي تقف حائلاً بينهم وبين المباديء التي كانوا يريدون نشرها ، ذكر الأستاذ جعفر الخليلي

(٥) الناشئة الجديدة عدد ١ سنة ١٩٢٢ .

(٦) الزمان عدد ١ سنة ١٩٢٧ .

وهو يعلق على ما كان يلاقيه من عقبات بسبب احترافه الصحافة وكيف أنه كان يتحمل كل شيء في سبيلها ، قال « لو أنني أنفقت هذه السنوات في مزاوله أحقر الأعمال ، لكنت قد وفرت لنفسي راحة القلب ان لم أستطع أن أوفر راحة البدن ، وهذا ما كنت أقتظره من الصحافة ... كنت مضطراً الى ذلك بحكم نزعتي الأدبية ، وميلي الخاص لهذه المهنة ، ان ترك العمل ليس من السهل على كاتب نشأ نشأة أدبية وعاش عيشة أدبية كل مميزاتها أنها كانت منزهة عن كل ما يشين وجه الأدب ويخدشه » (٧) وحينما أصدرت الحكومة العراقية مرسوماً تحدد فيه العمل الصحفي وتقصره على أصحاب الشهادات العالية دون غيرهم ، كان الأدباء أول من ثاروا على هذا المرسوم ، لأنهم يعرفون جيداً أن العمل الأدبي لا علاقة له مطلقاً بالشهادة وانهم أول من يتضرر بهذا المرسوم ، ذكر الأستاذ سلمان الصفواني صاحب جريدة اليقظة وهو يعلق على هذا المرسوم « فالصحفي في هذه اللائحة يجب أن يكون من حملة الشهادات العالية ... فالعقاد وبرنارد شو لا يستطيعان أن يكونا صحفيين في العراق ، فالبلاد الى عهد قريب تعتمد في دراستها على حلقات العلماء والمدارس الخاصة ، التي أخرجت طائفة كبيرة من نوابغ العلماء والأدباء والكتاب والشعراء ، لا يضاهيهم أحد من متخرجي المدارس المدنية ، وليس ذنب هؤلاء أنهم لا يحملون شهادات مدرسية ، انما هو ذنب وضع البلاد السياسي والاجتماعي الذي لم يخلق لهم مثل هذه

الظروف • ان العمل الصحفي والتجّاح فيه لا يتوقف على الشهادات المدرسية ، لأنه قابلية وموهبة وتفرغ وهواية ، فكثير من حملة الشهادات العالية لا يستطيعون أن يكتبوا مقالاً أو يعالجوا موضوعاً ، فالكتابة فن وموهبة كالشعر وسائر الفنون ، لا تكتسب بمجرد الدرس والشهادة العالية » (٨) •

لقد أحدث هذا المرسوم ضجة كبيرة في حينه وأنتقده كثير من المفكرين وأشبعوه درساً وتمحيصاً فالكتابة موهبة قبل كل شيء ، قال الأستاذ توفيق السمعاني صاحب جريدة الزمان البغدادية « نحن لانعرف هذه الشهادة العالية التي تخلق كتاباً ومؤلفين وادباء وصحفيين ، كيف نطلب من الطبيب أن يرأس تحرير جريدة ويعالج مواضيع معينة ، فإذا قيل ان شهادة الحقوق هي المطلوبة في رفع مستوى الصحافة ، فالصحافة شيء وارث كتاب الجرائم شيء آخر ، فالصحفي الناجح هو الذي يجمع الى الأدب علوماً وفنوناً أخرى ثم يرزق مع هذا الملكة الصحفية ، فالصحافة اذن هي وليدة الأدب والخبرة والفن والهواية والممارسة ، والمواهب الخاصة ، إتنا لا نعرف للمؤلفين وقادة الفكر الخالدين من أمثال أرسطو وأفلاطون والعربي شهادات رسمية » (٩) •

وحينما أرادت الثورة المصرية أن تصدر مثل هذا المرسوم استطلعت رأي بعض المفكرين قبل صدوره ، ومنهم محمد علي علوبة حيث قال :

(٨) الليقطة العدد ٧٩٢ سنة ١٩٥٠ .

(٩) الزمان عدد ٣٨٠١ سنة ١٩٥٠ .

« انني لا أعلق كثيراً على موضوع الشهادات فالأدب وحسن التعبير أمور لا ترتبط بالشهادات .. ولطالما دلت الحوادث على أن أفاسا لم ينالوا شهادات عليا ، وصاوا بمواهبهم الطبيعية الى أن يكونوا من أقدر الناس على التعبير عن آرائهم » (١٠) .

ذلك هو الجيل الأول من الأدباء احترفوا الصحافة لخدمة أفكارهم الجديدة التي يحملونها بغية اشاعتها بين الناس ، ولهذا جاءت صحفهم لوحات فنية أكثر من أي شيء آخر ، يغلب عليها جانب الرأي ، ولم يولوا الأخبار تلك العناية التي نراها في صحافة اليوم ، إلا بمقدار تفكيه الناس ومحلولة اطلاعهم على امور جديدة ، تضاف الى ثقافتهم الخاصة ، كما كانت صحفهم مصدر اثارة فكرية وجدلية بين النابهين من أدباء عصرهم ، تحرك الأجواء الراكدة ، لتدفع بالثقافة الى النمو ، وتتوصل الى هدفها هذا بمختلف الطرق فوضعت الجوائز للمتفوقين ، وحثت الكتاب والأدباء على الانتاج ، وارتادت السيوت والزوايا المهملة بحثاً عن المخطوطات وعن الأدباء المنسيين ، قالت مجلة لغة العرب « عند حضرة الفاضل اسكندر أفندي ، كتب قديمة كثيرة في مواضيع مختلفة ، ومن جملتها كتاب في اللغة يرجع عهده الى القرن السادس للهجرة عدد أوراقه ٢٥٠ ورقة ، يبدأ الكتاب بالهمزة وينتهي بالياء .. » (١١) .

وهكذا تستمر المجلة في تعريف قرائها بهذا الكتاب وبكتب أخرى غيره .

١٠. صوت الاهالي عدد ٢٣٦ سنة ١٩٥٤ .

١١. لغة العرب عدد ٥ سنة ٩١١ ص ٨٩ .

غيره ، كما كان للصحف التجفية فضل يذكر في بحث كثير من أعلام الأدب في الفترة المظلمة ، ولولا هذه الصحف لكان من المحتمل أن يؤدي الزمن بكثير من هؤلاء الأعلام ، مع ما للتعرف عليهم من أثر في معرفة كثير من الاتجاهات التي تنقصنا عن الفترة المظلمة، فمجلة البيان كانت تفرد في كل عدد من أعدادها حقلاً خاصاً عن الأدب المنسي ، قالت تحت عنوان (موشحات منسية) ومما جاء فيه: « تقرأ تحت هذا العنوان في كل عدد أرقى الشعر غير المقروء والمسموع لمشاهير القرن التاسع عشر واليك موشحة للشاعر المنسي السيد موسى الطالقاني المتوفى سنة ١٢٢٧ هـ ٠٠ » (١٢) .

ولهم يكتف أصحاب الصحف رائدة من الأدباء بهذا فحسب، بل فتحوا صدور صحفهم ، لكل أديب نابه أو مفكر معروف في عصره ، فكانت صحفهم ملتقى رواد الفكر والثقافة في عصرهم ، وقد يضيق بنا المجال لو أردنا أن نتبع كل من كتب في هذه الصحف ، نذكر منهم على سبيل المثال ، الشعراء المعروفين الزهاوي والرصافي ، وما أحدثا من ضجة في عصرهما ، كانت الصحافة مجالها الأول ، فأوجدوا حركة فكرية لها أهميتها في بلد متطور كالعراق ، باعتبارهما من الشعراء المجددين ، فكان لكل منهما مؤيدون ومخالفون ، ماؤا أعمدة الصحف التي كانت تصدر قبل الحرب العالمية الأخيرة ، ذلك أن أهل هذا الجيل من الأدباء كانوا ينظرون الى الصحافة كفن أدبي خالص ، وكوسيلة مهمة لعرض

هذه الخواطر والأفكار ، فكانوا بحق ثورة جديدة على كثير من المقاييس التي سبقت ظهور الصحافة ، ذلك أن الأدب العربي قبل ظهور الصحافة كان مقصوراً على قلة من الناس تغرم بالاشكال والزخارف يعج أدبهم بغريب الكلام ووحشي اللفظ ، المثقل بالتقليد الراكد في معناه ومبناه فلا ابتكار ولا سهولة ولا ذوق مجرد ألفاظ طنانة جوفاء متخذين من الرسائل والمقامات مثالا يحتذى في كثير مما يكتبون وإذا كان لكل زمن مقال فإن لكل عصر ظروفه ومقاييسه التي تملئها عليه طبيعة ذلك العصر لم يعد بمقدور الأديب الحديث أن يعنى بكل هذه الشكليات لمجرد أن يقال عنه ، انه جزل الألفاظ فخم الأسلوب ، فالماضي مهما بذلنا في تحصيله لا يمكن له ان ينهض بكل تبعات الحاضر أو المستقبل ، ولهذا فلا بد من النظر اليه على أنه لبنة أو أساس لكل ما يشيد عليه من عناصر الحياة ، والا تحول الى مصدر خطر كبير ان نحن وقفنا عنده مقدسين أو متزمتين .

لم يعد الأدب وقفا على طبقة دون أخرى ، فالتطورات الهائلة التي صاحبت النهضة في ميادين التعليم والفنون والسياسة والاقتصاد والاجتماع استوجبت أدبا جديدا يتسع لكل هذه التطورات ، وقد تحملت الصحافة عبء هذا العمل نظرا لشيوعها وانتشارها وسرعة تأثير الناس بها ، أدب يلائم هذه الطبقة الجديدة فنزل الى مستواهم وخطبهم باللغة التي يفهمونها دون أن يفقد شيئا من فنيته في باديء الامر لأن أدباء الجيل الأول كانوا من الموهوبين الذين لم ينزلوا الى

مستوى الاسفاف والانحدار الذي بلغتة الصحف اليومية كما نراها اليوم ، لقد دفع هؤلاء الرواد الجماهير الى مستوى الفن وتذوق الأدب حينما وجدوه ادبا جديدا يصور لهم الواقع الذي يعيشونه ، ويكشف لهم عن مواقف ذات مساس مباشر بواقعهم ، لقد وجد هؤلاء الأدباء أن حياة الناس وطرق تعاملهم وغيرها من المواقف الكثيرة معين لا ينضب يستطيع ان يجد فيها الأديب أو يخلق منها مادة لموضوعاته فكلما عرض الكاتب الحياة البشرية بلغة معبرة كان أبعد تأثيرا في النفوس ، فالتعبير عن الآراء الدينية والفلسفية والعلمية والسياسية يصبح أدبا اذا استخدم الأديب أسلوبه وعرض مادته عرضا فنيا ملائما ، أما حينما يغرم الأديب بالصناعة اللفظية ويبحث عن الألفاظ المهجورة بحجة الجزالة والفخامة ، او حينما يطرق موضوعات اشبعها الاقدمون بحثا ، فان جمهور القراء سيعزف عن هذا الأديب حتما لانه لا يجد فيه ما يفره به ، أو لأن الأديب لم يكن موفقا في عرض آرائه وافكاره ببساطة ووضوح ، فيعزف الجمهور عن هذا الأديب الى غيره ، يقول محمود تيمور « ان اكبر ما يعوق الجمهور عن استيعاب الفن هو التواء العرض ووعورة السبيل الى الفهم ، فاذا أحسنّا عرض الفن ويسرنا سبيله اليه عرف قدره وتذوقه واستمتع به وآثره على غيره ، فاذا راعنا أن الانتاج الادبي محدود الانتشار ، فمن الخطأ أن نرد ذلك الى أن الجمهور زاهد في هذا الفن الرفيع » (١٣) .

فالكاتب انما يكتب للقاريء ، وهما يعيشان في عصر واحد ، ويتعرضان لنفس الاحداث ، أي أن الكاتب لا يستطيع أن ينسى أهمية العوامل الخارجية التي تحيط به ، لتكون بعد ذلك مادة لموضوعاته ، والقاريء من ناحية أخرى يبحث عن الأدب والصحيحة التي يجد فيها نفسه ، فيتأثر عقله وذوقه وقلبه حينما يجده أدبا نابضا بالحياة .

لقد خرج الكتاب من تلك الحلقة الضيقة الى مجالات ارحب وأوسع ، تلائم التطور الذي اصاب جميع فواحي الحياة ، وأوجدوا من خلال هذا كله شعورا عاما بين أبناء الشعب الواحد ، ورفعوهم الى مستوى الاحداث ، وجعلوا منهم قوة تستطيع ان تترك أثرها وتقوم بدورها في أوقات المحن والأزمات ، يقول الدكتور محمد حسين هيكل في مقدمة كتابه ثورة الأدب : « منذ ان بدأ هذا الشعور القومي يحرك النفوس ويدعوها الى التوجه نحو التهوض بمجموع الامة الى مثل أعلى ، من يومئذ بدأت الكتابة تخرج من حظيرة الضيقة حظيرة الدواوين ومن النطاق المحصور نطاق التعليم لتتصل بالناس على اختلاف طبقاتهم ، ولتصور لهم من نواحي الحياة ما يريد الكاتب تصويره لكن الجمهور لا يفهم عنها اذا خاطبته باللغة التي كان يتخاطب بها العرب الأولون فكيف تقرب هذه اللغة الى ادراك الجمهور وترفع الى حسن ادراك لغة القرآن ، من خلال هذا كله نشأت ثورة الادب » (١٤) .

وقد تحملت الصحافة والادباء الذين كانوا يحررون فيها عبء هذه الناحية بالذات لالتصاقها بحياة الجماهير أكثر من أية وسيلة ثقافية أخرى . ففي الصحافة ظهرت الحاجة ماسة الى ملائمة متطلبات العصر في جميع نواحي الحياة ، فكان تاريخها يضم بين دفتيه قصة التطور العام في مفهوم الادب ، فتخطى نتيجة لهذا كله عن مراسيمه وطقوسه وإبراجه كما كانت الصحافة رمزا لانحسار موجة الادب الذي يفرق في الشكليات ، وتحول الأدباء عن أبراجهم تلك ، وفزلوا الى ميدان الصحافة يعملون في محيطها ليخاطبوا انجماهير من خلالها ، ولم تعد هناك موضوعات صالحة لان تكون مادة للادب وأخرى غير صالحة لأن يعنى بها الاديب ، لقد اصبح هنهم الأدباء الجدد هو أن يقدموا أدبا نابعا من احساسهم ، ليس لأحد عليهم من سلطان ، يكتبون أو لا يكتبون فليس القلم وسيلة وحيدة للعيش ، فالأديب حر فيما يريد أن يقول أو يكتب ، وهذا في حد ذاته ثمرة من ثمرات النهضة الحديثة التي هبأت الحرية للقاريء وللكاتب على حد سواء ، يقول الدكتور طه حسين وهو يتعرض لأدبنا الحديث « على أن هناك تطورا لأدبنا الحديث أعظم خطرا له وجهان أحدهما يتمثل بأشخاص الأدباء والآخر يتصل بالموضوعات التي طرقها الأدباء ، فأما الوجه الأول فنجد في حافظ وشوقي والمنفلوطي من جهة ، وإلى العقاد والملازني وهيكمل من جهة أخرى ، الثلاثة الأولون لا يعيشون لأدبهم وانما يعيشون بأدبهم ، الادب وسيلة الى الحياة ، لأنهم بحاجة الى حماية تكفل لهم العيش والمساكنة ، وأما الآخرون

فينتمون الى غير هذا اللون من الأدب ، هم أحرار ينتجون أو لا ينتجون ، وهم يأبون أن يؤدوا عن اقتاجهم الأدبي حسابا لهذا . أنهم ينتجون للجمهور ، فهم مدينون له بحياتهم الأدبية لكنه جمهور لا يعث بحرية الأديب ولا يعرض كرامته لما لا يحب » (١٥) أولئك هم أدباء الجيل الاول من الذين امتهنوا الصحافة ، فكافوا بحق جسراً الى عصرنا الحديث الذي تقطف ثماره اليوم .

والصحافة بالاضافة الى أنها كانت ثورة على كثير من المقاييس التي سبقتها فانها كانت وسيلة لتعريف الأدباء وايصال أصواتهم الى القراء ، كما كانت بمثابة البوق الذي يفخم هذه الأصوات وينشرها بين الجماهير ، اذ يندر أن نجد شاعراً أو كاتباً إلا وللصحافة عليه فضل الذبوع والانتشار ، تعرف الناس بهم وبأدبهم حتى يصبحوا أعلاماً بارزين على كل لسان ، ومن المحتمل جداً أن فترة بقاء هذه الأصوات مرهون بقراءة الصحيفة وبالفترة التي تصدر فيها ، وكثيراً ما يذهب هذا الضجيج مع يومه ، ولقد أحس كثير من الأدباء أن هذا الضجيج والاصياح الذي يرتفع بأسمائهم سرعان ما يخبو ، وأن الصحيفة التي كانت سبباً في شهرتهم ستكون وسيلة من وسائل القضاء عليهم وعلى أدبهم ، وسوف يأتي ذلك اليوم الذي سيكون فيه أثراً بعد عين ، ومن هنا راحوا يلتفتون الى أنفسهم ، فهم لا يريدون أن يكون مصير جهودهم الى الضياع بهذه السهولة ، فصاروا يجمعون خواطرمهم من هذه الصحيفة أو تلك ليضموها في كتب تكون أدعى

لخلود هذه الخواطر وأصحابها مما لو تركت بين صفحات هذه الجرائد التي لا تتداول بين الناس أكثر من أربع وعشرين ساعة ، مع ما لهذه الآراء والخواطر من أثر في المجال الفكري والأدبي ، والتي تعتبر البنة لا يمكن اغفالها تضاف الى صرح الثقافة العامة ، يجد فيها الجيل اللاحق ما يمكن أن يفيد في كثير من أحكامه ، وبخاصة وقد كانت هذه الخواطر بداية نهضة الى العصر الحديث •

ان كتاب الطلائع كان حصيلة مقالات عن الأدب القصصي ومجموعة قصص لمحمود أحمد السيد الرائد الأول للقصة العراقية ، نشرها في عدد من الصحف المختلفة حينذاك ، وتعتبر ركيزة هامة في دراسة هذا الفن جمعها السيد من الصحافة خشية الضياع ، فلو تركت حيث هي ، لذهبت مع يومها ، وكتب الخليلي من أمثال الضائع ، وفي قرى الجن ، ومن فوق الراية وغيرها الكثير ، لم تكن سوى مجهودات أقاحت لها الصحافة الظهور ، وكان من الممكن أن تغيب عنا فحن أبناء هذا الجيل لو لم يتدارك الخليلي الأمر فيجمعها في كتب تكون أدعى لدوامها وخلودها • ان كل ما قاله الرصافي أو الزهاوي من شعر ، تجده منبثا في ثنايا الصحافة ، ولو أنهما تركا هذا الشعر على حالته لكان من الممكن أن لا تكون لهما هذه الدواوين التي كانت وسيلة هامة من وسائل تطور شعرنا العراقي ، وربما جاء جيل لا يعرف من هو الرصافي أو الزهاوي •

وهكذا هم بقية الشعراء ، للصحافة فضل اشاعتهم ونشر أدبهم

وتعريف الناس بهم ، ولكنها غير قادرة على الاحتفاظ بهم للأجيال
اللاحقة لسرعة دورانها الذي لا يقف عند حد ، كثيرون هم الشعراء
الذين لا نعرف عنهم اليوم شيئاً ، فيهم المقل وفيهم المكثر ، ومع هذا
فقد أتى عليهم النسيان لأنهم تركوا شعرهم في الصحافة ، ولم يجمعوه
في وعاء يضمن لهم الاستمرار والدوام ، فحديث الأربعاء للدكتور طه
حسين كان مجموعة مقالات كتبها للصحف ، خاف عليها من الضياع
فضمها الى كتابه هذا ، وانتشل الزيات أحاديثه من مجلة الرسالة
ووضعها في وحي الرسالة ، وقل مثل هذا في مراجعات العقاد ، وجميعها
ثمرة من ثمرات الصحافة ، خيف عليها من الاندثار لأن هذا البريق
لا يدوم أكثر من فترة محدودة قد لا تتجاوز اليوم الواحد .

وفي هذه المرحلة بالذات بدأ الكتاب يشق طريقه كوسيلة ثقافية
مهمة ، كانت الصحافة وسيلة لتعريف الناس به بما هبىء لها من سرعة
في الانتشار ، فكانت مهمتها الدعاية له والاعلام عنه ، واستطاعت
المطابع المختلفة في البلاد العربية أن تقذف عدداً كبيراً من هذه الكتب
الجادة التي تتمثل في أحياء الآثار العربية القديمة والترجمة عن الأمم
الحية مما كان له أكبر الأثر في اشاعة الفكر والثقافة بين البلاد العربية
المختلفة وبخاصة فيما بين الحربين ، على أن هذه الحركة لم تقدم ، فما
كاد الكتاب يقف على قدميه حتى عادت الصحافة فكافت وبالا عليه
وبخاصة حينما ظهر الجيل الجديد من الصحفيين ، إن مجموعة من العوامل
المختلفة هي التي أوصلت الصحافة الى هذا الحد ، ذلك أن تقدم

المواصلات بين أجزاء العالم المختلفة بسرعة انتقال الأخبار بفعل ظهور الراديو ووكالات الأنباء وغيرها من وسائل الاتصال السريع ، حولت الصحافة الى الاهتمام بالناحية الخبرية ، فبدأ العالم وكأنه مجتمع واحد ما يصيب جزءاً منه يصيب جزءه الآخر ، مع ما لهذه الحوادث من أثر في حياة الانسان ومستقبله ، يضاف الى هذا كله أن شيوع الثقافة بين عدد كبير من أبناء الشعب الواحد بفعل انتشار التعليم أدى الى وجود رأي عام ترتب عليه ظهور النظريات الاجتماعية والسياسية ، فكادت الأحزاب والجمعيات السياسية والمهنية ذات الاتجاهات المختلفة ، فتحول الأدب بفعل هذا كله الى واجهة من واجهات الاعلام والدعاية ، وتتلحق الحوادث وتتطور فتتحول أكثر الصحف الى صحف يومية غايتها إستيعاب هذه الأخبار أو ما يدور حولها وهي أخبار متجددة متبدلة تحتاج الى تعليق أو شرح يسير معها .

أزاء هذا كله ، وجد أدباء هذا الجيل أنهم لم يعودوا يملكون مجالاً واسعاً يستطيعون معه أن يقوموا بواجبهم الذي بدؤوا به ، فهناك سلطة تفهم الأدب على أنه غزل ومدح ورثاء ، وهناك أحزاب لها مكائنها وخطورتها بين الجماهير ، تريد من الأديب أن يكتب عن الطبقة العاملة والفلاح وجماهير الكادحين وإلا أعد الأديب خارجاً عن نطاق المجموع وانه أديب لذة ومتعة ، ومن ذلك ما قالته جريدة صوت الأهالي لسان حال الحزب الوطني الديمقراطي « السم يعد الأدب المراقبي كما كان بالأمس ، انعكاساً للذات وتعبيراً عن انفعالات نفسية خاصة ، أن الأدب

العراقي يتجه اليوم الى الارض ، وان الأديب الذي يطاول التحليق فوق التراب هو أديب ميت ، وان أدب الجنوح الى الغموض والاغراق في الخيال ، قد بدأ يتلاشى ، ان أدب الضباب وأدب اللذة في طريقهما الى الاختفاء نهائياً ، ان الأديب اليوم يدرك بعمق المسؤولية الملقاة على عاتقه ، عليه أن يسير دائماً في القافلة » (١٦) .

وقد ذهبت أحزاب أخرى الى أبعد من ذلك ، وخاصة صحف الأحزاب اليسارية ، فطالبت بأدب يخدم الطبقة العاملة ، وبتطبيق النظرية الماركسية على الأدب العراقي » ان وضع الفن في خدمة العمال والفلاحين والجنود والبناء الاشتراكي هو الاتجاه السياسي الوحيد للأدب » (١٧) .

وقد ذهبت أحزاب أخرى الى أبعد من ذلك ، وبخاصة صحف ثورة تموز وكان أصحابها يقفون بصلابة أمام كل أديب لا ينظر هذه النظرة وإلا وجهت اليه الف تهمة ، هم بهذا يحددون الأديب ويجعلونه غير حر في انتخاب موضوعه أو في طريقة معالجته للقضايا التي يراها هو لا ما يراها الآخرون ، وهم يفرضون الالتزام تفسيراً ضيقاً يدور في حلقة معينة ، ربما يكون سبباً في ضياع كثير من القيم الفنية ، كما انهم يقضون على الحرية التي هي ضرورة لازمة لكل عمل أدبي ، فالأدب ليس وسيلة عبث صبياني والا كان باستطاعة الأديب أن يبحث عن وسيلة أخرى للهو والعبث ، والأديب ليس افساناً قائماً بذاته لا يتأثر

(١٦) صوت الاهالي عدد ١٣٦ سنة ١٩٥٤ .

(١٧) اتحاد الشعب عدد ٥٤ سنة ١٩٦٠ .

بما حوله ، غلا أدب بدون وعي أو بلا غاية ، يقول سارتر وهو يسخر من هؤلاء المذنبين ينظرون الى الالتزام نظرة ضيقة « الفن لدى البعض هروب من الواقع ، ولدى البعض وسيلة من وسائل التغلب ، ولكن من المستطاع أن يهرب المرء من الواقع بالرهابية أو بالجنون أو بالموت ، كما يمكن التغلب بقوة السلاح ، فلماذا يختار المرء اذن الكتابة دون غيرها فيسجل كتابة مظاهر هربه من الحقيقة أو مواطن انتصاره ، ذلك أن وراء أهداف المؤلفين حرية اختيار مشتركة بينهم هي أعظم وأقرب الى رسالتهم من تلك الأهداف » (١٨) .

ليس هناك أديب لا يحمل رسالة ، ولو استطاع الانسان أن يعيش لوحده لأستطاع أن يكتب ما يريد ، ويبدو أن هذه الدعوات قد وجدت لها صدى عند كثير من الكتاب الجدد ، فافحست موجة الجيل الأول من الأدباء ، وتهاى الجو بفعل العوامل التي ذكرناها لجيل جديد ، فلم يعد الكاتب في هذه المرحلة الجديدة يفكر ويتأمل ، لأن المطبعة قادرة على أن تبتلع كل شيء ، وتريد كل شيء في وقته المحدد . ومن هنا صار كاتب الصحيفة الحديثة ، يروي الحوادث كما تقع ، ويعلق عليها من خلال نظرته أو نظرة من يكتب لهم . بل هو مطالب لأن يعلق عليها في الوقت الذي تقع فيه الأخبار ذاتها ، صار عليه أن يكتب بصرف النظر عن مدى أهمية ما يكتب ، لقد تحولت عملية الكتابة الى عملية تحرير ، ونشأ جيل من الصحفيين وجد أن من واجبه أن يتلاءم مع هذه

المرحلة الجديدة ، عليه أن يكتب بسرعة ، لكي يفي بحاجة المطبعة اليومية ، ليس مهما أن يكون أدبياً موهوباً له أسلوب مميز ، بل المهم أن يكون ارتجالياً سريعاً مع الحوادث ، يشبع نهم عامة قرائه الى ما يريدون ، لقد أصبحوا هم الذين يملون عليه أرادتهم ، أما القلة هؤلاء الذين يتطلبون شروطاً معينة في الفكر والاسلوب فهم ليسوا بذى قيمة للمصحفة الحديثة ، بل ان الصحيفة التي تلائم شروط هؤلاء الناس ستجد نفسها في يوم من الأيام بلا قراء ، فلا تستطيع بعد هذا أن تستمر على الصدور .

حينما أخذ على مجلة الغربال ابتعادها عن الأدب الصحيح والاسلوب الرزين كما كانوا يقولون ، ردت عليهم بما يعبر بصدق عن طبيعة العصر فقالت « بين اخواننا الأدباء من لم يختبروا الجمهور ولم يقفوا على عقليته ومستواه ، يلوموننا على نشر بعض المقالات التي يرونها لا تبلغ الدرجة المطلوبة من السمو في أسلوبها وموضوعاتها ، كنا من القائلين بهذا القول الى زمن قريب ، حيث وضح لنا فيه أكثر من وجه واحد للخطأ ، ان قراء الصحف مجموعة مختلفة المشارب والأذواق والمعرفة والعلم ، فليست حاجتهم واحدة ، ومن المؤكد أن أرقى ما يكتب ويقال لا يفيدهم كلهم ولا ينال اعجابهم جميعاً ، وصاحب الجريدة يقدم اليهم ما يرغبون فيه وما ينتفعون منه » (١٩) .

لقد تحولت الصحف اليومية في كثير من الأحيان الى عملية

تجارية ، وصارت تعتمد في مواردها الاقتصادية لا على القراء ممن لهم أذواق ومشارب خاصة فصعب بل على موارد أخرى أهمها الاعلان ، الذي أصبح جزءاً مهماً في حياتها وبقائها وصار هم الصحيفة ، لا أن تبحث عن هذا الكاتب أو ذاك ، وانما عن الاعلافات التي تكون مورداً هاماً من مواردها الاقتصادية •

ومن هنا دخل الصحافة كثير من أولئك الذين لا يملكون من آلتها شيئاً ، وأصبحت هيئة التحرير خليطاً غريباً حظهم من الموهبة قليل ، مجرد وجود رأسمال ، مع قليل من التجربة والخبرة في العمل الصحفي ، أو من أولئك الذين ترغبهم ظروفهم الخاصة على ولوج هذا العمل ، قال كاتب في مجلة الصياد وهو يسخر من هؤلاء المحررين الجدد الذين يتولون زمام الصحافة في جيلها الجديد « أما كيف دخلت ملاك الصحافة ، فذلك ما يطول شرحه ، أولهما حب الشهرة وأنا شاب ، وثانيهما أن السلطة سدت بوجهي أسباب الرزق المتصل بالدولة ، ولعدم وجود امكانيات مادية تمكّني من العمل بالأعمال الحرة ، واذاً كنت جيداً أني كنت أعمل في صحيفة كان يكتب مقالاتها الأستاذ زكي السلامي لقاء أجره لا تتجاوز الـ ٣٠٠ فلساً عن كل ثلاث مقالات يومية فما أن استلمت المقالات من كاتبها حتى وضعت تحت الأولى بقلم الكاتب المعروف فلان ، والثانية بقلم الأستاذ أبو كذا ، والثالثة بقلم الأدب الكبير فلتان ، وكلها ألقاب أسماء لصاحب الجريدة ودفعت بها الى المطبعة تحمل ثلاث مقالات باسم صاحبها ، وفي مرات عدة كنت محرراً

فيها كان أصحابها من أشباه الأميين ، يقولون لي بصراحة : أكتب كذا باسمي فأذيل المقالات بأسمهم » (٢٠) ، وهناك فترات تصدر فيها عشرات الصحف دفعة واحدة ، أيام تشكيل الوزارات أو البدء بالانتخابات أو عند حدوث ضيق اقتصادي ، أو عند تنسيق الموظفين وزيادة عدد المتخرجين عن حاجة البلاد ، وهناك الصحف الموسمية وهي صحف قصيرة الأجل يخرجها من تستغني عنهم الحكومة ليكونوا لساقاً عليها ، وفي كثير من الأحيان تصدر صحف يقصد أصحابها منها الحصول على وظيفة معينة أو كسب خاص .

هذه الصحف وأمثالها ليست وبالأعلى الكلمة فحسب ، بل هي وبال على الأخلاق كذلك ، فهي بالإضافة الى ما فيها من مهاترات شخصية تترك أثرها السيئ على الناس ، فانها عبء ثقيل على الصحف الجادة التي يتولى أمورها من خلقوا للصحافة والأدب ، أقل ما فيها أنها تمتص عدداً غير قليل من قرائها ، كما أنها بعملها هذا تمسح المجال للمبتدئين من قرائها بغية الاحتفاظ بهم كزبائن لشراء الجريدة فتشتر لهم ما يبعثونه اليها ، وبهذا تكون قد بذرت الغرور في الناشئين فيندفعون في هذا الاتجاه ويتركون القراءة والتحصيل ما داموا يجدون من ينشر كلامهم هذا ، يتعرض طه حسين لهذا فيقول « ومنهم من أخذ الأدب وسيلة للكسب فابتذل أدبه ابتذالاً » ، هذا أزهرى قد تعلم أوليات النحو واللغة وطرفاً من هذه العلوم التي تلقى في الأزهر ، ثم قرأ الصحف

والمجلات فخير إليه أنه يستطيع أن يحاكي ما فيها من النظم والنثر ، ثم جرب نفسه فانتهى إلى شيء من النثر ثم أرسله إلى صحيفة ، ونظر صاحبنا فإذا كلامه منشور مطبوع يباع في السوق يشك في أنه أدب وإن نصه خصة فمن الائتم أن يهملها فيندفع في الاتجاج ويتصرف عن التحصيل » (٢١) ولدينا في الصحافة العراقية نماذج غريبة في الشعر والنثر تدل على الدرجة التي انحطت إليها كثير من هذه الصحف ، من ذلك هذا الذي نشرته مجلة السينما البغدادية ، قال أحد قرائها :

يا سعاد انصيفيني بوصال وحسين
أنصيفيني حيث أني ذبت وجدا في سنين
وقال آخر :

نقطع الليل - تعالي - بالقبل فربيع الحب يا ليلي وصل
وغراشات الهوى من حولنا في رحيق الحب تسقينا العسل (٢٢)
وهناك نماذج كثيرة دون هذا المستوى ، قد يطول بنا الحديث إن نحن أكثرنا منها ، لتدل بالتالي على المدى الذي انحطرت إليه الصحافة في وقتنا هذا ، ذلك أن الصحافة بعجلتها التي لا تعرف التوقف ، وبنماذجها الهزيلة تلك ، أودت بكثير من القيم الفنية والجمالية التي هي من صميم العمل الأدبي ، فكتابها لهم يعودوا يجدون فسحة من الوقت يرجعون فيها إلى نفوسهم ، فتحاولت الصحافة إلى ما يشبه المخبز ،

(٢١) الأخاء الوطني - عدد ٧٦٠ سنة ١٩٣٤ .

(٢٢) مجلة السينما - عدد ٦٤ سنة ١٩٥٦ ص ١٠ .

الذي عليه أن يقدم الخبز للناس في كل يوم ، وهكذا هي الجريدة ، فجاء أدبها سهلاً لا يدل على معاناة حقيقية ، يفهم بسهولة ويسر فعود الناس على لون من الجمود والتبطل ، فلم يعودوا يقدرّون على قراءة شيء جاد يحتاج منهم الى شيء من التركيز والتأني ، وبخاصة هؤلاء الذين يعتمدون على الصحافة في غذائهم الفكري والروحي ، وتحول الكاتب الى مجرد آلة بفعل عمله اليومي المعتاد ، يتحرك حسب مشيئة من يحركه ، لا مشيئة النقد المبدع والخيال الخصب والفكر المتأمل . ولكن مع ذلك فاننا لا نستطيع ان نرّمى كل اللوم على الصحافة ذاتها فالعصر الحديث رغم تقدمه في مجال الماديات لم يهيئ للانسان ما ينبغي من رغد واطمئنان ، فحرم الانسان لذة التفكير والتمتع بالجمال وفقد الوقت الذي يستطيع معه ان يغذي عقله وقلبه ، وسبب له قلقاً فكرياً ونفسياً بسبب ركضه وراء حاجاته ومتطلباته التي لا تنقضي ، ومن هنا فان الاعصاب لم تعد تتحمل وطأة الجد والتفكير الذي يتطلب جهداً ، مجرد شيء خفيف يستطيع ان يعي ما فيه بسهولة ويسر ، ويبدو أن الصحافة كانت ذكية ، فقد عرفت هذه الناحية في انساننا الحديث ، فراحت تتلائم معه ، وتغريه بشتى أنواع المغريات التي تنسيه آلامه وتخفف عنه عناء يومه ، وربما كان هذا هو السبب في شيوع الصحف اللماعة وانتشارها أكثر من غيرها .

ازاء هذا كله ، صار من الصعوبة التفريق بين الفث والسمين ، فالقراء من ناحيتهم اعتادوا على هذه السهولة لانها توافق ميولهم ،

والحرر من ناحيته يجد نفسه مضطرا لأن يلائم أذواق قرائه ، فاعتاد هو الآخر على الكتابة السهلة التي تتفق ووقته الضيق ، فماتت عنده ملكة التفكير والابتكار ، ولدينا أمثلة كثيرة على كتاب امتنوا الصحافة ولم ينتجوا كتابا واحدا في حياتهم .

لقد خلقت الصحافة الى حد بعيد ما يشبه الفوضى في المقاييس والاحكام حتى صرنا لا نقرأ فيما نمر به من نقد ودراسات على رأيين يتفقان على السمو بعمل فني ، او يتفقان على الاسفاف في عمل آخر ، هذه الفوضى الجامحة أدت الى ضياع الرأي الحر وسط هذه الآراء المبسرة التي تقوم على ادعاء فارغ في حرية الرأي والذوق ، مع أنهم لا يملكون الآلة التي يستطيعون معها الحكم على نص أدبي بعينه ، ما داموا يعتمدون على الصحافة في غذائهم الفكري ، هذا الغذاء المجرد عن كثير من قيم الفن والجمال ، وانما هو جسم عار خال من الروح والدم ، يسوق المرحوم مصطفى الرافعي مثالا له مغزاه ، وهو يفرق بين الأدب الذي في الصحافة والأدب الذي هو خارج عن نطاقها فيقول « هذا خوان في مطعم كمطعم (الحاتي) مثلا عليه الشواء والملح والفلفل والكواميخ أصنافا مصنفة ، وآخر في وليمة عرس في قصر وعليه ألوانه وأزهاره ، ومن فوقه الأشعة ومن حوله الأشعة الاخرى ، ومن كل مضيئة في القلب بنور وجهها الجميل ، أترى السهولة كل الا في الأول ؟ وهل التعقيد كل التعقيد الا في الثاني ؟ ولكنه أي تعقيد؟

انه تعقيد ليس إلا وبه يضاف الجمال الى المنفعة» (٢٣) .

وهناك فرق بين أدب يخلو من الروح والفكر وآخر ينقلنا الى حيث الخلق والابداع ، لتتداعى فينا الافكار والمعاني ، والسبب في هذا كله انما يعود الى السرعة التي جنت على الفن والأدب وافقدتهما كثيرا من قيمهما الكامنة فيهما .

ان الصحافة بتعويدها الناس على كل سهل ، حرمت الكتاب من قراء كثيرين كان من الممكن ان يجدوا فيه كثيرا من غذائهم الفكري الذي لا يجدونه في الصحافة ، لقد فقد الكتاب أهميته وبقي محصورا في حلقة ضيقة على الأكثر بعد ان أصبح قراؤه مجهولين ، يقول طه حسين « ثم يعد الكتاب التسلية الوحيدة بين المثقفين فهناك الصحف والسينما والراديو وغيرها من الوسائل التي تجذب القاريء وتستهويه لأنها تمشى مع الكسل الطبيعي للانسان ، بينما يتطلب الكتاب جهدا للحصول عليه ، ومطالعة ، جهد من القاريء وجهد من الكاتب» (٢٤) ، لقد نازعت الصحافة في العصر الحديث الكتاب سلطانه واقتطعت جزءا عظيما من هذا السلطان ، حتى رأينا الكثيرين يستغنون بالصحافة عن الكتاب ، ذلك أن وقت القراءة محدود ينلق جله في مضطرب الحياة وأقله في القراءة ، ففي الوقت الذي عرفت فيه الصحافة كيف تجعل من نفسها ضرورة من ضرورات الحياة ، انحصر الكتاب في حلقة ضيقة

(٢٣) الراغمي - وحي القلم - ص ٢١٠ .

(٢٤) الهاتف - عدد ١٢٦١ سنة ١٩٥٢ .

لا توازي شيئا بالنسب لقراء الصحف التي عرفت كيف تغري القاريء وتستهويه ، متوسلة اليه بالوسائل المختلفة ، فتوعت ابوابها ، واجتهدت في ان تطرف القاريء كل يوم الى جانب الاحداث القرية والبعيدة ألوانا من المعرفة بلا جهد ولا تكلف .

ان مستقبل الفكر والثقافة لا يشران بالخير أمام طغيان هذه الصحف للسيارة ، ويبدو أن الصحافة بانحدارها الى هذا الدرك كانت سببا في تنبيه الناس الى الهوة التي تنحدر اليها الثقافة ، فصار هناك ما يشبه الرجوع الى الكتاب الذي بدأ يستعيد أهميته وقيمته في السنوات الأخيرة بعد أن تورطت الصحافة في هذه المنحدرات ، فكثير من المثقفين ، لم يعودوا يهتمون بالجريدة الا على أساس أنها مصدر من مصادر الأخبار فحسب ، أما أنها مصدر فكري فان كثيرا من الناس باتوا ينظرون اليها نظرة ازدراء واستخفاف ، وان الكتاب لا الجريدة هو الذي يستطيع أن يترك أثره في مدى جيل أو اكثر ، فاذا كان للجريدة التأثير القوي السريع فان للكتاب التأثير النافع البطيء (٢٥) ومتى ما زاحم الكتاب الجريدة يكون الأدب في هذه الحالة قد حصل على استقلاله عن الصحافة ، ومستقبل الاديب وخلوده انما يكون في يده ، فان اراد الشهرة فعليه ان يقصر ادبه على الصحافة ولكنها شهرة وقتية تزول بزوال ذلك اليوم ، وان اراد التأثير البعيد المدى في الأجيال اللاحقة فان عليه ان يفرغ للعلم والادب ليكون خالدا .

الباب الثالث

الفنون الادبية في الصحافة العراقية

الفصل الاول

المقال

المقال من الفنون الأدبية الحديثة الذي رافق ظهور الصحافة منذ وجودها ، حتى أصبح تقليدا متبعا لا تستطيع ان تستغني عنه صحيفة يغلب عليها جانب الرأي ، وهو في المراحل الأولى من حياتها يعد عنصرا أساسيا في بقائها ، بل ان الصحف في تلك المرحلة كانت تشتري لا على أساس ما فيها من اخبار وانما على أساس ما فيها من مقالات لهذا الكاتب أو ذاك ، ومن هنا كانت هذه المقالات أدبية في جوهرها يغلب عليها جانب الفن والصناعة اكثر من أي شيء آخر . اما تعريف المقال أو تحديده ، فقد لا يكون مهما من الناحية العلمية ، فهو في الوقت الذي ينظر اليه البعض على أنه رأي في قضية مهمة يصاغ بعبارات قوية ^(١) ، يراه الآخرون على أنه فن التعليق على هذه الاخبار

(١) توماس بيري - الصحافة اليوم - ترجمة مروان الجابري ص ٢٩٥ .

والمقال يطلق على الكتابات التي لا يدعي أصحابها التعمق في بحثها أو لإحاطة التامة في معالجة موضوعاتها ، فهو رأي شخصي أو فكرة معينة في موقف من المواقف ، يتخذ مادته من الواقع الانساني ، حتى لو بدا أنه لا يقصد الى ذلك ، لأن حياة الناس معين لا ينضب . والعراق بلد متطور نام ما يزال في بداية نهضته ، يخيم الجهل على اكثر من نصف ابنائه ، والمتعلمون فيه أشبه بخط بياني كثير المنحنيات يترك أثره أولاً وقبل كل شيء على الكاتب نفسه ، ذلك أن عملية الكتابة تتطلب بالضرورة عملية القراءة ، ومن هنا يجد الكاتب نفسه أمام أمرين ، فهو إما أن يكتب لقمة الهرم وهؤلاء قلة في بلد كالعراق ، وإما أن يكتب لعامة القراء مهما كان مستواهم ، ومن هنا ينشأ هذا التناقض الذي نراه بين الكتاب ، وهو تناقض أوجدته الظروف التي أدى إليها إنعدام التجانس بين الجماهير التي كان من الممكن - لو أنها كانت قريبة من بعضها - أن تكون الطرف الطبيعي والمكمل لعملية الكتابة ذاتها . ومن ثم كانت البلبلة التي تتعدى حدود الأدب ، فالزمرة الاولى بما تهيأ لها من ارسقراطية عقلية وفكرية تتطلب شروطا معينة في الأدب والا ما عدء أدبا ، والجماهير المتطلعة الى حياة أفضل تتطلب - بفعل ثقافتها المحدودة - شروطا معينة في الأدب أهمها السهولة والوضوح والا كان أدب ترف وخيال ، ذلك واقع لا يستطيع

أن يتناساه أحد ، كان من أثره ظهور ما يسمى بالأدب الخالد والأدب غير الخالد . ومع ذلك فالكتاب أنفسهم يختلفون في مواهبهم وقابلياتهم الفكرية والأدبية ، والكتابة الناجحة في الصحف لا تختلف عن غيرها ، ونحن لا نستطيع أن نأمر أديبا بعينه أن لا يفعل مع هذه الحوادث المتغيرة في عصره ، لأنها تعيش معه وتؤثر فيه ، والقراء بطبيعة الحال يميلون الى من يشاركونهم آراءهم ويدافع عنهم وعن حقوقهم ، ولهذا فلا معنى للخلود أو غير الخلود في الادب ، اذ المقروض في الأديب أن يعيش في عصره حيث هو وأن ينغس في هذا العصر « اننا لانخذ بالركض وراء الخلود ... بل لأتينا حاربنا بتفان في عصرنا ولأتينا أحببناه بتفان ، وقبلنا أن نفنى كلياً معه » (٣) .

ومن هنا كانت السياسة هي الجانب الذي أدخل فيه الكتاب وغلبوه على سائر الجوانب الأخرى ، ولا ضير في هذا إذا نظرنا الى المسألة من الناحية العملية ، فأوضاع العراق وظروفه الخاصة كانت تستدعي كل هذا الاهتمام ، ذلك ان الناس كافوا - وما زالوا - يرون أن في حل المشاكل السياسية حلاً لكثير من المشكلات الأخرى ، ومن هنا فانهم أولوها عنايتهم بالقدر الذي تستحقه .

ولعل أهم الجوانب السياسية التي أعطاها المقال أكثر ثقله وأهميته ، المسألة الوطنية واستقلال البلاد . فقد رافق هذا الجانب الصحافة العراقية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى الثورة

العراقية سنة ١٩٥٨ ، عندها بدأ يخف لغلبة موضوعات أخرى أوجدها ظروف الثورة الجديدة التي قضت على تبعية العراق لدول كبرى .

فالعلاقة بين العراق وبريطانيا لم تكن واضحة في يوم من الايام حتى بعد أن حصل العراق على استقلاله عقب ثورة العشرين ، ذلك أن بريطانيا كانت تريد أن يبقى العراق دولة مستقلة في الظاهر على أن يكون مرتبطا بمجلة سياستها في حقيقة الأمر ، هذا التناقض بين كون العراق دولة مستقلة وبين كونه مرتبطا بالسياسة البريطانية في حقيقة الامر كان علة العلل بالنسبة للعراقيين ولصحفه الوطنية التي كانت الحارس الامين لمصالحه : ولما رأى المحتلون أن الاحتلال العسكري والاستعمار المباشر لم يحقق مطامعهم لان عليهم ان يدفعوا ثمنا غاليا لهذا الاحتلال راحوا يبحثون عن صيغ جديدة أخرى تكفل لهم مطامعهم من جهة وتضفي صفة الاستقلال للبلاد التي يحكمونها من جهة أخرى ومن هنا كان الانتداب وكانت المعاهدات ، التي أصبحت الشغل الشاغل للصحافة العراقية إلى قبيل العقد السادس من هذا القرن فتراها تنقد وتمحص وتهدد وتحذر وتشجع مراعية بذلك الظروف المختلفة التي كانت ترافق ابرام هذه المعاهدات .

أما الحكومات العراقية التي تعاقبت على حكم البلاد خلال فترة الحكم الملكي فكانت صورا باهته وخيالات ليس إلا ، همها مجارة الحكم الأجنبي وتطمين رغباته واضفاء الصبغة الشرعية على المعاهدات والمراسيم التي تكبل العراقيين ، ولهذا ظلت بنود هذه المعاهدات في

طي الكتان حتى لا يعرفها الشعب ويثور عليها بل انها لم تكن تعلن إلا اثناء التصديق عليها . قالت جريدة دجلة عن المعاهدة الأولى « أمست المعاهدة العراقية عنقاء مغرب تذكر ولا ترى ، حتى بتنا نحلم بها كما يتحلم (كذا) المهموم ، وقد قيل غير مرة ان كل معاهدة تعقد بين دولة وأخرى لا بد من عرضها واعلانها على الرأي العام !

أصخرة أنا مالي لا تحركني هذي المدام ولا تلك الأغاريـد كل ما يقال عن معاهدتنا ، إنها موضوعة في بوتقة التمحيص ، غير اننا بقينا جاهلين وخاطبين في مهامها خبط عشواء في ليلة ظلماء » (٤) والحقيقة أن هذه المعاهدات كانت محكاً لرجال السياسة وصلابة الشعب ، لأنها تتعلق بمستقبل أمة تريد أن تحيا حياة حرة ، وفي كثير من الأحيان كانت الصحف تقف موقف المشجع والمحذر من تمادي الحكام في ضياع مستقبل هذا البلد ، فتذكروهم أن التاريخ سيقف لهم بالمرصاد ان هم تساهلوا مع الاستعمار وأعطوه ما يريد ، لننظر الى جريدة المفيد وما كانت تحس به من مسؤولية قبل أن تعقد هذه المعاهدة فتحت عنوان (هذا يوم الفصل أو الآن يعرف الصاق) قالت تحت الحكومة على أن تقف موقف الصلابة في سبيل قضية البلاد العادلة « النبوغ والبطولة والمجد والعظمة متمنى كل افسان شريف وغاية كل ذي نفس كبيرة ، والأوقات العصيبة والأزمات الحرجة خير واسطة لذوي المواهب السامية لادراك هذه الصفات والتحلي بها . . .

والأجيال القادمة ملقاة على عواتق وزراء الشعب الكرام ، سيما وقد أعلنت الصحف المحلية أنهم جلسوا مراراً عديدة لدرس مسائل مهمة تتعلق بحياة البلاد ومنها المعاهدة العراقية الانجليزية فيا أصحاب المعالي هذه بلادكم من أقصاها الى أقصاها عيون شاخصة وقلوب متطلعة تنتظر بفارغ الصبر ما ستأتونه بها ، وهي قبل كل شيء تريد أن تعيش كأمة حرة عزيزة الشأن منيعة الجانب ، نطلب من معاليكم رفض كل ما يمس شرفها ويحط من كرامتها ، كصديق يتمتع بكل ما يتمتع به صديقه ، نريدها معاهدة شريفة ، يعترف بها قبل كل شيء بالاستقلال التام المجرد عن كل قيد أو شرط ، ها هي واقفة تنتظر خرواجكم من مجلسكم الموقر كظافرين محررين لنهتف لمعاليكم ولنقم لكم تماثيل الاعجاب والتقدير ، وهذه ارواح الأجداد مرفرفة فوق سماء ذلك النادي الذي تضمكم جدرانها ، ترقب ما ستخطه أناملكم الكريمة في شأن أبنائكم ، فلا تبخلوا عليها وعلى انفسكم بالحياة الحرة الشريفة وأتم المسؤولون أمام الله والأمة والتاريخ » (٥) .

ويتحول أسلوب هذه الجريدة من محذر ومشجع الى لهجة فيها الكثير من التهديد والوعيد والحث على الثورة ، بل راحت تتلمس السبل التي تبرر لها هذا الرفض وتحث الشعب على عدم الاعتراف بالأمر الواقع لأن هذه المعاهدة لم تعقد إلا بين أفراد لا يمثلون الشعب وبين حكومة استعمارية همها امتصاص ثروات البلاد فقالت تحت عنوان (افتحوا عيونكم أو قصاصة ورق) ومما جاء فيه « لا حكم اليوم في

أنظار الشعوب للمعاهدات والمواثيق اذا لم تبين على أساس المصالح المتبادلة بين المتعاقدين ، وهي اذا طبقت اليوم فلن تطبق غداً وقد عرفت الحكومات الرشيدة أن المعاهدات يجب أن تعقد مع قلوب الشعوب لا مع أفراد لا يمثلون إلا أنفسهم ولا يتكلمون إلا عن معتقداتهم اذا كانت لهم معتقدات خاصة بهم » (٦) .

تعرض الشعب على التمرد على هذه المعاهدة أو المعاهدات التي تليها ذلك أن الحكومة البريطانية كانت هي الاخرى تتطور مع الزمن بحثاً عن صيغ جديدة تلائم روح العصر على أن لا تفقد من مصالحها شيئاً وهكذا كانت المعاهدات تتلاحق وليس فيها غير تكميل الشعب العراقي بمزيد من القيود ، ذلك أن عاقدى هذه المعاهدات كانوا هم الذين يسيطرون على الأوضاع في البلاد ، وهم الذين عقدوا المعاهدة الأولى والثانية ومن هنا تعرضوا للنقمة الشعب وصحافته ، قال الاستاذ فهمي المدرس وهو يعلق على المعاهدة التي عقدت خلال العقد الرابع من هذا القرن « ان المعاهدة الجديدة قد جعلت العراق في قبضة الأجنبي من الوجهات السياسية والادارية والاقتصادية والقضائية وقد حملته ديوناً على أنقاض بالية ، نحن في غنى عنها ، وعرضته لتوتر العلاقات بينه وبين جيرانه وألزمته جميع ما يملك اذا اقتضت مصلحة الاجنبي الحرب مع أية دولة شاء . وخلدت الاحتلال وفصلت العراق عن الاقطار العربية . أما الاستقلال الذي يبشرون به فمعناه الصحيح في هذه

المعاهدة استقلال الاجنبي في العراق ، فاذا ابرمها المجلس النيابي
— والعياذ بالله — فهو مسئول أمام الله والتاريخ والذمة » (٧) .

وكان بطل هذه المعاهدات هو السيد فوري السعيد الذي ظل
يسير سياسة العراق منذ الحكم الأهلي حتى ثورة تموز ، ومن هنا كان
اسمه مادة دسمة للصحافة العراقية بأعتبره المسئول الاول عن كثير
مما يصيب العراق من كوارث « ثلاثون سنة كاملة انقضت على اشتراك
السعيد في الحكم وبلغ عدد الوزارات التي ترأسها ثلاث عشرة وزارة ،
نشر لكل منها منهاجاً وزارياً مليئاً بالعهود والوعود التي لم يتحقق منها
إلا ما كان مستوراً وراءها من منح الامتيازات وعقدالاتفاقيات والمعاهدات
التي كبلت البلاد بقيود الاستعمار وربطت المملكة بعجلة الامبراطورية .
لقد تغلغل النفوذ البريطاني بفعل هذه السياسة الخرقاء والثقة العمياء
بالانجليز الى جذور الكيان الاجتماعي لهذه المملكة فأفسد عقائدها
وفرق وحدة شعبها ونهدم أركان اقتصادياتها لذلك لم تبق لوعود السعيد
قيمة فقد ملها الشعب وسئما » (٨) .

ومن الطبيعي أن يكون الاستعمار الانكليزي هدفاً من أهداف
الصحافة بأعتبره سبباً في كثير من المشاكل التي مرت بها البلاد ، فهم
الذين جزؤا البلاد العربية الى دول متنافرة وهم الذين أوجدوا الصهيونية
في قلب الوطن العربي وهم الذين نهبوا خيرات البلاد ، مواقف شتى

(٧) العالم العربي عدد ٢٠٢٥ سنة ١٩٣٠ .

(٨) اليقظة عدد ١٥٧١ سنة ١٩٥٢ .

لا يمكن أن تمر دون أن تترك أثراً على الكتاب وهم غير ملومين أبداً حينما يتناولون هذه الأحداث لأنها تعد جزءاً من حياتهم وحياة شعبهم ، بل الغرابة كل الغرابة ان يتركوها تمر دون أن يعلقوا عليها بشيء ، موضوعات ملحة تعيش معهم وتقض مضاجعهم ، وهي فوق هذا وذاك موضوعات انسانية لها علاقة ماسة بالعصر ، وحينما يتحدث عنها الكاتب فهو إنما يتحدث في الوقت ذاته عن نفسه ، انه يعرف جيداً أن كلماته هذه ستتحول الى فعل ، وبمعنى أدق ان الكاتب حينما يتحدث عن المظالم فإنه إنما يتحدث عنها لكي يحييها ويثبته عليها حتى يستطيع الشعب أن يتلمس سبيله أمامها كما يقول سارتر .

وان اعجابنا بهذا الكاتب أو ذاك لأنه عرف كيف جعلنا نصب وثور ونسخط ونعجب في سبيل تغيير ما يمكن تغييره ، ومن المحتمل جداً أنه لولا هذه الكتابات لبقى الناس حيث هم ، يرضون بالظلم أو بالآخرى لا يحسون أن هناك ظلماً ، وحينئذ فلا حاجة للتغيير ولهذا فلا مجال لأن نقض من قدر هؤلاء الكتاب باعتبارهم كتاب مقالات وحوادث متغيرة . أن على الكاتب أن يعي دوره في مجتمع يعج بالمظالم والتناقضات التي تأخذ بخناق أبناءه وتجعل منهم عبيداً لسلطة أجنبية ، وليس من المعقول أبداً أن يتلمهى الأدباء بما سوى ذلك بحجة أنهم أدباء خالدون فينغمسون في أدب المتعة واللذة والأساطير ، الاديب الخالد هو النبي يفنى في عصره وهو الذي يجب عصره ويكشف للآخرين الجوانب المختلفة من حياتهم ليحفزهم على التغيير . ان الجماهير التي يحيا بينها

الكاتب تحاصره وتطوقه وتصبح متطلباتها الآمرة الناهية ، فالكاتب في بلاد مستعمرة لا يستطيع إلا أن يحارب الاستعمار ويحارب الظلم » والكاتب الأسود لا يستطيع أن يكتب إلا عن سود وبيض منظور اليهم بأعين السود ، هل نستطيع ولو للحظة ان نفترض أنه يقبل بأن يقضي حياته في تأمل الحق والجمال والخير الابدي بينما تسعين بالمائة من الزنوج محرومين عملياً من حق الانتخاب ، وعلى هذا اذا ما اكتشف كاتب أسود من الولايات المتحدة في نفسه ميلاً لأن يكون كاتباً فانه يكشف في الوقت تفصل موضوعه « ^(٩) وعلى هذا فانه من غير الممكن أن لا تستأثر هذه الحوادث والتناقضات الغريبة التي يتعرض لها شعبه انتباه الكاتب والموضوعات التي يتطرق اليها . انه مرغم — عن رضى — على محاربة هذه السياسة الاستعمارية لأنها موجهة ضده وضد مواطنيه وسيبقى يلح على هذه الناحية ما دامت هذه السياسة حيث هي ، وما دام يملك قابلية خاصة — اكثر من غيره — على كشف هذه التناقضات التي يحياها ، فهو لا يستطيع مثلاً أن ينسى دور الافكليز في احتلال بلاده ونهب خيراتها ، وهو مثلاً لا يستطيع ان ينسى تلك الوعود الخالصة التي أعدها للعرب ، لتتحول بعد ذلك الى تجزئة عملية تن من البلاد » وعدتنا بريطانيا بالحرية وعوداً كثيرة واعترفت باستقلالنا في زمن الشدة ووقت الكارثة ، فلما نجت منها موفورة الكرامة مثقلة بالعنائم والأسلاب فاذا بتلك الوعود أقوال واذا بهاتيك المواثيق قصاصات

ورق ... انقضت الشهور وتصرمت السنون ولم نشاهد منها غير مضاعفة القيود والأصفاد » (١٠) .

فالكاتب لا يستطيع أن يقف مكتوف الايدي امام هذه الحوادث التي يراها ويحس بها فهو مغرم بالحرية أنى وجدها ، يبيحها لنفسه كما يبيحها الآخرين ، وهو في الوقت الذي يناضل ويكافح من أجل بلاده انما يناضل ويكافح من أجل الآخرين ، وهناك الكثير من المواقف التي تغريه وتجلب انتباهه ، أوضاع بلاده المؤلمة ، القوة الخارجية التي تنهب قوت مواطنيه ، ثروات بلاده المسلوقة التي تعد السبب المباشر لكثير من مشاكل البلاد . النفط هذا الذهب الاسود الذي جر عليه البلاء وكان من الممكن ان يكون وسيلة ثراء ونمو نحو حياة أفضل .

لقد كان النفط سببا في كل المآسي التي وقع تحتها الشعب العراقي فبريطانيا في سبيل ان تحكم قبضتها على هذا المورد الاقتصادي الضخم راحت تسلك مختلف السبل التي تسهل لها عملية الاستغلال ، والشعب من فاحيته يعرف جيدا أن خيرات بلاده تذهب للاجنبي ولكن لا حول له ولا قوة الا هذه الكلمات التي تعبر عنه ، قالت جريدة العالم العربي « الطوفان أنواع وأشكال وخطر تلك الافواع والاشكال ما قد جرى وما يزال يجري في بلادنا ومن ذلك طوفان نوح عليه السلام ... ومن ذلك طوفان النفط في بابا كركر ، اذ فاضت السيول الزيتية وأوشكت أن تغرق البلاد وهذا الطوفان السعيد فيه الذهب والغني ولكن لا أذكره

لان كنوزه وان كانت في العراق فهي في أيدي الغير » (١١) .
شعور بالمسؤولية يملئها على الكاتب واقع بلاده وما فيها من
مصائب وأهوال ، حينما تتحول خيراتہ الى أيادي هؤلاء الاجانب .
واذا كانت الأوضاع العامة غير ملائمة لارجاع الحقوق فلا أقل
من ان تظهر الصحافة شعور الرأي العام، وهكذا كان، لقد تحولت الصحافة
الى سوط يلهب ظهور المستعمرين ، والسائرين في ركابهم ، فتراها
تحت وتثور في سبيل أن يعي الشعب دوره ويغير من واقعه المرير
« فقطك ايها الشعب ! ماذا ؟ فقطك المنهوب خيراتہ أرضك الخضراء ،
حقوقك وحررتك ، كل أسباب الحياة ينهبها الانكليز . ويعاونهم
في ذلك ويبارك لصوصيتهم ويعترف بشرعيتها ، هؤلاء الذين يحكمونك
هؤلاء الذين يتبنون الكراسي الوثيرة يوم ان مدوا أيديهم الى
الاستعمار وصافحوا يده الملوثة بدمائك ، الا تراهم اليوم قد جاؤا
لك باتفاقية جديدة ليوغمها هؤلاء الذين يزعمون انهم يمثلونك ، انهم
يغنون ان يكبلوك بطوق حديدي من أطواق الاستعمار ليجعلوك تعترف
بشرعية هذه السرقات : سرقات الاستعمار لنفطك وبالتالي لحررتك
وحقوقك وأرضك ارفع صوتك النبيل لتهز هؤلاء الذين يتصدرون
الحكم ينفخون صدورهم كالطواويس اثبت لهم انك مازلت يقظا » (٢١) .
تلك هي مكانة المقال في المجال الوطني وهو مجال واسع استمر

(١١) جريدة العالم العربي عدد ١٥٧٧ سنة ١٩٢٩ .

(١٢) لواء الاستقلال عدد ١٥٠٢ سنة ١٩٥٢ .

فترة طويلة وعبر في الكتاب باخلاص عن أهم القضايا التي كانت تشغل بال الشعب ، ومن هنا راح الكتاب يحثون ويهجمون ، فغلب الطابع الحماسي على كثير مما كتبوا ، يتحرى الكاتب العلل والاسباب التي تضعف مكانة خصمه لتجعله أزل من الحجج والبراهين ، تغلب فيه الناحية العاطفية التي يقصد اليها لكي يكسب اكبر عدد ممكن من القراء الى جانبه ، ولهذا تراه يسخر ويتهم ويثور حاثا على الثورة وداعيا لها .

والنقطة الاخرى التي شغلت المقال في الصحافة العراقية هي مسألة الحرية والحياة الديمقراطية داخل البلاد ، وهي مسألة متشعبة الجوانب تمثل نظرة الرأي العام الى النظام القائم برمته ، وعلاقة الشعب بالحكومة وموقف الاحزاب من قضية الحرية وعلاقة هذه الاحزاب مع بعضها .

وأول ظاهرة نلاحظها في هذا المجال حب الفرد العراقي وولعه بالسياسة ، وهي ظاهرة يندر أن تجدها في شعب آخر على هذا المستوى فالحديث فيها يأخذ اكثر وقته ، وقلما يجتمع اثنان في مجلس الا وحديثهما السياسة ، فتراه وهو جالس في مكانه يسقط وزارة ويأتي بأخرى ويتحرى فواقصها حتى اذا لم يجدها استطاع أن يتخيلها ، يوزع ألقاب الخيانة والوطنية على من يريد ، بصرف النظر عن امكانياته الثقافية التي تساعده في تكوين وجهة نظر فيما يقول ، وقد انعكس صدى هذا كله على الصحافة حتى تحولت في كثير من الاحيان الى

مجرد بوق تردد فيه هذه الآراء بغية اشباع نهم قرائها الى هذه الرغبة « تغلب النزعات السياسية في العراق على الخلق الاجتماعي والاتجاهات الاخرى ... والعراقيون متجهون بكليتهم الى السياسة حتى ليصعب عليك ان تنتزع هذا الميل من عقيدة الناس . واعجب ما في هذا البلد أن أهله كلهم يعملون في السياسة وليس في بلد من بلدان الارض شعب كالشعب العراقي مندفع بهذا التيار » (١٣) وهذه حقيقة تبدو واضحة ، لكل من خالط العامة وجلس في فوايدهم وسار في الشارع أو خالط الطلاب في مدارسهم ، اننا لا ننكر أن العراق مر بظروف حكم قسري سواء في اثناء حكم الاحتلال أو أبان فترة الحكم الملكي ، فكان هذا الحكم يكمم أفواه الناس ويذيف ارادتهم فيضطرون — في سبيل التعبير عن أنفسهم — الى سلوك هذه السبل حتى تحول الامر الى ما يشبه العادة .

وقد أثرت هذه الظواهر على الحياة العامة اذ كومت لديهم روح السلبية ودفعتهم الى التشكيك بكل حكومة وبكل أعمالها حتى ولو كان في هذه الاعمال ما يفيد الناس في حياتهم الاعتيادية . « نحن يا سبحان الله كلنا سياسيون موهوبون ودهاقنة مطبوعون نرضع السياسة مع الحليب ونعالجها من المهد وأنت صاعد لا فرق في ذلك بين العالم الفاهم والامي الجاهل ، ولا تمييز بين حمال أو بقال ... » (١٤) .

(١٣) الاستقلال عدد ٤١٩٥ سنة ١٩٤٨ .

(١٤) الزمان عدد ٨٣٠ سنة ١٩٤٠ .

وقد لا يكون في ذلك ضير لو اتخذت المسألة وجهة اطلاع ثقافي أو تكوين وجهة نظر سياسية ، ولكن الامر قد يخرج الى ابعد من هذا مما يؤدي الى جو من الريبة يحد من نشاط أية حكومة حينما تريد أن تقوم بشماريع جادة ، وكثيرا ما لقيت هذه السلبية عنتا من الحكومة اذ ترى أن أكثر أعمالها مجال شك وريبة لدى الرأي العام . حينما زار الاستاذ أمين الريحاني العراق لاحظ هذه الظاهرة بوضوح وبخاصة على الصحف العراقية فقال يعلق على صدى خطبته التي أذاعها من دار الاذاعة العراقية « ... على أن الخطيب ما نجا من صحافة بغداد ، فقد تناولت الخطبة بل تلقفتها بمخالب النقد ومزقتها إربا إربا ثم مزقت منها العظم وتلمظت بالمرارة ، فقال أحد كتبة المعارضة ، ان الخطيب من الثرثارين وقال آخر : انه يتزلف الملك وانه من المستوزرين ، وغس الآخر قلمه في دواة التهكم والظرف : ان الخطيب لمن ذوي الآذان الطويلة . وقال آخر : انه مصاب بداء التفائل . فاستنتجت من هذا أن المعارضة أي الاحزاب المعارضة للحكومة والانجليز حية ترزق ولكنها تعارض مبدئيا على طول الخط ولا تبالي بمال يقال في مواقفها ، هي المعارضة ولا حرج ، فقد نصبت مدافعها في أدغال الصحافة ووراء اكमत الاحزاب وشرعت تطلقها في كل ناحية من القصر الى شاطيء الكرخ على المنسوب على الملك على الوزارة على البرلمان وحتى على المعرض لأنه من أعمال الحكومة » (١٥) .

ولعل عبارته الاخيرة « وحتى على المعرض لأنه من أعمال الحكومة » خير ما يعكس لنا الروح السلبية التي اعتادها شعبنا في العراق ، صحيح أن المعارضة ضرورة حتمية لكل نظام ديمقراطي ، لكنها يجب أن تستند على أسس واقعية معقولة تجدها في أعمال الحكومات المتعاقبة وتتحرى عنها دون أن تعمم في احكامها ، حتى ليحس القاريء أن هذه المعارضة انما جاءت لأجل المعارضة فحسب ، وهذا ما نراه في كثير من مقالات الصحف كقول جريدة النهضة العراقية « اغتبنوا سذاجة الشعب وحسن نيته وامنوا فقمته وغضبه ، وراحوا يمارون ويعلمعون ، واطلقوا في جو هاديء يمثلون أدوارهم والأعيهم ، فهم في سبيلهم سائرون وعما يرضى الشعب أو يغيضه لاهون ، ألتهتم الكراسي والمناصب ، وأنستهم زينتها واجبههم ، فأمسوا لا يهمهم غير حفظها وقد هاموا بها فتركوا الجبل على الغارب ، فأصبحنا نرى منهم كل غريب ، فام الدهر عنهم قليلا والدهر ذو غير ، وساعدتهم الظروف والأيام وآمنوا سوء المنقلب فراحوا يتسامون وانطلقوا يعملون بما تمليه عليهم أهواؤهم وتستحسنه شهواتهم ... » (١٦) .

كلام عام من الممكن أن يقوله أي معارض لأية حكومة لا يريدنا فليس فيه اثبات مادي واحد يمكن ان يعتمد عليه في ادانة الحكومة ، ويبدو أن صحف الحكومة كانت تعرف جيدا أساليب المعارضة ، رغم قلة هذه الصحف وانحصارها ، قال كاتب في جريدة الحكومة تحت

عنوان (هذا عيب ولكنهم لا يخجلون) وما جاء فيه « المعارضة للحق والباطل ، هذا مرض مزمن يلزم أصحاب النفوس الصغيرة ليتخذوا ذلك سلما للظهور وواسطة من وسائل الشهرة الكاذبة ولكنه مرض قتال يند صاحبه ويلقي به في زوايا الاهمال والافتقار ، لأن البشرية المهذبة تقصي عنها من اعتاد الكذب وطمس الحقائق واستغل العواطف الساذجة البريئة واللعب على النفوس البسيطة ، نعم هذه عيوب ومثالب يجب أن يترفع المرء عن ملازمة اطرافها فضلا عن الانغماس بحماتها ، والاصطباغ بصباغها الأسود هذه مخازر ومخاز مشينة ولكنهم لا يخجلون منها ومن الاتصاف بها وخاصة بعد أن اصبحت ملائمة لأسمائهم ومن غرائز نفوسهم وطباع أرواحهم ، قد يكذب المرء على الغائب وقد يسعى الى طمس الحقائق ولكن لم يدر بخلدنا أن الحطة أخذت من نفوسهم مأخذا عظيما حتى جعلتهم يفترون على الحاضر وعلى الحاضر الملموس » (١٧) .

أسلوب ادبي رائع في المقال النزالي ، يرد فيه كاتبه على هؤلاء المعارضين الذين لا يهتمون إلا بالمعارضة فصعب ، مع أن الحكومات المراقية المتعاقبة في العهد الملكي كانت كثيرة الهفوات ، التي يستطيع أن يدخل منها المعارضون للحكم .

ولكن مع هذا فقد كانت الصحافة المراقية الحارس الأمين في التعبير عن رأي الشعب وتعلقه بالنظام الديمقراطي ، دافعت عن هذا

النظام بكل قوة منذ تشكيل الدولة العراقية وتنصيب فيصل ملكاً على العراق ، فالطريقة التي عين فيها هذا الملك كانت تحمل في طياتها عوامل الشك والريبة ، مما أدى بالصحافة العراقية التي صدرت في بداية تكوين الدولة أن تقف موقفاً صريحاً ازاء ما يراد بالشعب ، فدافعت عن حقوقه واشترطت وجود صفات معينة في الملك الذي يراد منه حكم البلاد ، قالت جريدة دجلة « كل غايتنا التي نرمي اليها هي استقلال البلاد استقلالاً تاماً وتأسيس حكومة دستورية ذات ملك مقيد بقوانين وأفظمة توافق روح البلاد وتلائم مصلحة الشعب وتألّف مجلس تشريعي له سلطة واسعة يؤلّف ممن يعتمد عليهم الشعب ، هذا ما نرمي اليه في اصدار هذه الجريدة » (١٨) وقد استمرت هذه الجريدة في دفاعها عن حرية الشعب حتى بعد تنصيب فيصل ملكاً على العراق ، فتعرض صاحبها بسبب صراحته هذه الى مضايقات كثيرة من العائلة المالكة أو من الصحف الموالية لهم ، فاضطر أن يخرج عن اترافه في أحد أعداد جريدته فقال تحت عنوان « الحر ممتحن بأولاد الزنا » جاء فيه « أخذ بعض من لا خلاق لهم يذيعون بين الأمة الاشاعات الكاذبة ويختلقون الاكاذيب التي لا فصيح لها من الحقيقة فيقولون تارة ان دجلة ترمي الى فكرة جمهورية وأخرى انها تريد تنويع عراقي على البلاد إنا نريد ملكاً مقيداً بدستور ، نريد أن نقيد العرش وصاحب العرش بقيود تمنعه من التناول على الأمة واغتصاب حقوقها ، نريد أن نقيده قبل أن يستبد

بالشعب ، نريد أن تكون بلاد العراق حرة لا يحكم فيها غير القانون ولا يهنا اسم الملك ... انا نعلن منذ الآن أن كل ملك يتوج بغير رأي الأمة فهو ملك غير مشروع . وليعرف المغالون أننا لا يهنا ارضاء الأشخاص بل كل ما نريد ، خدمة البلاد العراقية ، وانا اذا طلبنا ملكاً للعراق إنما نطلبه حباً بالاستقلال لا حباً بذات الملك وللأمة العراقية الحرية المطلقة في انتخاب من تريد اجلاسه على العرش » (١٩) وهي صراحة عز نظيرها في الصحافة العراقية ، حتى لقد حصل فعلاً ما توقعته الصحافة العراقية اذ سرعان ما تحول الملك الى حاكم دكتاتوري ينفذ مشيئة الاستعمار الانكليزي في كل ما يطلبه منه .

وحينما تقوم الأحزاب في البلاد تتحمل صحافتها هذه الأعباء بأمانة رغم ما كان يحدث بين صحفها من مهاترات ، ورغم النقص البارز في تصرفات هذه الأحزاب . ويرجع اشتغال العراقيين بالأحزاب الى ما قبل الحرب العالمية الأولى حينما انضم قهر منهم الى التنظيمات السرية المختلفة التي كانت تقوم في الأستانة ، وفي خلال فترة الاحتلال الاجنبي نشأت أحزاب سرية كان لها دور يذكر في بث روح الحماس بين سكان المدن تأييداً للشورة العراقية بغية تخليص البلاد من سيطرة المحتلين ، من ذلك جمعية حرس الاستقلال وجمعية الشبيبة اللتان اندمجتا معاً (٢٠) . وكانت العلاقة بين هذا الحزب الموحد وبين حزب آخر يدعى بحزب العهد

(١٩) دجلة عدد ٩ سنة ١٩٢١ .

(٢٠) انظر الحسني - الثورة العراقية الكبرى - ص ٥١ .

العراقي والذبي كان صدى للشورة العربية الكبرى علاقة توتر ، مع انهما لا يزالان في بداية الطريق وأمام خطر واحد ، وبهذا تكون هذه الأحزاب قد بذرت البذرة الأولى للشقاق والاختلاف يقول الدكتور البصير « إنها كانت سيئة جداً فظالما تبادل رجال الحزبين سب بعضهم ، حتى ان الطمن في الأخلاق والمبادئ السياسية صار أمراً اعتيادياً وقد أضر ذلك بالبلاد » (٢١) .

وبعد تأسيس الحكم الأهلي ظهرت رغبة واضحة في تشكيل الاحزاب ، وصدر مرسوم بذلك وتشكلت الاحزاب ولم تمض سوى فترة قصيرة حتى حصل المندوب السامي الأحزاب المعارضة وبقي حزب الحكومة يعمل لوحده « ماكاد التتويج يتم حتى اشتدت مطالب الجمهور للأحزاب فتم انشاء ثلاثة أحزاب كان اثنان منها معارضان والثالث يؤيد الحكومة النقيية ويميل الى مصانعة دار الانداب » (٢٢) .

والظاهر أن هذين الحزبين المعارضين قد قاما بواجبهما في انتقاد الانتداب وأعمال الحكومة ، حتى اذا غادر الملك البلاد بسبب مرضه حل الحاكم الانكليزي هذين الحزبين وبقي حزب الحكومة في الميدان (٢٣) ، ومن خلال دراستنا للتاريخ هذه الأحزاب لاحظنا أنها كانت تقوم على

(٢١) الدكتور محمد مهدي البصير - تاريخ القضية العراقية

ص ١٤٥ .

(٢٢) - البزاز - العراق من الاحتلال الى الانتداب - ص ٦٥ .

(٢٣) انظر مجلة الفري عدد ١٢ ، ١٣ سنة ١٩٤٦ .

الأفراد لا على المباديء في كثير من الأحيان ، وأن مبادئها كانت متشابهة الى حد بعيد ، يكثر تأليفها وقت تشكيل الوزارة ، فهي حكومية حينما يكون رئيسها في الحكم حتى اذا أصبح خارج الحكم تحول الى معارض ، أو حل حزبه على الأكثر ، ومن ثم يبدأ أعضاء الحزب الآخرون بالانضمام الى الأحزاب الأخرى وهكذا . وأحزاب هذه طبيعتها وهؤلاء أعضاءوها لا شك أنها تحصل في طياتها الروح الفردية وتجد فيها مجالاً للمهاترات الشخصية كما أن كثرتها ساعدت الى حد ما على تقسيم الشعب العراقي ، فظل يثن من التفرقة حتى هذه اللحظة ، ليس هذا فحسب بل اتنا لنلاحظ اختلافاً داخل الحزب الواحد ، فالحزب الوطني الديمقراطي وهو من الأحزاب المهمة في العراق بعد الحرب العالمية الثانية كان يحمل في داخله أسباب انقسامه « الحزب الوطني الديمقراطي هو أقوى حزب بتنظيمه ، لأنه يملك الجذور التي غرست منذ زمن غير قريب ، غرسها وجماعته ، وهو البقية الباقية من الحزب الشيوعي العراقي السري ، وكان من الممكن أن يكون مركز الحزب غير مركزه الحالي لولا أن لأنه أنا في بطبعه ومن أخطاء الحزب الشيوعية أنه لم يستطع أن يكون لا من اليمين ولا من اليسار ، فان اليساريين يتهمونهم بالبرجوازية وانه ضد اليسار ، أما اليمين فيقسمون أغلظ الإيمان على شيوعية الحزب ، والحزب نفسه يؤيد هذين الرأيين المتناقضين ، فرئيسه وبعض كبار أنصاره من الرأسماليين الاستغلايين أما البقية فمن الشيوعيين وعلى رأسهم أما حزب الشعب

فهو كتلة عائلية انفصلت عن الجادرجي فأست حزباً ثم قفص الناس عنه بعد معرفته فلم يبق له من الانفصار غير الاقرباء » (٢٤) ورغم ما في هذه المقالة من سخرية ، إلا أنها مع ذلك تعكس طبيعة هذه الاحزاب والانقسامات التي تقوم بين أعضائها ، وربما كان هذا هو السبب الذي أدى الى نجاح الأحزاب السرية في العراق ، حينما رأى الناس أن الأحزاب العلنية غير قادرة على سد هذه الثغرة في تكوينها ، لقد كانت هذه الأحزاب مصدر اثاره في كثير من الصحف ، تناولت تصرفات أصحابها وسرعة انتقالهم من حزب لآخر سعيًا وراء كسب شخصي أو علاقات خاصة ، قال كاتب في مجلة العالم المصور تحت عنوان : (مشاهدات بطل) جاء فيه « وما أن وصلت الفقرة الثانية من الاحتفال حتى انتقلت عيني الى مشهد غريب ، وتوترت شعرات جسمي . أتعلم لماذا ؟ انها خطبة لعبد الرزاق الرويشدي عضو الهيئة المركزية ، عبد الرزاق الرويشدي بالأمس كان فائب رئيس حزب الأمة ، وما هي إلا ليلة وضحاها حتى أصبح الأبندي عضو الهيئة المركزية في حزب الامة ، سبحان مبدل القلوب والاحوال ، ثم هدأت ثورتي حين تذكرت أمراً شبيهاً بهذه المسألة ، وهو أن والدتي المرحومة كان لها ثوب أبيض أكل عليه الزمان وشرب ، فأرسلته الى ملا جاسم الصباغ في اليوم التالي فأتمى الثوب بلون أسود قاتم لا أثر فيه للبياض ، وأمثال هذه التبدلات والتغيرات المفجائية بين ليلة وضحاها كثيرة فلا يجوز أن يقال أن

الرويشدي أتى عملاً منكراً ، لا ، لا بل يجب أن يقال : انه رجل كيس عرف من أين تؤكل الكتف » (٢٥) وغير هذا الكثير ، ولهذا كانت علاقاتها ببعضها علاقة توتر وعداء ، يتجلى ذلك في هذه المقالات النزالية التي كانت تقوم بينها ، يبحث فيها صاحبها عن كل نقطة ضعف أتى وجدها ، فالعضو الذي يكون في يوم من الأيام في حزب ما ثم ينتقل بعد فترة الى حزب آخر سيكون حرباً على حزبه الأول وبخاصة وهو يعرف من أسرار ما يجعله قادراً على تعريضه أمام الآخرين .

لقد وصات بعض هذه المقالات الى درجة من الحطّة والسخف يحس معها القاريء بالمرارة وهو يقرأ هذه البذاءات الخاصة التي تمس الأعراض وكرامات البشرية ، انها تسييء الى الاخلاق العامة فضلاً عن اساءتها للأحزاب والسياسة ، كتب محرر في جريدة الاقتصاد الدستوري يتعرض للحزب آخر هو حزب الاستقلال تحت عنوان (حزب منسوخ) جاء فيه ما يلي « في كل مجتمع مهما تزمّت بهذه القيم الاخلاقية وتشدد في حرمتها وأنزل بالخارجين عليها أقسى العذاب وأشدّ الاهمال نجد نفراً منهم قد أزل وأسف وتمرغ في الدنيا والاقذار دون أن تقوى هذه القيم الاخلاقية عن رده ، غير ان المستبعين لأحوال هذا النفر المثقل بالدقايا والرزايا قد لاحظوا وجود طبقتين من هذه الزمرة العاقّة ، الأولى تلك التي تسفر عن عمرها وستهمها فيقوم المجتمع بحجرها وايوائها في محلات خاصة ، ومن ثم يخضعها الى مراقبة صحية

دقيقة وينظم العلاقات بينها وبين الراغبين في تطين الشهوات العارمة ، وبهذا يأمن المجتمع شرور هذه الطبقة السافرة ، ولكن الخطر الأعظم الذي يتهدد المجتمع انما يتأتى عن طريق العاهرة المتخفية بأردية العفة والشرف لأنه يحسبها طاهرة شريفة الذيل حريصة على التزام القيم الاخلاقية الرفيعة وهو بهذا الظن يفتح لها الأبواب على مصراعيها ، تغشى البيوت الطاهرة العفيفة ولكن سرعان ما يرحم الله بعباده فبتيح للأشراف فرصة الوقوف على سر هذه العاهر المتخفية ، ليزيل عن المجتمع الطاهر الآمن رجس هذا الشيطان الماكر ، واذا ما حق لأي مجتمع مطاردة العاهرات بصنفيهن ، كان من حق المجتمع ان يطارد المهر السياسي ويعزله كما يعزل البعير الأجرب ، فالعهر السياسي أشد خطرا من العاهر اللعوب ، واذا ما اقتصر خطر هذه على من يقع في شباكهها فان خطر العهر السياسي أعم وأشمل ، لأنه عهر يرتدي لباس الفضيلة ليتسنى له الفتك بالمجتمع » (٢٦) .

وقاريء هذه المقالة تأخذة الرأفة بهذه القيم الاخلاقية التي انحطت الى درجة غريبة من الاسفاف ، والآنكى من هذا كله أن يقال مثل هذا الكلام في جريمة سيارة يقرؤها كثير من الناس ويتأثرون بما فيها ، أما رد جريمة الاستقلال فعلى الرغم من أنه لم يكن بهذا الاندفاع الا انه لا يخلو من تعريض واضح وذكر كلمات غاية يعرفها جيدا المراقبون الذين لهم خبرة ببعض مناطق بغداد ، وهي بعد ان تنقل المقال المذكور

تعلق عليه بقولها « هذا ماقالته جريدة الاتحاد الدستوري ، فهل يرى القاريء الكريم أن مثل هذه اللهجة يجوز أن تطلق في نقاش سياسي وأن تعلن في صحيفة يقرأها الناس ؟ وأن تكون الصحيفة لسان حال حزب والو كان مصطنعا ، وأن يكون كاتب المقال وزيرا في الدولة ومكلفا بالدعاية وتوجيه الرأي العام ؟ وماذا يقول أعضاء الحزب المصطنع فيما ينشره الوزير المدلل على لسان الحزب ؟ وهل فكروا ببيان يصدرونه ليتبرؤا من هذه اللهجة وهذا الاتجاه ؟ وماذا يقول الوزراء في حق زميل لهم في مثل هذا المستوى الخلقي ؟ وهل يوجد من غير حملة الشهادات من يرتقى الى التحدث بهذه اللهجة ، اللهم الا من ألف وسطا معينا في ميدان تبرؤ منه ميادين الخدمة العامة وأوساط السياسة الشريفة ... ولعل اللوم في هذا التدني الخلقي الذي مسخ كل شيء لا يلقى على أحد كما يلقى على السيد نوري السعيد ، فقد تمهد الكتاب المدلل وحرصه صحفيا على استعمال البذاءات ، حتى أصبحت هذه اللهجة وسيلة من وسائل الوصول لبلوغ غاياته كأن السعيد لم يكفه ما فكب به العراق خلال ثلاثين سنة بل اراد أن يهيم هذا الصنف من المتهالكين على المناصب بالقيم الاخلاقية ، فمنح الحزب لسانا بذيئا ليشيع الفساد والتفسخ بين الناس « قل كل يعمل على شاكلته » ، وكل افاء بالذي فيه ينضح » (٢٧) وفي كلمة « ميدان » تورية مقصودة والا فاللقال لم ينزل الى الدرك الذي نزلت اليه جريدة الاتحاد

الدستوري •

ذلك هو أنموذج واحد من المهارات الصحفية التي كانت تقوم بين الأحزاب التي جعلت سوق الشتائم الصحفية بضاعة رائجة ، لكنها من الناحية الأدبية تثير القراء وتثير الأجواء الراكدة وتسهل اللغة ، وتمنح العقول حدة ونفاذاً ، يقول الدكتور طه حسين عن هذه الخصومات السياسية وأثرها على الأدب « اما بين الحريين فقد دفع أدباؤها الى الأعاجيب وكان أول هذه الأعاجيب هذه الخصومات السياسية التي يسرت اللغة تسييراً غريباً ، ومنحت العقول حدة رائعة ونفاذاً بديعاً ، واستطاعت أن تشغل الجماهير وتعلمهم العناية بالأمور العامة والاهتمام لها والتفكير المتصل فيها ، لقد أصبح الهجاء السياسي من أهم الألوان في أدبنا العربي الحديث فيه الحدة والعنف وفيه المتعة واللذة وفيه التنوع والاختلاف بتنوع الأمزجة واختلافها » (٢٨) •

ذلك هو جانب واحد من جوانب الصحافة في المجال الداخلي وهو جانب سلبي ترك أثره على الرأي العام وأوجد انقسامات داخل الشعب الواحد ، غير أن الصحافة العراقية من ناحية أخرى أدت واجبها في الدفاع عن حرية الشعب ، وكانت عاملاً مهماً في تثبيت المفاهيم الديمقراطية وإيصالها الى الجماهير ، وبخاصة الصحف الحزبية التي كانت شوكة في عيون السلطات الحاكمة رغم القوانين القاسية التي كانت تتعرض لها •

ومن المواقف التي عالجتها الصحافة بشكل متواتر وفعال ، ذلك الذي يتمثل بتزييف ارادة الشعب في الانتخابات النيابية التي كانت تجري في العراق ، اذ من النادر أن تجد مجلساً أكمل مدته القانونية ، فكل رئيس وزراء يأتي الى الحكم كان يحمل معه مرسوماً بحل المجلس السابق واجراء انتخابات جديدة حتى يؤمن لنفسه الاكثريّة المطلقة فتضطر صحف المعارضة ازاء هذا كله الى فضح أساليب التزوير في مراحلها المختلفة التي كانت ترافق هذه الانتخابات .

الحكومة ومن ورائها الأجانب يريدون من المجلس النيابية أن توافق على المراسيم والمعاهدات دون معارضة تذكر ، والشعب يريد أن يثبت وجوده وينتخب من يراه أهلاً لتمثيله ، وبين هذا وذاك كانت الصحافة تجد مادة دسمة للتعليق على هذه المهازل وتأخذ وقتاً كبيراً منها ، لننظر الى جريدة العالم العربي وهي تسخر من الأساليب التي تتبع في الانتخابات النيابية « قد أخذ طلاب النيابة يتململون ، يقومون ويقعدون ، يروحون ويجيئون ، يكتبون ويلتسمسون ، يشدون الرحال من هنا وهناك الى العاصمة بغية الفوز بما يطلب منهم وما هم عليه يتهالكون ، ومن الصلف وصفاقة الوجه والقحة الشنيعة ، ومن الغريب أن يتحرك هذا السيل ممن برزت لكل ذي عين ذبذبتهم ويصبصتهم وصعلكتهم واستهتارهم بمقدرات الوطن ، وجرحهم عواطف الجمهور ، وإفكابهم على عبادة الأوثان ، وقيامهم بالتهريج والتطويل لكل من يدهن أيديهم ويشبع بطونهم من السحت ، لا يهمهم أن يهلك الناس وتسفك

دماؤهم سيولا وتغصب حقوقهم ويكونوا في مهاوي الحرمان والشقاء والعذاب والهوان . على رسلهم أيها النعميون الصعاليك ، ان ألاعييكم الرذيلة وجيلكم اللدنية لم تعد تنظلي على أحد ، واذا كنتم تظنون أن هذا الاستهتار يبقى ويدوم كما تشاؤون والى ما شاء الهزل وعدم الحياء والمجون فافكم لمتوهسون ، لأن هذا ان دام كما ترومون فلم يبق ان ادراك ولا شهامة ولا حمية انسانية » (٢٩) .

لهجة كلها ألم بدأها الكاتب بالسخرية والتهكم ثم حوّلها الى لهجة مؤنب ومتوعد واثّر ، لأنه يرى الظلم أمامه ولا يملك غير هذا الشعور يعكسه في صحيفته .

والحكومة من ناحيتها لاتحترم الرأي العام ولا تقيم وزناً لصيحاته ، يساعدها في ذلك الجهل المتشفي بين الناس وبخاصة في القرى والارياف التي تتألف من سكانها نسبة كبيرة من الشعب العراقي ، قالت مجلة الاستقلال تصف احدى هذه المجالس التياوية « يجتمع اليوم مجلس النواب العراقي ليمثل دوراً في رواية مسرحية بلغ من اتقانها أنها جمعت في طياتها فصولاً هزلية مسلية ، وفي بعض لوحاتها أدوار مكربة للنفس يضيق بها المشاهد ذرعاً ، ويود لو ترك القاعة أو أنه لم يلجها ، فهذه الحكومة وهذا البرلمان يتعرض كل منهما ويستعيد ما لقن من عبارات تجارية واصله او متكررة وفق ما يريد مؤلف الرواية ومخرجها وملحنها ، بحيث توفر الريح الأكبر لقاطع التذاكر وللشركة التي تمهدت بالاتفاق

والا يفضل طبعا تسديد الأجور المتفق عليها مع الممثلين والمخرجين الداعين
الناس الى التفرج على هذه الرواية » (٣٠) .

ويبدو أن الحكومات العراقية قد سئمت هذه الاحتجاجات وضاعت
بها ذرعا فاضطرت أن تقضي عليها باصدار مرسوم ينص على ما يلي
« كل من وجه طعنا باحدى طرق النشر المنصوص عليها في المادة (٧٨)
من قانون العقوبات البغدادي ضد الانتخابات التي تمت بمقتضى هذا
القانون او المقررات أو الاحكام القطعية الصادرة عن السلطات المختصة
في كل ماله علاقة بالانتخابات يعاقب بالحبس الشديد مدة لا تتجاوز
الستين وبغرامة لا تتجاوز (٥٠٠) ديناراً أو بكلتا العقوبتين » (٣١)
ولكن مع هذا استمرت بعض الصحف تهجم على الطريقة التي تجري
بها الانتخابات رغم وجود هذا المرسوم .

وقد قربت على هذا التزييف ان كانت الحكومة تكثر من اصدار
المراسيم الاستثنائية التي تكبل حرية الناس وتمنع حرية التعبير ، مع
أن دستور البلاد ينص على أن العراق بلد ديمقراطي دستوري ، الحكم
فيه للشعب .

ومن يتمعن في دراسة تاريخ العراق السياسي يلاحظ أن الحكومات
المتعاقبة كانت تحمل وجهة نظر معينة لا تحيد عنها رغم تبدل الظروف ،
فاذا لم يكن نوري السعيد في الحكم كان هناك واحد من أعوانه ،

(٣٠) لواء الاستقلال عدد ١٤٢ سنة ١٩٤٧ .

(٣١) صوت الاهالي عدد ١٩ سنة ١٩٥٢ .

فالسّياسة العامة هي هي لم تتبدل ، وهي سياسة فيها الكثير من تأييد الاتجاهات الاجنبية على حساب الشعب العراقي ، أما المظاهر الديمقراطية فليست سوى اضافة الصبغة الشرعية على الحكم » ان من أبرز الظواهر في العراق البلد الديمقراطي هي مدى ابتعاده عن الديمقراطية المزعومة فهو بلد دكتاتوري من غير دكتاتورية كما يصفها الغربيون ، ويتجلى انعدام الديمقراطية هذه في غمط الحقوق المشروعة ومصادرة الحريات على مختلف اشكالها ، حتى لقد بلغ الامر من القضاة حدا لا يتمكن معها الفرد من ابداء رأيه حتى في الشؤون التي تخصه وتمسه بصورة مباشرة وتتحكم بحياته ومستقبله ، ولنا من مرسوم الاعمال الممنوعة على الهيئات التدريسية اقرب مثال على ما نقول ، هذه الهيئات تحرم من حق التعبير عما يتصل بصميم حياة البلد والشعب وهي الفئة المعول عليها في بناء حياة هذه الأمة وبناء المستقبل الزاهر لها . ان محاربة هذه الحريات وبالأخص الحرية الفكرية لا تعود على الأمة إلا بالخسران ، فهي تحرم الأمة من الآراء المختلفة وتؤدي الى جذب فكري قد يولد التبلد والجمود الذي يقف حجرة عثرة في سبيل سريان تقدم الامة » (٣٢)

والمرسوم الذي تعلق عليه الجريدة مرسوم غريب في بابه فهو يحظر على الهيآت التعليمية حق التدخل في السياسة ، وبهذا تكون الحكومة قد قضت على عنصر نشط وفعال في المجال الثقافي ، اذ لا يحق لهؤلاء ان يعبروا عن آرائهم في المسائل العامة بأية طريقة كانت مع

أنهم يؤلفون الغالبية العظمى من مثققي هذا البلد ، ليس هذا فحسب بل ان الحكومة قدمت مرسوماً الى المجلس النيابي علقت عليه جريدة الأهالي بما يلي « ان الحكومة الحاضرة تهيب لائحة جديدة تفرض فيها عقوبة الاشغال الشاقة والحبس مدة سبع سنوات أو بالغرامة أو بهما على كل من يدعو الى ما من شأنه أن يهيب الرأي العام الى تقبل الرأي الشيوعي بأية طريقة كانت ، كالهتاف وترديد الأناشيد او اعداد مناشير او رسائل ذات المفاهيم الشيوعية او لحيازه عليها . . . فأى تشريع هذا وأى ضمير قانوني يتقبل هذه النصوص ، فالفرد محظور عليه أن يقرأ بعد اليوم كتابا فيه مفهوم شيوعي ، بل أصبح مسؤولا عن كتاب يقتنيه حتى قبل أن يقرأه ويعرف ما فيه ، فالمرء قد لا يقر الشيوعية ولكنه يحوز على كتاب ليقراء ، فاذا قبضت الشرطة على هذا الكتاب حوكم » (٣٣) .

والمشكلة برمتها ناجمة عن خوف الحكومة من الشيوعية فأرادت ان تقضي عليها بهذه الاساليب ، ولو انها اهتمت بالاصلاحات وهيأت للناس حرية التعبير لما وصلت الحالة الى هذا الحد ، بل اقنا نستطيع أن نقول أن الحكومات العراقية المتعاقبة في العهد الملكي ساعدت الى حد بعيد على تكوين الاحزاب السرية وانتشارها بين عدد كبير من الناس وهي التي دفعت الأدباء الى ميدان السياسة فكان أديبهم وسيلة لخدمة آرائهم ، وكلما زاد التضييق على الحرية اشتد ولع الناس بها

وطلبوها أنى وجدت ، ان اضعاء القدسية على السياسة والتشكيك بكل ما يكتبه الناس او يقرؤنه أودي بكثير من الجهود في هذا البلد وشد الناس الى السياسة شدا محكما ، وقد ظهر هذا في قانون المطبوعات ذاته ، ذلك أن هذا القانون يفرق بين الصحف السياسية وغير السياسية ، ويعني بالصحف غير السياسية الصحف الأدبية والفنية والدينية وغيرها ، فهو في الوقت الذي يضع شروطا للصحف السياسية يجعل الصحف الأدبية تحت رحمة المسئول الاداري ، وقد أدى هذا الامر الى وقوع ملاسبات كثيرة وبخاصة في الصحافة الأدبية . فالحكومة حينما فصلت بين الصحف السياسية والصحف الأدبية لم تضع حدودا معينة لكل منهما ، ليس ذلك باستظاعتها ، كما ليس باستظاعة أحد ان يفعل ذلك ، لأنه بهذا يحصر الأدب في دائرة ضيقة ويجعله تابعا لتفسيرات خاصة طبقا للأمزجة المسئولين وهؤلاء ليسوا أنبياء معصومين من الخطأ ، وليس الأدباء غير بشر من لحم ودم ، فكيف بعد هذا نستطيع أن نحرّم عليهم الأدب الذي يتناول السياسة ، والاجتماع والدين .

الحياة متداخلة بعضها ببعض ، وأبسط الناس يعرف جيدا أن الأدب أثر من آثار العصر والمحيط ، يتأثر بالزمان وبالمكان وبالنظام العام للحياة الاجتماعية وأن الأديب واحد من هؤلاء الذين يعيش بينهم ، يحس بما حوله ويتأثر به فيكون أدبه صورة لعصره . فكيف يمكن والحالة هذه أن نحدد له الدائرة التي يجول فيها والدائرة التي لا يحق له أن يقترب منها ، اتنا بهذا نقضي على الحرية التي هي ضرورة لازمة

• للعمل الأدبي •

لقد تركت هذه التفرقة أثراً بعيد المدى على الصحافة ، حتى لقد تحول كثير من الصحف الأدبية الى صحف سياسية لكي لا تتعرض لقانونين في وقت واحد • قالت مجلة الحاصد : « يقولون ان هذا المجتمع بني على عمد ، وهذه العمد هي البيت والفرد والحكومة والمصلى ، فكيف يخدم الأدب المجتمع اذا لم ينر الطريق أمام هذا البيت والفرد والحكومة والمصلى ، وهل كان الأديب يردد ألفاظاً بلا غاية أو قصد ؟ هو مكلف بأن يقود الحياة ، ولكن كيف يتسنى له ذلك اذا قيل له هذا جائز وذلك لا يجوز ؟ قد مشت السياسة ومشى الدين مع الأدب جنباً الى جنب في كل عصر وزمان ، أو قل ان الأدب كان لسان السياسة والدين في كل عصر ومكان ، الأدب قائد السياسة في كل جيل ، اذا لا أعرف ماذا تقصد الحكومة من الأديب حين تقول له تكلم في كل شيء ولكنك اياك والسياسة والدين : وهل كان الدين والسياسة أمرين تافهين حتى تتجنبهما كل حركة وتطور أثر من آثار الكتاب والأدباء وهؤلاء لا يستطيعون أن يعدوا للحركة والوثوب اذا قيل لهم لا تتدخلوا في السياسة والدين » (٣٤) صرخة أديب يعرف جيداً كيف أن الحياة متداخلة ببعضها وأن كل شيء يمكن أن يكون مجالاً للأدب ، ومن يستطيع أن يحدد مجالات الأدب ومجالات السياسة ، فالتعبير عن الآراء الدينية والفلسفية والعلمية والسياسية

يصبح أدباً اذا أحتوى على الاسلوب •

والظاهر أن السلطة الحكومية تفهم من الادب أنه قصص اللهو والفرام والعبث أو الشعر الذي يسبح الخيال ويفرم بالطبيعة وغير ذلك من موضوعات الشعر القديم كالملاح والرفاء والهجاء أما اذا عالج الادب مشاكل الحياة فهو سياسة وأما اذا أحس الأديب بالآلام أمته ووطنه فهو سياسة •

انهم بهذا يريدون ان يحصروا الأدب في مجالات ضيقة كذلك التي رأيناها في أدب الفترة المظلمة ، مع أن الأديب يتحمل مسؤولية كبرى في تحمل الأعباء التي يرزح تحت ثقلها شعبه •

لقد وقع الصحفيون والأدباء أمام أمرين كلاهما صعب فهم أمام شعب يريد منهم أن يقدموا له أدباً يعبر عن عصرهم وما فيه من مواقف متناقضة ، وأمام سلطة وضعت أمامهم الكثير من القيود التي تؤثر على حريتهم في التعبير ، فاذا عالج أديب مسألة الفلاح مثلاً في ظل نظام اقطاعي قالوا له انك تدخلت في السياسة لأنك تريد هدم الكيان الاجتماعي للدولة ، وان عملك هذا خارج عن حدود اختصاص صحيفتك •

واذا أنشد شاعر قصيدة يحث فيها الناس على المطالبة بحقوقهم قالوا له انك هدام تعرض على الثورة •

ان الأدب سياسة وان الأدب اجتماع كما أن السياسة أدب وانها دين وانها اجتماع ، ولا نستطيع أن نفرق ما من حقه أن يكون

متداخلاً ، ولا يمكن فصل الأدب عن السياسة ، فالأدب يصور لنا العصر الذي نعيش فيه ، وان العبث بحرية العقول تعطيل لموهبة العقل وافساد للفطرة ، والانسان الحر هو الذي يقول ما يعتقد ، فلا أدب بدون حرية ، فاذا نحن كبلنا الاديب بقيود خارجة عن ارادته نكون قد ساعدنا على ايقاف نموه وقتلنا فيه مواهبه الفطرية التي تحتاج الى حركة وتمرين وإلا ماتت وكأنها لم تكن ، والشعب الذي ينقطع اتاجه يصبح راكد الحس .

لقد كانت هذه التفرقة بين الأدب والسياسة سيقاً مصلاً على الأدباء والصحفيين ، وكثيراً ما أعلنوا استنكارهم دون جدوى فانهم أمام سلطة كانت تعي أهمية هذه الالفاظ حينما تأتي في مكانها المناسب ، انهم لا يفرقون بين هذه الالفاظ والافكار التي تأتي فيها ، وبمعنى أدق أنهم لا يفصلون الكلمات عن الفكر ، انهم يعرفون وقعها في الشعب لانها تحولهم الى ثورة على اوضاع فاسدة ، وعندهم أن هذه الافكار تزيد الناس تنبها ووعياً لتتحول الى أفعال عملية بعد ذلك ، الأمر الذي يؤدي الى تغيير نظام يعتزون بدوامه .

لقد تحولت كثير من الصحف الادبية في العراق بفعل هذه التفرقة الى صحف سياسية ، فأهون عليهم أن يخضعوا لقانون واحد من أن يخضعوا لقانونين ، نذكر على سبيل المثال لا الحصر تحول مجلة الحاصد الادبية المشهورة الى مجلة سياسية ، حينما رأى صاحبها ضيق المجال الذي يدور فيه فقال « من مساويء قانون المطبوعات الحالي أنه يصنف

الصحف تصنيفا نظريا بحثا يتعذر تطبيقه عمليا ، فقد اعتبر من الصحف ما هو سياسي ، ومنها ما هو أدبي فني لا دخل للسياسة فيه ... كيف يتسنى لأقلام محرريها ان تقدم للقراء مشاهد الحياة وحوادثها ما هو أدبي محض وتنحاشي ذكر كل ماله أساس بما يسمى السياسة ، ثم ما هو المقياس الذي يتمكن به الصحفي من قياس الكتابات السياسية والأدبية والفنية وفصل احدهما عن الأخرى ، فلو كان الأدب كما يفهمه قصيروا النظر مقتصرا على وصف الطبيعة والشمس والصحراء والابل لخرجنا من المأزق بالتي هي أحسن ، ولكن ما قولك والأدب يجب ان يتناول الحياة بما فيها من خير وشر ... اذا أرادت الصحف مثلا ان تحت على التمسك بالمبادئ الانسانية ومثل الحياة وتناصر الفضائل المقدسة كالتمسك بالحرية والديمقراطية وغيرهما مما له علاقة مباشرة بحياتنا وافكارنا فهل بإمكانها ألا تتطرق لشذب النظم الجائرة كالنازية والفاشية ، والخلاصة أننا نعتقد ان ليس بالامكان اصدار صحيفة أدبية غير سياسية في عصرنا هذا المليء بالاحداث العالمية الخطيرة ولهذا جعلنا امتياز الحاصد سياسيا » (٣٥) ، وهناك فرق كبير بين كون مجلة الحاصد سياسية وكونها ادبية لقد اختفت منها تلك الحقول الرائعة في الشعر والقصص والنقد وغير ذلك .

ومن الموضوعات التي عالجها المقال في الصحافة العراقية منذ ظهورها ، القومية العربية ووحدة مصيرها ومساندة الحركات التحررية

في الوطن العربي الكبير ، فالمعروف أن البلاد العربية بعد الحرب العالمية الأولى تجزأت الى دويلات صغيرة تحت حماية انكلترا وفرنسا ، وقد ذهبت هاتان الدولتان الى تحطيم كل ما من شأنه ايقاظ الشعور الموحد في البلاد العربية فخلقت في كل جزء من هذه الاجزاء أوضاعا شاذة تلهمها عن المطالبة بحقوقها القومية « اتجهت سياسة الحلفاء بعد الظفر بالحرب العالمية الاولى الى تعظيم الروح العربية وتشتيتها وتنفير الناس منها وخلق شتى الاسباب والعوامل لصرف الناس عنها الى التفكير في شؤونهم الخاصة والمحلية التي ازدادت خطورتها واشتدت وطأتها بعد أن أحكمت القيود واصبح مفهوم القضية العربية عند هذه الدول الاجنبية وانصارها وعبيدها في البلاد العربية هو ان يعزلوا هذه البلاد بعضها عن بعض فتضعف كل منهما بعزلتها وتضطر بسبب انقطاعها عن أخواتها أن ترمي بنفسها في احضان الدول الاجنبية المتحكمة فتربط مقدراتها في هذه البلاد » (٣٦) .

ويبدو ان العراق بحكم ظروفه الخاصة هو الذي حافظ على الشعور القومي بعد الحرب العالمية الأولى من الذوبان والاختفاء ، وانه بقي يتغنى بهذا الشعور وينمي في وقت كانت فيه أوضاع البلاد العربية الأخرى لا تساعد حتى على مجرد ابداء هذا الشعور .

ففي سوريا حيث الاستعمار الفرنسي الذي يمتاز بالشراسة والقوة واحتقار عادات وتقاليد الامم المستعمرة ، كان يحاول بكل قوة طمس

كل حركة وطنية أو قومية كما أنه يحاول غزو الشعوب بثقافته وعاداته وتقاليده ، وهذا ما لاحظناه في بلاد المغرب العربي •

في حين كان الاستعمار الانكليزي يحترم عادات الشعوب وتقاليدها وينمي لغتها ولا يتدخل الا حينما يجد تعارضا مع مصالحه الاقتصادية . أما مصر فكانت بعيدة عن البلاد العربية بحكم ظروف الاحتلال الاجنبي وبحكم ظهور بعض النزعات العربية التي كانت تظهر حينذاك ، ومن هنا وجد العراقيون فرصة ملائمة أكثر من غيرهم في المحافظة على الشعور القومي وبخاصة وأنه حصل على بعض استقلاله قبل كثير من البلاد العربية الاخرى بينما بقيت البلاد السورية مستعمرة حتى أواسط العقد الخامس من هذا القرن فكان كثير من رجالها يهربون الى العراق فيجدون ترحيبا حارا بهم على صفحات الجرائد ، وحينما كان يقوم في بعض البلاد العربية جدل حول المسائل القومية كانت الصحافة العراقية تقف لهؤلاء بالمرصاد فتعريهم وتحدث ردود فعل مختلفة تجد مجالها في الصحافة ذاتها ، كما كانت تنقل بعض آراء الكتاب في مصر حول هذه الناحية بالذات وهم يدفعون هذه التهمة عن بلادهم ، من ذلك ما نقلته جريدة البلاد للدكتور زكي مبارك « مصر هي أعظم موئل للعروبة ، ومن واجب العربي الصادق ان يدعو الله لسلامة تلك البلاد من كل عادية ، حتى تظل يسوعا تنفجر منه المعارف العربية ، ومع أن مصر أعظم موئل للعروبة فهناك شبهات يجب تبديدها في هذا المقال •

هناك اشاعة تقول أن مصر فرعونية ، ونقول ان الذي اشاع هذه الفكرة

هو كاتب مصري اسمه سلامة موسى . وأؤكد لكم ان هذا الكلام اخترعه أناس في غير مصر وسمع به سلامة موسى كما سمع به غيره من المصريين ، ومن هنا ترون أن الدنيسية جاءتنا من الاجانب من المستعمرين وأشباه المستعمرين الذين ملؤا بدنانيرهم جيوب فريق ممن يكتبون باللغة العربية ... وأجهل الناس يعرف ان العروبة ان انعدمت في مصر فلا تقوم لها قائمة ... ان مصر عربية قبل كل شيء عربية في لغتها ودينها وأخلاقها » (٣٧) والذي لا يستطيع ان ينكره منصف ان مصر هي أول دولة عربية حولت القومية العربية من مجرد شعار يطرح الى واقع عملي ملموس ، وذلك عن طريق خدمة اللغة العربية واحياء علومها القديمة ونشر الثقافة العربية الأصيلة في مختلف البلاد العربية ، فكان لذلك أبلغ الأثر في ايجاد رابطة عملية بين هذه الاقطار اما هذه الدعوات التي كانت تظهر بين الحين والآخر فلا تمثل الا أصحابها ، يقول الدكتور طه حسين وهو يرد على بعض من يذهب هذا المذهب « لست أدري كيف يختصم الناس في هذه المسألة او كيف يجعلونها موضوعا للحوار فهي في نفسي اوضح واجلى من ان تحتل خصومة او جدلا ، لغة واحدة تتكلمها امم مهما يكن بينها من اسباب الاختلاف والائتلاف ومن تباعد الاماكن . واذن فالشعوب التي تتكلم هذه اللغة مضطرة سواء ارادت ام لم ترد الى وحدة ثقافية ، لا يصرفها عن هذه الوحدة الا ان تبدل بلغتها العربية لغة أخرى ، فاذا اضقت الى هذا أن هذه

الشعوب لا تشترك في اللغة وحدها وانما تشترك معها في الدين ايضا فكثرتها مسلمة ، كان ذلك داعيا الى اشتداد ما يجب أن يكون بينها من التقارب والتواصل ، فاذا أضفت الى هذا كله أن هذه الشعوب تشترك في الخضوع لطائفة من المؤثرات الاقتصادية ثم ألوان من التحكم الاجنبي، كان أمر الوحدة أوضح من ان يحتاج الى جدل او حوار» (٣٨)، ولم يعد هناك مجال لامثال هذه الدعوات ، بل اننا نستطيع القول: إن الدعوة الى القومية العربية حملها لأول مرة عربي من مصر هو الاستاذ عزيز علي المصري السذي كان يترأس بعض التنظيمات السرية في الأستانة نفسها « فقد شرع عزيز علي المصري وهو في الأستانة في تأليف جمعية سرية توحد صفوف العرب وتجمع كلمتهم ، فكانت جمعية العهد التي شرع بتكوينها سنة ١٩١٣ وانضم اليها لفيق من العراقيين والسوريين الذين كانوا يدرسون في الأستانة » (٣٩) .

وكانت الصحافة العراقية تتعاطف مع البلاد العربية في أوقات المحن والثورات فما أن تهب ثورة في قطر عربي حتى تراها تحذر وتنبه وتشجع كقول جريدة الاستقلال « أخي العربي أهديتك بالامس تحيتي يحملها اليك نسيم بلادي الحليل واليوم أهديكها ونشيد العروبة ونحن نسير الى الهيजा يحملها مزوجة بأصوات رصاص أطلقناه في سبيل المجد وحياة العرب نشيد (نحن جند الله شبان البلاد) يتصاعد من

(٣٨) البلاد عدد ١١١٣ سنة ١٩٣٩ .

(٣٩) الحسني - الثورة العراقية الكبرى - ص ٤٣ .

أعماقنا وقنابل العدو تتساقط وابلا وأزيز طيارتهم يملأ الفضاء ... ايه
يا أخا العرب ان سوريا الثائرة ، سوريا المجاهدة بحاجة فأميتها
وتستصرخكم فلا تخيؤوا رجاءها وفي الليلة الظلماء يفترق البدر » (٤٠) .
وقد جمع كل ما قيل في الصحافة العراقية عن سعد زغلول بكتاب
خاص سمي (ذكرى سعد زغلول) .

وحينما تحرر البلاد العربية من الاجنبي تتحول اللمجة في الصحافة
العراقية الى اللمجة ساخرة من هؤلاء الحكام الذين يدعون الى الوحدة
العربية ومع هذا فهم لا يطبقونها فعليا « مصر تريد الوحدة والعراق
يتقدم بمشروع لتوحيد الدول العربية وسوريا تنادي بالوحدة وكل
دولة تنادي بالوحدة وتدعو لها ، بل كل مسؤول عربي في كل بلد عربي
لا يتحرج حين يجيء ذكر الوحدة ان ينظم الشعر تغزلا بها وغناء فيها .
فمن الذي يحول اذن دون قيام هذه الوحدة ؟ » ان الذي يحول دون
قيامها جمع غفير من المصالح المتشابكة التي تربط أعداء البلاد في الداخل
بأعداء البلاد في الخارج ليقفوا صفوا واحدا في وجه هذه الأمة ، يفتوا من عضدها
ويفرقوا كلمتها لأنهم مقتنعون بأن وحدتها خطر على جشعهم ومراكزهم
وانهم لا يستطيعون احتلالها اذا ما اجتمع شملها وتآلفت أقطارها » (٤١)
أما ما قيل بسبب مأساة فلسطين فهو كثير لا يمكن حصره ، فقد رافقت
الصحافة العراقية هذه المسألة منذ وعد بلفور حتى حرب حزيران وهي

(٤٠) الاستقلال عدد ٩٢٦ سنة ١٩٢٦ .

(٤١) لواء الاستقلال عدد ١٧٧٥ سنة ١٩٥٤ .

في هذا كله كانت تعي دورها ، تحذر وتنبه وتثور وهي لا تملك أكثر من ذلك أيضاً ، من ذلك هذه اللهجة الساخرة في جريدة اليقظة « لا بأس عليك يا فلسطين فإن وراءك أمة قد ملأت الدنيا صراخاً وعويلًا ، وقوماً يحسنون ذرف الدموع وشق الجيوب وزعماء يخطبون ويقولون فلا تسرفي في طلب المزيد ، فقد عظمت التضحية على القوم ولم تمنأ الليالي على السادة هددوا الدنيا بأجمعها من أجلك ولكن هذا هو الأمر الواقع فماذا يفعلون ؟ ومن أجدر بهذه التضحية من هذه الأمة الكريمة ؟ ومن يفتح بلاده على الرحب والسعة اذا لم تفتح بلادنا نحن ؟ أليست الصحراء جزءاً من بلادنا نستطيع أن نضرب فيها الخيام ونعيش مشردين لا تلوي على شيء ! هذا قضاء وقدر ونحن نؤمن بالقضاء والقدر ، فماذا تصنع الأمة أكثر مما صنعت يا فلسطين ، اصبري يا فلسطين فإن هذه الحياة زائلة وان لك بعدها الجنة التي عرضها السموات والارض » (٤٢) .

والو جمع كل ما قيل في سبيل قضية فلسطين للملا الكثير من المجلدات وهو على الأغلب أحب كله ثورة وحقد يجمع بين طياته تطورات هذه القضية منذ أن وجدت حتى اليوم ، ليكون بعد ذلك سفرًا خالدًا في مجال الأدب الثوري المعاصر ، فقد تأثر أغلب الأدباء العرب بهذه التكبلة وتدفقت في نفوسهم الخواطر وفاضت في قلوبهم المشاعر معبرة عن صدى الكارثة في نفوس جيلها ، وأغلب هذا الأدب موزع في الصحف العربية وربما كان في جميعه خدمة هامة لتطورات هذه القضية بالإضافة

الى خدمة الأدب العربي الحديث •

هذه هي الاتجاهات العامة التي رافقت المقال الصحفي في جرائدنا ومجلاتنا منذ وجودها حتى اليوم ، المسألة الوطنية ثم الدفاع عن حرية الشعب والمواطن والمسألة القومية ، وما عدا هذا كله فموضوعات وقتية تأتي في حينها وتزول بزوال اسبابها •

والحقيقة التي يلاحظها من يدرس الصحافة العراقية بامعان ، أن هذه الاتجاهات السياسية الثلاث ، استهلكت الأديب العراقي لا في المقال فحسب بل في جميع الفنون الأدبية الاخرى من قصة وقصيدة وغيرهما وجعلته يدور في هذه الحلقة ولا يتعد عنها ، وانه جعل من هذه الفنون وسيلة الى خدمة آرائه السياسية ، الأمر الذي أثر الى حد بعيد على الناحية الجمالية والفنية في أدبنا ، بعد أن تحول عندهم الأدب الى رسالة تخدم افكاراً سياسية بعينها •

ومن هنا طغى الجانب السياسي على ما عداه في كثير من صحفنا ، مع أن هناك جوانب أخرى قد لا تقل أهمية عن السياسة ذاتها وذلك كالناحية الاجتماعية التي أولاهها المقال أهمية أقل مما يمكن ، ولهذا فإنه لم يشغل سوى جزء ضئيل من اهتمام الصحافة ، ويمكن ارجاع ذلك الى اعتقاد الناس ان في حل المشاكل السياسية حلاً لجميع مشاكل الحياة الاخرى ، كما ان الروح المحافظة أثرت على هذه الناحية بالذات فكانوا يفسرون كل حركة مطالبة بأنها مخالفة للدين ، يضاف الى هذا كله ندرة وجود كتاب لهم قابليات خاصة في معالجة النواحي الاجتماعية •

وأهم مشكلة اجتماعية اهتمت بها الصحافة ، هي موقف الكتاب من المرأة وحريتها من حيث التعليم والزواج والتوظيف ، فهناك كتاب وقصوا الى جانبها يؤيدون حريتها وآخرون ينظرون اليها نظرتهم الى قطعة أثاث ، فهم يجردونها من الاحساس والشعور ويرغمونها على البقاء في بيتها .

وأول جريدة أولت المرأة عنايتها هي جريدة الرقيب ، فقد ذكرت عنها ما يشير الى أنها كانت تعيش في جهل مطبق ، لا حرية لها في التعليم أو الخروج من البيت أو في الزواج قالت « ان حالة المرأة في مدينة بغداد حالة يستحي القلم من تحريرها لأنه لا يوجد بينهن واحدة من عشرة آلاف ممن يحسن القراءة ، والسبب الاعظم هو تعصب ساداتنا المسلمين ضد تعليمهن ، حتى ان شاعرنا الرصافي ما نظم قصيدته النسائية التي تناقلتها الجرائد السورية ، حتى تبادر الشعراء بالرد عليه وتقنيد رأيه في ذلك ، بتحريم تعليم المرأة شيئا من العلوم والمعارف وأنهن لا يصلحن لذلك وأنهن من سقط المتاع . . . ولكنهم تساهلوا الآن فرخصوا تعليم المرأة تلاوة القرآن العظيم بشرط عدم تناول القلم لخط شيء لأن لذلك محذور » (٤٣) .

فهم يعتبرون تعليم المرأة من المحرمات ، كل ما هتالك تعليمها تلاوة القرآن على أن لا تمس القلم وتخط به شيئا ، ولا ندري من أين جاءوا بهذه التعاليم مع أن الاسلام لا يفرق في التعليم بين المرأة والرجل ،

وربما كانت هذه الروح المحافظة هي السبب في أن كثيراً من أنصار المرأة في العراق كانوا يرسلون آراءهم الى الصحف العربية في مصر وسوريا .

ويبدو أن أنصار المرأة كانوا أكثر توفيقاً من غيرهم فقد بدءوا يضربون على وتر حساس يلائم طبيعة الفترة التي وجدوا فيها ، يتمثل في المطالبة بتعليم المرأة ، حتى لا يتعرضوا لغضب العامة أو نقمتهم ، وتعليم المرأة يعني حل كثير من مشاكلها بعد ذلك ، فاندفعوا يطالبون بفتح المدارس وتعليم البنات لأن المرأة المتعلمة خير من المرأة الجاهلة في تربية الاطفال ، ومن الخير أن ينشأ الطفل في أحضان متعلمة من ان ينشأ في أحضان جاهلة ، وأن التربية الوطنية السليمة انما ترضع مع الحليب فحيثما تكون المرأة يكون طفلها « لقد كتب على المرأة الشرقية أن تعيش خاملة الذكر وضعيفة القدر أحقاباً طوالاً بينما أودعت الطبيعة في حجرها أسرار التربية الخلقية ، وهي بمرکزها السامي وتأثيرها العميق في مستقبل الأمة تبقى عندنا مجهولة المكانة مهضومة الحقوق ، قالوا وكتبوا ولم يعرفوا أن جهل المرأة داؤنا فهذبوها ان أردتهم نهضة حقيقية ، لا ينكر العاقل ان تربيتنا البيتية ناقصة ولا يرجى اصلاح هذه التربية من دون ان نسعى في تهذيب الام . . . هذبوها يا ابناء دجلة والفرات تهذب لكم انفسكم الصالح ، الوطنية الحققة ترضع مع الحليب ، وحب الوطن درس يلحق في حضن الام . نحن لا نطمح اليوم في تزول نساءنا

الى السياسة وأن يجلسن على مقاعد الحكم والادارة في سراي الحكومة بل كل ما نريد أن نرى فتاتنا عارفة بوظيفتها وأن خير وسيلة هي الاكثار من المدارس ، ومن الهار والفضيحة أن لا يكون في العراق غير مدرسة أفاث واحدة بين المدارس الاميرية » (٤٥) .

وقد استمرت هذه النعمة حتى في العقد الرابع من هذا القرن ، ورغم ظهور صحف أولت مشاكل المرأة أهمية خاصة كمجلة الزنبقة ، فقد جاء في عددها الأول « تبحث في كل ما يؤول الى تثقيف المرأة بالموسائل التي اشتهرت بها في الاقطار الراقية وفي الاقطار الغربية عموماً » لكنها مع هذا لم تذهب الى أبعد من زميلاتها بل استمرت تضرب على نفس النعمة حتى لا تثير عليها الاهواء . وفي هذه الفترة بالذات ظهرت صحيفة نسائية لأول مرة في العراق خدمت المرأة خدمة صادقة وأولتها عنايتها الأولى ، تلك هي مجلة ليلى الصادرة سنة ١٩٢٣ لصاحبتها يولينا حسون وهي « مجلة نسائية شهرية غايتها نهضة المرأة العراقية » وكانت بارعة في تجسيم مشاكل المرأة وبخاصة في التعليم بينما كانت حذرة في أمور أخرى لأنها كانت تخشى إثارة الرأي العام الذي يحسب له ألف حساب حينذاك ، حتى ان الكثيرين من هؤلاء المحافظين بدءوا يشبطون عزيمة صاحبتها واعتبروا صدور مجلة نسائية في العراق من الأمور الكمالية السابقة لأوانها ، لاعتقادهم بأن المرأة من الخمول بحيث أن جميع وسائل الانهاض تبدو قاصرة أو كأنها نفخة في

في رماد كما يقولون ، وقد ردت عليهم هذه المجلة فقالت « يفكر بعضهم أن ظهور مجلة نسائية في العراق من الكماليات التي لا حاجة اليها الآن وأن المناداة بنهضة المرأة في العراق نفخ في رماد . هؤلاء وأمثالهم معتادون اطفاء الأرواح ولعلمهم من بقايا الوائدين ، ولكن مالنا ولنفكرهم الرجعي ، وأنى يسمع صوتهم الخافت بين رعود الأصوات الحية الداعية الى التجدد المنعش . لله أتم ايها المنادون بالحياة والساعون الى خير البلاد أتم روح العراق اتم قلب العراق ، قلب العراق شاعر بأنه لن يشفي غليله ما لم تشمل النهضة فتياته فيستوفين حقهن في التجدد الاجتماعي لتصلح أحوالهن وأحوال الامة بهن » (٤٦) .

وقد راحت هذه المجلة في سبيل الغاية التي أنشئت من أجلها ، تتخذ من قصص الفتيات العربيات المشهورات في تاريخنا العربي مثالا يحتذى ووسيلة للوصول الى أهدافها .

كما دعت المرأة الى توحيد جهودها ونشاطها وتكوين نواد خاصة بها ، وفتحت صدرها للكثير من المقالات التي يكتبها أنصار المرأة ، وعالجت طرق الزواج وطالبت بأخذ رأي الفتاة في هذه الناحية ، لنظر اليها وهي تحاول التأثير على عواطف الآباء والأمهات وتلفت نظرهم الى خطورة الزواج القسري على لسان فتاة مكلمة « ليتني آخر ضحية ، أنى للبلبل الشحورور ليحس بأني تائمة في وحشة غابة الحياة ، لا أنس لي إلا بترديد صدى أشجاني الأليمة . يموت كل جزء مني وقلبي

هاديء في نفسي ولا تتوقع روعي عونا من أحد أنا ضحية من كانوا سبب حياتي فسموها أنا ضحية أولياء نعمتي ، قد كنت مثلك أيها العنديل أغنى للطبيعة والطبيعة تبسم لي لأقوم صباحاً فأقبل السماء وأحبي حنائم الأيك ، ولكن أي نعيم على الأرض دام وأي يوم أبيض لم يعقبه يوم اسود . أقبل اليه اليوم الاسود وأنا في الربيع السادس عشر من عمري ، ويأثيت ذلك الربيع كان خريف عمري فما كنت اذوق مرارة حقائق الحياة ، تباً لذلك اليوم يوم زفافي يوم وأدي ، حينما كبت السلطة القهارة يدي ورجلي وأنا بريئة ضعيفة وزجنتي في دار شيخ طاعن السن كأبي ناداني الشيخ الهرم بامرأتي ، فنفت في نفسي سمّاً قاتلاً وأحال قلبي صغراً جلدّاً » (٤٧) .

وتتميز الظروف وتفرض نفسها على الواقع ويخف صوت المعارضين، فلم تعد المرأة ترضى بهذه المكاسب فحسب بل راحت تنادي بحريتها في التوظيف والشمور والاستقلال عن الرجل في شؤونها الخاصة ، فحضرت المؤتمرات ودخلت الحفلات وبدأت شخصيتها في الظهور الأمر الذي أثار حفيظة ذوي العقليات القديمة فملؤا أعمدة الصحف بلهجة قاسية وبخامة في مسألة ظهور مشكلة السفور والحجاب ، ذلك أنهم كانوا يفسرون كل حركة تقدمية على أنها مناهضة للدين وتؤدي بالتالي الى انهيار أسس الاخلاق العامة ، وهذا ما نلاحظه على لهجة الصحف الدينية والتي تسير في ركابها ، ومن ذلك قول مجلة الناشئة الاسلامية عن

السفور « أجل ان المجندين للسفور أناس لا يصهم من الأمر شيء لأن نساءهم وأخواتهم سفروا أو أنهم سافرات ، فلذا يودون تعميمه لئلا يبقوا في معزل ، اننا نناشد هؤلاء الذين أسفرت نساؤهم وأخواتهم ونقول : ما الذي جناه الوطن من وراء ذلك هل تريدون أن تقضوا على البقية الباقية من عفاف نساءنا ، أما يكفيكم السفور الذي نشاهده والمفاسد الكثيرة التي ظهرت ولم يكن يعرف العراقيون بها من قبل ، لقد انحطت أخلاق الشباب وذلك لمطاردتهم للسيدات والتفتيات في الأزقة والطرقات . هل تريدون أن يجتمع الرجل الاجنبي بالمرأة المسلمة بدعوى المدنية التي تزعمونها اللهم لا يقبل بهذا الحال إلا من هو مجرد من كل حمية وشهامة ، كما أنه أقل غيرة من الحيوانات البهيمية لأن الحيوانات تفار على أفانها من الاختلاط مع غيرها إلا الخنزير » (٤٨) .

وتبدو آراء هذه الزمرة ونظرتهم الى المرأة من خلال هذه المقالة التي نشرتها نفس هذه المجلة وفي نفس هذا العدد فقالت « غريب أمر ذلك الرهط من المتجددين والمتجددات ، وغريب أمر هاتيك الصحف التي ملأت أعمدها بالكلام الجاف والتحديث الذي ليس منه فائدة ولا يأتي بباطل . هل المرأة مظلومة ؟ العياذ بالله . هل المرأة مرزأة ؟ العياذ بالله . اذن ماذا بها وماذا دهاها ؟ يقولون انها تتبرم بالحجاب وتستعين بالله من هذا الحجر الذي سيقى اليه مكرهة انها تطلب الخلاص وتسال الحرية فما تستطيع . خلقت المرأة اما ترضع طفلها . وجاءت لتكون

انسا تخرج عن كربها وتفتحت لأن تكون زهرة تؤرج بيتها • لم تخلق لتكون في ميدان العمل تسابق الرجل وتضايقه • ولم تجد بها الطبيعة إلا لتكون معاوناً للرجل في أداء مهمته وحافزاً للقيام بما حباه الله من مواهب وقابليات يستعين على رسالته ، أما غير ذلك فخروج على الطبيعة وشذوذ عن الاجتماع » فمهمة المرأة عند هؤلاء هي أن تبقى في بيتها لكي تخدم الرجل الذي خلقه الله لأمر ليس في مقدور المرأة ان تتحملها •

وقبل أن تترك هذا الجانب لا بد من التعرّيج على علم بارز ادى خدمة كبيرة للمرأة في العراق ، ذلك هو الزهاوي الشاعر المعروف • فقد كان السند الرئيسي الذي اعتمدت عليه المرأة في نيل كثير من حقوقها في العراق رغم ما كان يلاقيه من مضايقات ومشاكل بسبب آرائه حتى ان المحافظين استطاعوا في كثير من الحالات أن يألخوا عليه الرأي العام ويحطوا من قدره وينهشوا عرضه ويرموه بالزندقة والالحاد، بل لقد مرت عليه فترات كان لا يستطيع معها أن يخرج من بيته خشية على حياته ، قال كاتب في مجلة المقاصد السامية بين فضل الزهاوي على المرأة « ظلت المرأة في المشرق قروناً طويلة تعاني من العنف والويل من الرجال ، بقيت آلة مسخرة بيد الرجل وتعد من سقط المتاع حتى هباً الله لها رجالاً أنار الله عقولهم وقلوبهم بتور الايمان والرحمة والهداية ومنهم الزهاوي ولم يبلغ أحد مكانه في ذلك فتقبله بصدر

رحب « (٤٩) •

وحينما تضيق به سبل النشر في العراق كان يبعث بأرائه الى الصحف العربية لما فيها من صراحة لا تناسب الجو العام في العراق •
وحينما كان العراقيون يقرؤون هذه الآراء في الصحف العربية كانوا يشعرون عليها وعلى الزهاوي فيضطر هذا الى التراجع والتوصل من بعض ما كتبه وربما أنكر كثيراً من آرائه في أوقات الشدة •

لنقف أولاً على رده الذي بعث به الى مجلة العلم النجفية يحاول ان يتوصل فيه من مقالة بعث بها الى جريدة المؤيد القاهرية ، قال الزهاوي « قد كان بمرأى من سيدنا ومسمع ، ما أصابني قبل أيام من الاضطهاد والذي أثاره بعض المتعصبين بتفكيره لمقالة اجتماعية نشرت باسمي دفاعاً عن حقوق النساء قبل أن يتحقق الأمر فيعلم أنا كاتبها أم هي مكذوبة عليّ من قبل عدولي في العراق • على أن ظاهر المقالة وان لم تكن مني لا يفيد — معاذ بالله — طعنًا في الشريعة الطاهرة بل كل ما فيها شبهات استفهامية كثيراً ما يأتي الكتاب بصبر وسوريا بأمثالها . . . » (٥٠) •

ويبدو أن التيار المضاد لهذه الآراء كان من القوة بحيث اضطر الزهاوي معه أن يتوصل مما كتبه في جريدة المؤيد القاهرية وإلا فإن في مقالته تلك من الآراء أقل ما يمكن أن يقال فيها انها لا تلائم عصرها وانه

(٤٩) المقاصد السامية عدد ٣ سنة ١٩٤٨ •

(٥٠) مجلة العلم عدد ٩ سنة ١٩١٠ ص ٤١٥ •

دخل في أمور كان عليه أن لا يدخلها لأنها تمس صميم الدين ، لقد حفزنا هذا التراجع من الزهاوي الى محاولة البحث عن المقالة المذكورة في المؤيد لأن الصحافة العراقية لم يكن في مقدورها أن تتقل مثل هذه الآراء الصريحة في صفحاتها . قال الزهاوي تحت عنوان (المرأة والدفاع عنها صوت أصلاحي من العراق) ومما جاء فيه « ... الرجل بدون المرأة قياس عقيم لا ينتج ، هي وحدها تغذية الرجل واعتماده وساعده فما بال الرجل الذي هو ناقص بدون المرأة يدأب في اهانتها وهضم حقوقها . يقول الرجل : أنا أقدر من المرأة واغلف منها رقبة واحد مخلصا واكثر ارتقاء ، فيجب أن أمتع وحدي بالحرية ، وأما المرأة فهي متاع الرجل ، خلقت للذته ، فاذا قضاها جاز له ان يستبدلها بمتاع آخر يجدد ما طاب له مشى وثلاث ورباع ... أجاز المسلمون أن يقسو الرجل فيطلق المرأة ويستبدلها بغيرها كسقط المتاع رادا الى حضنها أطفاله الذين هم تتاج شهوته غير راحم لدموعها ولا مصنع لتشيجها . ما حيلة المرأة اذا منيت برجل شرس الاخلاق فظ بل بوحش ضار يسبها في وجهها ويرفسها برجله ... لماذا لم يجز المسلمون أن تطلقه لتتجو من شرسته وقد قال تعالى (ولهن مثل الذي عليهن) (٥١) لماذا لا يكون لها هذا الطلاق مثلما هو عليها لتعم المساواة . أسألك ايها الرجل من أين لك الحق في أن تطيعك المرأة طاعة عمياء ؟ أترضي لو كنت امرأة ان

(٥١) لم يكمل الزهاوي الآية وهي « ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف

يتزوج عليك زوجك بأخرى ... وليست المرأة المسلمة مهضومة من جهة واحدة بل من جهات عديدة فهي مهضومة لأن عقد الطلاق بيد الرجل ، وهي مهضومة لأنها لا ترث من أبويها إلا نصف ما يرثه الرجل ، وهي مهضومة لأنها تعد نصف انسان وشهادتها نصف شهادة ، وهي مهضومة لأن الرجل يتزوج عليها ثلاثاً أخريات ، وهي مهضومة لأنها مقبورة في حجاب ... وليست المرأة المسلمة مهضومة في الدنيا فقط بل هي مهضومة في الآخرة لأن الرجل المصلي يعطي من الحور العين من سبعين الى سبعين ألفاً ، وأما المرأة المصلية فلا تعطي إلا زوجها ... » (٥٢) .

آراء خطيرة كان من شأنها ان تحدث ما أحدثته من ضجة في العراق ، بل ان جريدة المؤيد نفسها أرادت ان تتخلص من هذه اللهجة الغريبة في آرائها فكتبت تعليقا على هذه المقالة بقولها « تكلم حضرة الكاتب المصلح عن الحجاب ولم يقل أي حجاب يريد أن يرفعه عن المسلمين ، فاذا كان الحجاب الشرعي الذي نزلت به آيات القرآن فذلك لا يوافقه عليه مسلم وقف عند حدود الشريعة الغراء ، ونحن لا نظنه يريد هذا ولعله يحارب هذا الحجاب المعطل عن الارتقاء الملي خصوصا في بلاد الشام والعراق » .

تلك هي الموضوعات التي تناولها المقال في الصحافة العراقية ، اكتفينا بما كان غرض الكاتب منه الاثارة واتخاذ موقف معين من المواقف التي تعج بها الحياة .

الفصل الثاني

الفن القصصي (١)

قامت الصحافة العراقية على أكتاف الأدباء الذين كوتتهم الدراسات الخاصة على الاكثر في وقت لم تكن وسائل التعليم الحديثة منتشرة انتشارا كافيا ، فاعتمدوا على انفسهم في تحصيلهم الثقافي وتكوين شخصياتهم الأدبية ، مجرد بذرة صغيرة في الجوامع أو المساجد والكتاتيب ، تركوها حينما لم يجدوا فيها ما يشبع نفوسهم من الثقافة الحديثة ، وراحوا ينمون هذه البذرة عن طريق القراءات الخاصة التي هيأتها لهم مطابع مصر وسوريا •

والنهضة الأدبية في العراق مدينة للرواد الذين مهدوا السبيل الجيلنا الحاضر ، نذكر منهم صاحب جريدة الرقيب عبد اللطيف اثنان، وابراهيم صالح شكر صاحب الناشئة الجديدة ، واحمد عزت الاعظمي

(١) جل اعتمادنا في هذا الفصل على الصحافة ، وهناك كتب تبحث في هذا المجال صدرت قبل طبع هذا الكتاب فمن أراد المزيد فعليه بها وأهمها فن القصاص العراقي المعاصر للدكتور علي جواد الطاهر ونشأة القصة وتطورها في العراق للاستاذ عبد الاله احمد والقصاص في الادب العراقي الحديث للاستاذ عبد القادر أمين •

صاحب مجلة المعرض ، و ابراهيم حلمي العمر صاحب جريدة المفيد
ولسان العرب ، وجعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف وغيرهم .
ويبدو أن الظروف أرادت أن تخدم البلاد وتهيء لها نهضة في
مختلف فنون الأدب ، فكان لكل واحد من هؤلاء موهبة معينة في فن
من هذه الفنون ، ففهم اللغوي البارِع وكاتب المقال الممتاز والقصصي
والناقد .

والقصة القصيرة من الفنون الأدبية التي كانت ثمرة من ثمرات
الصحافة عرفت بها وتطورت معها ، ومن النادر أن نعر على قصة لكاتب
عراقي نشرت في غير نطاق الصحافة . والظاهر أن شيوع القصة
القصيرة في الصحافة العراقية أكثر من غيرها يعود الى وجود صلة
فيما تضمنه التراث العربي القديم من مقامات وأحاديث وحكايات
امتلاّت بها كتب الأدب العربي القديم ، ومن هنا كان السبيل ممهدا
الى القصة القصيرة ، في حين تحتاج القصة الطويلة الى تركيب فني خاص
قد يسوغ لنا معه أن نقول انه لا عهد لأدبنا العربي به ، اذ المعروف
أن القصة الأدبية الطويلة انما نشأت في وقت متأخر يمكن ان نرده
الى القرن السابع عشر الميلادي بقصة دون كيشوت ، التي تعتبر المظهر
الحقيقي للقصة الطويلة في الآداب الاوربية الحديثة .

واتصال أدبنا العربي الحديث بالقصة جاء عن طريق الترجمة
أولا ، وهذا ما نلاحظه في بعض البلاد العربية التي سبقت العراق الى
النهضة الحديثة كمصر والبلاد السورية ، وأما القصة المؤلفة فقيّد

تأخرت في ظهورها بعض الوقت ريثما تتاح الفرصة لمعرفة خفايا هذا الفن ودقائقه ، وهكذا سارت القصة المترجمة والمؤلفة بعد ذلك جنبا الى جنب . يقول الاستاذ يحيى حقي « فلا ضير أن نعترف أن القصة جاءتنا من الغرب ، وأن أول من أقام قواعدها عندنا أفراد تأثروا بالادب الأوروبي والادب الفرنسي بصورة خاصة بالرغم من أن روائع الادب الانجليزي كانت قد ترجمت الى العربية الا أن الادب الفرنسي كان منبع القصة عندنا » (٢) ولعل رواية زينب للدكتور هيكل أول قصة مصرية تأثرت بالادب الغربي .

اما اتصال العراق بالقصة الحديثة فربما تهيأ عن طريق الصحف العربية التي كانت تصل الى العراق بعد النصف الثاني من القرن الماضي كما نجد ذلك في مجلة الجنان وبعض الصحف المصرية ، وقد جاء أثرها متأخرا ، ذلك أننا لم نلاحظ في جريدة الزوراء ما يشير الى اهتمامها بهذا الفن الجديد رغم حياتها الطويلة ، ولم يظهر اهتمام الصحف العراقية بهذا الفن الا بعد ظهور الصحافة الشعبية التي اهتمت بالترجمة عن اللغات الأجنبية ، وربما كان سبب تأخر ظهور القصة في العراق عن غيره من البلاد العربية أن العراق قد تأخر حصوله على الاستقلال عن الدولة العثمانية حتى الحرب العالمية الأولى ، وكانت اللغة الرسمية خلال هذه الفترة كلها هي اللغة التركية ، ثم ابتعاد العراق عن الحضارة الغربية بحكم بعده عن منطقة البحر المتوسط الذي يعتبر

(٢) يحيى حقي - فجر القصة - ص ٢٠ .

وسيلة اتصال الشرق بأوروبا ، كما أن انتشار الجهل وانعزال المرأة عن المجتمع والنظر اليها نظرة لا تخلو من الشك والريبة ، كانت من العوامل المساعدة على تأخر الفن القصصي في العراق عن غيره من البلاد العربية . وقد ظهرت في بعض الصحف العراقية التي كانت تصدر في نهاية العقد الأول من هذا القرن ما يشير الى شيء من ذلك ، كقول جريدة صدى بابل وهي تنصح المرأة بالابتعاد عن قراءة القصص « لا أشور عليك أن تقرئي الروايات الخيالية لأنها غالباً ما تحرك القلب حراكاً شديداً تخرجه عن طور المحبة المقدس الى الاحساس الشديد لا بل الى الهيجان العصبي فتتولد الاوهام ويؤسر القلب الحر برباطات خيالية لا تجدي قفعا » (٣) .

ومن المحتمل جداً أن تكون هذه النظرة الى القصة نظرة عامة ، لأن أصحابها يخالونها ضرباً من العبث واللهو لا يليق بالرجل المتزن والمرأة المحصنة .

ويذكر الاستاذ جعفر الخليلي صاحب جريدة الهاتف والتي كان لها أثر مهم في تطور الفن القصصي واشاعته ، أن مفهوم القصة « عند الطبقات العالية وأهل العلم وأرباب الأدب في العراق كان عبارة عن لهو وتسلية ، لا يجب أن يلهو بها غير الأطفال والنساء والعجزة ، ومع ذلك

فقرت من القلوب شيئا فشيئا ، حتى صار يقرؤها كثير من الناس دون أن يجهروا بقراءتها ، وكأنهم يقرون كتباً الحادية أو زندقة أو تجنباً للعار لأنهم يخالونها عبثاً ولأنهم يعدونها متعة ، وما زال بعض الناس يعتبر قراءة القصص شيئا لا يستحق العناية » (٤) .

وقد اهتمت الصحف الرائدة التي كانت تصدر في العقدين الأول والثاني من هذا القرن بالقصة المترجمة فحسب ، وكانت تكتفي بالإشارة إلى مصدر الترجمة فنقول انها عن الانجليزية أو الفرنسية دون أن تذكر اسم مؤلفها أو عنوانه بل ان المترجمين في كثير من الأحيان كانوا يضعون لها العناوين من عندهم ، وتجاوزوا هذا إلى محتويات الرواية نفسها ، فحذفوا واختصروا مع الإبقاء على الخطوط العامة للرواية . والذي يلاحظ على هذه التراجم ان اصحابها كانوا يقصدون من ورائها إلى إثارة العواطف الخيرة في الانسان ، كما كانوا يغلبون الناحية التعليمية على ما سواها ، ويدعون من خلالها إلى التمسك بالخصال الحميدة والدين وحب الخير والعمل من أجل الآخرين هذا جانب وجانب آخر هو أنهم كانوا ينظرون إلى القصص على أنها ترويح للنفس من عناء التعب أو تفكها للعقول بعد الجهد ، قالت مجلة الناشئة الجديدة « لما كان القارئ أول ما يتعلمه بعد مطالعة المقالات الأدبية والاجتماعية والنبد المفيدة قراءة الروايات ترويحاً للنفس لما فيها من لهو الحديث وحلو الفاكهة عندنا عمدنا إلى نشر رواية مستقلة في كل عدد من

الناشئة الجديدة » (٥) .

ويذكر الاستاذ محمود تيمور أنه « لم يكن للقصة في مطلع هذا القرن شأن يذكر ، اذ كانت على ندرتها لا تلقى من الحفاوة ما هي أهله ، فما كان للقصة من مدلول في الاذهان الا أنها أحدى أو طرفة أو سر ، وحسبك دليلا على مبلغ تقدير العصر الماضي للقصة أن احدى المجالات الرفيعة في ذلك العهد كانت تقرد لبعض القصص المترجمة بابا عنوانه بالخط العريض (فكاهات) ولعل هذا الانتقاص من قدر القصة هو الذي حمل الدكتور هيكل على أن ينشر قصة زينب بتوقيع فلاح مصري ، ولعله لم يجاهر باسمه في ذلك العهد ترفعا عن أن يعده أدباء عصره راوية حوادث وفكاهات » (٦) .

وهذا هو ما ذهبت اليه بعض الصحف الرائدة في العراق فقد جاء في جريدة صدى بابل « ونعرض أبكار الاخبار ما سيكون عرضة للنواظر وبهجة للخواطر وترويجا للأذهان ، وتفكهة العقول بالذ أطايب الروايات وأصحبها استنادا » (٧) .

وقوله « واصحبها استنادا » عبارة ذات مغزى مهم تضاف الى ما سبق أن قلناه حول تصورهم للقصة ، اذ الظاهر أنهم ينظرون الى القصة باعتبارها حادثة تاريخية فيها شبه كبير من تصور العرب ،

(٥) الناشئة الجديدة عدد ١ سنة ١٩٢١ ص ٨ .

(٦) محمود تيمور - فن القصص - ص ٤٧ .

(٧) صدي بابل عدد ١ سنة ١٩٠٩ ص ٤ .

لها ، تشفي النزعة التاريخية الكامنة في محيطنا العربي ، أي أنهم ينظرون الى الرواية من حيث الحقائق التاريخية ، على نحو ما يظهر في سير الملوك وأخبارهم التي كثرت في الأدب الشعبي ، دون التنبيه الى ما هناك من جمال فني في طريقة العرض والأداء واعتبار القصة من الفنون الأدبية الجديدة ، وهذا بدوره يشبه الى حد ما ، النزعة التي سادت من أول عهد العالم العربي بالقصة ، فقد كانت في جملتها قصة تاريخية ، كالتي نرى كثيرا منها فيما كتبه جرجي زيدان ، ولرواياته تلك أثر كبير في جذب اهتمام القراء في العراق الى الفن القصصي فأقبلوا عليها وقرؤوها وتذوقوها .

وقد ظهر هذا التصور كذلك بصورة واضحة في الروايات التي كان يترجمها الأب الكرمللي ، ذلك أنه قد وعد قراء مجلته منذ عدها الاول بأن يهتم بالرواية قال « وسنكتب في كل عدد من أعدادها رواية تاريخية أو خيالية أو خيالية تاريخية معا يكون موضوعها أحد أبناء العرب ، أو جرت واقعتها في بلاد العرب ، أو لها تعلق بهذه الديار الكريمة أرضا وماء وسماء وسكانا وعمرانا » وفي هذا كله ما يشير الى أنهم كانوا يتصورون القصة على أنها أكثر التصاقا بالناحية التاريخية التي ألفها العرب في كتب السير المعروفة ، ويبدو هذا أكثر وضوحاً في الرواية التي ترجمها الأب الكرمللي في العدد الاول من مجلة لفة العرب تحت عنوان « أحداث إسلامية » وقد أتبع هذا العنوان بهامشي له مغزاه وهو يعلق على لفظة أحداث « للافرنج eged

ويريدون بها رواية حكاية يتناقلها الخلف عن السلف ، تتعلق برجل كبير الشأن امانة أو قداسة أو فضلا أو شهرة مهما كانت ، وأحسن لفظة تقابلها بالعربية كلمة أحدوثة لأنها مشتقة من الحدث ، ويراد بها ما يتحدث به ويتناقله الخلف عن السلف ، ومن هذا القليل الأحدوثة التي عربناها عن الفرنسية وهي عربية النصاب اسلامية السرد حسنة المفزى « (٨) ذلك هو مفهومهم للقصة ، سرد حادثة وقعت في التاريخ تتناول شخصية مرموقة ، وتمتليء بالوعظ والنصح والارشاد والتمسك بالخصال الحميدة والعمل من أجل الآخرين . ولم نعثر على نص لهذه الرواية بلغتها الاصلية ، والا لاستطعنا من خلال هذا كله ان نعرف الاختصار والعنوان وطبيعة الترجمة .

والرواية المذكورة من حلقتين ، كل حلقة في عدد ، ننقل الجزء الاول منها « كان في دمشق الشام في سالف الأيام رجل قد اشتهر بالمال والغنى ولاشهرة قارون أو ثروة هارون ، وكان الناس يقولون عن مبارك هذا ، لقد وافق الاسم المسمى ، فان مبارك قد بارك الله في ثروته ، وكان بيده كنوز الهند وديار العرب ، ويسكن دارا مفروشة بأبهى الفرش وأفخره ، وكان الله قد من عليه بامرأة حسناء ذات فضل وفضيلة ، وأولاد عددهم عدد نجوم الثريا (أي سبعة) ومع هذا لم يكن الفرح من نصيبه لأنه كان قد بذل معظم همه وراء زيادة زهو بيته ، مقتنيا التقائق مزيئا بها داخل مسكنه ، وكان كلما حصل

على شيء ، طلب شيئاً آخر وهو لا يعلم أين المنتهى ، ولا متى يبلغ موئل السعادة القصوى ، اذ لا يزال في تعب ونصب ، وكلما فاز بالمبتغى تولدت في قلبه رغائب كلها غرائب • ومن ثم كان يطوي بساط أيامه وهو يعمل النفس عند النوم بأنه ينال الراحة عند الصباح ، واذا لاح جبين الفجر يقول في نفسه : لعلني أنال المنى عند غياب الشمس وهو لا يعرف ما هذا المنى كما لا يزال على هذا التعليل ، والنفس تفيض بالكآبة لا يسليه مسل ولا يضحكه مضحك ولا يستطيب لذة من اللذات ، وكانت امرأته ترى هذا الحال فتحزن لحزنه ، كما كان أولاده يغمون لغم الوالد ، والجميع من كبار وصغار يفرغون مافي وسعهم وطاقتهم لارضائه أو لتطيب مر أيامه وهو لا يزداد الا تبرما من الحياة وتآففا من العيشة وقد ضجر من هذه الدنيا وما فيها لشبعه منها بل لتخمه • وكان يود ان يموت والموت لا يزداد منه إلا هرباً وبعداً • فسمع ذات يوم أن في بلدة منف من ديار مصر رجل عالم بل حكيم لا بل نبي يستطيع أن يحل أعقد المسائل وأعضلها ويصف الدواء الناجح لأي مرض كان ، فعقد مبارك النية على الذهاب اليه واستفتائه أو استشفائه ، فدعا وصيفه مالكا وكان يثق به كل الثقة وأمره أن ينتخب له من ابله أحاسنها وأن يحمل على واحد من نجبها أسفاطاً يملؤها ذهباً وفضة ويحمل على مهر آخر أنواع الطيوب ، طيوب بلاد العرب ويركب كل منهما مهرا ويظعنان الى منف مقر الوالي العظيم»^(٩)

ويدور الشطر الاخير من الرواية حول وفاء العبد لسيدة وتجشمه المهالك في سبيله .

وقد كانت الصحف العربية وما فيها من فن قصصي المجلال الاول لكثير من أدباء العراق ، حتى يمكننا القول ان اتصال العراقيين بالثقافة الغربية والفن القصصي انما جاء عن طريق الصحف العربية وبخاصة الصحف المصرية ، قبل أن يتعلم العراقيون هذه اللغات ويترجموا عنها مباشرة ، وهذا ما نلاحظه في القصص العراقي الاول ، الذي يدلنا دلالة لا لبس فيها على أن الفن القصصي العراقي تأثر بالفن القصصي في مصر ، وأول من عرف في العراق بالتوفر على هذا الفن هو محمود أحمد السيد ، وبه استهلت حقبة جديدة في تاريخ القصة أشار اليها الاستاذ هير روس مدير المعهد الثقافي الفرنسي في بغداد سابقا قال « ان حركة أدبية جديدة تماما تمثل القصة المحل الممتاز تبدو الآن في العراق قوية بحيث لا يستطيع المجتمع العربي تجاهلها ورفض جاذبيتها ... والقصص الأول ، وهو محمود أحمد السيد ، لم يكن سوى الابن الأمين للمصريين » (١٠) .

والسيد محمود احمد انما تعاطى هذا الفن في الصحافة التي فتحت له صدرها ، فوضع اللبنة الأولى ، في صرح البناء القصصي العراقي .

لقد بدأ ينشر قصصه لأول مرة في جريدة العراق البغدادية ، ثم

تحول عنها الى جريدة الاستقلال ، وهاتان الجريدتان كانتا تصدران في بداية العقد الثالث من هذا القرن الذي شاهد ميلاد القصة العراقية المؤلفة ، واستمر السيد على ذلك حتى ظهرت جريدة العالم العربي فأولت القصة عناية خاصة ونافست زميلاتها في هذا المجال ، ودفعت لكتاب القصة أجورا مغرية استطاعت معها أن تفري القصص الأول ليعمل فيها بالاضافة الى غيره ممن توفروا على تعاظمي هذا الفن ، كما كانت تنقل عن الصحف المصرية قصصا كثيرة من دون استئذان حتى ان القاريء العادي ليحس وكأن الكاتب العربي قد خصها بهذه القصة أو تلك .

ولم يكتف رائد القصة العراقية بذلك ، بل راح يبشر بهذا الفن ويدعو له ، ويخص بعض الادباء ممن كانوا يتعاملون فنونا أدبية أخرى على معالجة هذا الفن الجديد ، كما اهتم بترجمة القصص الأجنبية الى اللغة العربية ، وبخاصة من اللغة التركية التي كان يجيدها ، وكان أول من دعا الى الاهتمام بالأدب الروسي ، وهو اتجاه اقرده به بين كتاب القصة فيما أعلم ، حيث عكفوا في مصر وبعض البلاد العربية الاخرى على الأدبين الفرنسي والانكليزي ، أما القصص التركي فلأنه يمثل أدبا اسلاميا وأما القصص الروسي فلأنه يمثل أدبا شرقيا ، قال « انني أرى ان من واجب الادباء عندما تمهيدا لادخال القصة في أدبنا ، ان يعرضوا علينا نحن القراء نقلا أو تلخيصا أو تحليلا نماذج مما شاع وانتشر في الآداب المختلفة وعلى الاخص الشرقية من روسية وتركيا

فانها تتفق وأذواقنا ولا تكون بعيدة عن نفسياتنا كالقصص الافرنجية التي أسرف في قلمها كتاب لا يفقهون ، وكنت أرغب أن انقل بقلملي من اللغة التركية بعض القصص الكبيرة فلم أوفق لذلك ، لاتي مقصور على اضاءة وقتي الثمين في سبيل الرزق بيد أيي اختلست بعض الساعات في أيامي الماضية فترجمت وأوجزت قصصا مختلفة صغيرة نشرت بعضها وأخرت بعضها الى حين » (١١) .

وقد نشر دعوته هذه في جريدة الاستقلال قبل أن يضمها كتاب الطلائع ، فكان بهذا أول من لفت انتباه الناس الى هذا الفن .

ومحمود أحمد السيد يحدد سلفا وجهة القصة العراقية ، فهو يتصورها على أنها وسيلة يحقق بها الأدب رسالته ، وهي رسالة تشبه أن تكون اجتماعية ، ومن هنا جاءت قصصه تحمل الطابع الاجتماعي الذي دعا اليه صراحة فقال « لا يخفى عليكم ان القصة هي العنصر الأهم من عناصر الأدب العالمي في هذا العصر ، وان واجب كل أديب عربي أن يمارس كتابتها ، وانها يجب ان تكون لغاية واحدة وهي تصوير الحياة الاجتماعية الشعبية ، لتظهر للعيان الجوانب الكاملة والجوانب الناقصة التي يسعى المصلحون الى اصلاحها » (١٢) .

وكثيراً ما كان يستشهد بطريقة أميل زولا وشيخوف وتولستوي ،

(١١) محمود احمد السيد - الطلائع - ص ١٠٨ .

(١٢) ن . ف - ص ٦٧ .

مما يدل على إعجابه بأدبهم ، وعنده ان التتطرق الى جوانب النقص في حياتنا الاجتماعية يزيدنا اندفاعا نحو الإصلاح ، ولكي يتسنى لنا معرفة الفضيلة ، علينا أن نعرف الرذيلة ونشاهدها ، وهذا ما نلاحظه وهو يعلق على قصته التي تحمل عنوان (السكران) حيث يقول « وهذه القصة ستؤلمكم لأنها صورة من أرذل حياة يحياها نوع من الناس في هذا البلد . الحكيم يقول : لكي تكون ذا فضيلة عليك أن تعرف الرذيلة وتشاهدها ولكي تعالج المريض عليك أن تكشف الغطاء عن دائه . وقيل لأميل زولا القصص المعروف : لماذا لا تنزه قلبك عن تصوير رذائل الحياة الاجتماعية ؟ فأجاب : نزهوا هذه الحياة عن رذائلها أولا . وبعد فاني أقول : اني اتخذت حذو أميل زولا والكتبة الروس أمثال شيكوف وتولستوي » ولهذا كانت قصته هذه تمثل جانبا قاتما من جوانب الحياة التي يحياها بعض الناس ، تدور حول فتى قروي يهجر قريته ليعيش في بغداد ذات المظاهر الخلابة والحياة المعقدة ، التي تتسم بها حياة المدن الكبيرة التي تغري البسطاء والسذج بمظاهرها ومفاتها فيقعون ضحية لهذه المغريات ويندفعون في سلوكهم الشائن دون مبالاة ، يعاقرون الخمر ، ويرتادون بيوت الدعارة حتى تغدو هذه جزءا من حياتهم يقطعون ثمنها من طعامهم وشرابهم ومع أن بطل القصة هذا مصاب بداء السل ، يحتاج معه الى رعاية خاصة ، فانه لم يبال بشيء من ذلك ، وأخيرا يتعرف هذا القروي باحدى

المؤسسات التي تقع في شباكه ، فلا يلبث أن يستغل هذا العلاقة الى أبعد حد ممكن في الحصول على المال •

أما مسرح القصة فهو « غرفة صغيرة من غرف نزل حقير يعد للمغرباء في الميدان ، كان يحتله قاسم أفندي وهو فتى في الرابعة والعشرين ، تنظر اليه فتحسبه لقصر قائمه وضخامته صيبا • كان ذات يوم جالسا في غرفته ، المائدة من خشب عادي ، يدخن ، وفوق المائدة زجاجة خمر وزجاجة صودا ، وكأس قذرة من البلور يدينها الى فمه بين دقايق ودقايق فيرتشف منها الخمر بنهم شديد » وهكذا يستمر في وصف الغرفة وأثاثها ، وهو وصف دقيق يتحرى فيه عن كل صغيرة وكبيرة ، فاذا انتهى من ذلك عاد مرة ثانية الى وصف الفتى « كان لون الفتى أبيض ضاربا الى الحمرة ، ينهم عن علة مزمنة فيه ، وكان مزهوا فرحا يفكر في هذه المرأة التي عرفها قبل أسبوعين في المحل العام » • وتنتهي القصة بعد حوار قصير بين بطلها وخدام عشيقته الذي يحمل اليه رسالة منها كلها شوق وغرام •

ومن الذين تأثروا بالسيد محمود في اتجاهه القصصي أنور شاول الذي أولى القصة عنايته الكبيرة تأليفا وترجمة وتشجيعا « وكانت تربط السيد بأنور شاول رابطة صداقة أحكم الأدب روايتها ، ورغم إعداده ليكون شاعرا — وقد كان — فقد ألهم نفسه تميل الى كتابة القصة فتأثر أنور بهذه الدعوة وساعده على ذلك المامه باللغة الفرنسية

فأصبح الرائد الثاني » (١٣) .

وإذا كان محمود أحمد السيد ينشر إنتاجه القصصي في الصحف المختلفة ، فإن أنور شاول أصدر مجلة الحاصد بعد أن كان كصاحبه ينشر قصصه في الصحف العراقية الاخرى .

وأنور أديب كبير يشهد له بذلك إنتاجه الأدبي في الشعر والقصة وثقافته حديثة أخذها من مدارس طائفته اليهودية وبها تعلم اللغة الفرنسية ، وقد ترجم الكثير من القصص الأجنبية بدأها بترجمة (عشرة قصص من الغرب) كانت مثار الإعجاب في حينها ، ضمنها « أربع قصص روسية وخمسة فرنسية وثلاثا انكليزية وقصة واحدة لكل من ايطاليا وألمانيا وتركيا » (١٤) .

وقد بدأ أنور حياته الصحفية بالكتابة في صحف العاصمة وبخاصة في جريدة العالم العربي حتى أصدر الحاصد سنة ١٩٢٩ التي يقول فيها : « أجيل نظري متكلفا باحثا فلا أجد أمامي سوى صحراء قاحلة اعوزتها الأيدي لتعمل في خدمتها ، والمياه تروي عطشها والبنور تنمي فيها الخير العميم فأقف حائرا والمنجل في يدي لا ردد قولي : ماذا أحصد ؟ أسنابل ملئى بالغذاء أم عاقولا وعوسجا ؟ في هذه الأيام التي يجتازها

(١٣) الهاتف — عدد ٦٢٢ سنة ١٩٤٩ .

(١٤) الزمان — عدد ١ سنة ١٩٣٧ .

العراق محدقاً بالاخطار السياسية جئنا بصحيفتنا الحاصد رغم ما هي عليه في بدء تكوينها تدعو أبناء العراق الى أن ييحشوا عن القوة والحكمة والجمال ... تلك حياتنا الأدبية ان جاز لنا الادعاء بأن لنا حياة أدبية فما قولك فيها ؟ أهى حياة الأدب السامي الذي يدعو الى العظمة والحق والى الحب والفن أم هي حياة أدبية ضعيفة نكاد لا نشعر بكيانها ولا نسمع لها حفيفاً ، واذا ما استثنينا الشعر شذراته يلقبها علينا بين الموسم والآخر أحد شاعرينا الكبيرين ومقالات تعد على الاصابع ينشرها في فترات متعاقبة بعض عشاق الكتابة فما هي حصيلة الأدب عندنا يا ترى ؟ إنه لخليق بنا أن نعلم ان طموحنا على الاقتصاد في ميادين السياسة ، وضربنا صفحاً عما عدنا ذلك لمن الهفوات التي قد تفضي بنا الى الفشل لأن علينا أن نحرز قصب السبق في السياسة والأدب والاجتماع والاخلاق » (١٥) .

وقد كانت هذه الصرخة بمثابة صيحة الاحتجاج على الأدب العراقي الذي أخذت السياسة بتلايينه منذ فشل الثورة العراقية ، ومن هنا قصر أنور مجلة الحاصد في حياتها الأولى على الأدب فاهتم بالشعر والمقال والقصة ، غير أنها لم تلبث أن تحولت عن هذه الخطة بحكم الظروف وجعل منها مجلة سياسية حتى لا يقع تحت رحمة قانون الصحافة الادبي وقانون الصحافة السياسي .

وقد أولت مجلة الحاصد القصة عنايتها الكبيرة وشجعت كتابها
ورصدت لهم الجوائز الثمينة عن طريق المسابقات .

ويروج سوق القصة في العقد الرابع من هذا القرن ، وتمتليء
الصحف بهذا الفن اذ قلما تخلو جريدة أو مجلة من قصة أو أكثر وهي
قصص ليس فيها غير سرد الحوادث ، وتدور أكثرها حول حرية اختيار
الزوج أو الزوجة ، اما الناحية الفنية فذلك شيء بعيد عنها اذ يبدو
أن كثيرا من الناس أقحموا أنفسهم على القصة دون أن يعرفوا طرائقها
الفنية حتى صرنا نجد تشابها في موضوعاتها وطريقة عرضها ، قالت
مجلة الحاصد قتهكم من هذا الفيض الغزير من القصص تحت عنوان
(من فضلكم) جاء فيه « أصبحت كتابة القصة موضة آخر زمان
ففلان وعلاءن وفلتان كلهم يسودون الصحائف بالقصص ، وعندما
يجلسون الى أوراقهم ليكتبوا القصة يملؤونها بالكلام الفارغ ،
وقصصهم دائما تكون لقطة بوجه مشرق وضاء كالشمس في رابعة النهار
وعينين ينطلق منهما (المترلوز) يحبها فتى يجب أن يكون وسيما
كطلعة البدر وهي تمسج وتذوب في حبه ، ولكن أباه ، ولعنة الله عليه
وعلى أجداده يكون دائما طماعا شرها يريد أن يزوجها رغم أنها الصغيرة
من شيخ غني ، هذه القصص قرأناها ألف مرة ومرة ٠٠٠ يا أيها المتطفلون
على موائد الأدب أكرمونا بسكوتكم من فضلكم » (١٦) .

ولم يكن هذا غير تهكم من تلك الصحف التي كانت ترى أن عليها ان تشر قصة في كل عدد من أعدادها دون الاهتمام بالناحية الفنية، كما أنه يدل من ناحية أخرى على اهتمام القراء بفن القصص باعتبارها من الفنون الأدبية التي تعد عنصراً مهماً في الصحافة وقرائها .

وتبقى القصة العراقية موجهة تدور في خدمة آراء معينة يغلب عليها الطابع الاجتماعي ومعالجة قضايا ذات مساس بالجو العام وتقاليده البلاد ، وتأخذ قضايا المرأة والمشاكل المتعلقة بحريتها في الزواج والعمل وقتاً طويلاً ، الأمر الذي أدى الى وجود تماثل ممل في كثير من هذه القصص ، فالألب يحمل عقلية قديمة يتصرف بأبنته كيفما يريد ويجبرها على الزواج ممن يريد وحينئذ يقع المكروه تنتحر الفتاة أو تموت غماً وكدرأ ، دعوة الى أخذ رأي الفتاة في الزواج وهذا ما نجده في قصة جريمة الآباء ^(١٧) ، وينظر أصحاب العقلية القديمة الى المرأة نظرة فيها الكثير من الشك والريبة ولهذا راحوا في كثير من قصصهم يشككون الناس بالحرية وانها تعني الفساد والمجون والعبث ، فاحسان طالب مستهتر له في كل يوم ضحية يلاحق فتاة محتشمة ويفريها بمعسول كلامه ، لكن الفتاة لا تلين له في بادئ الأمر حتى يخاطبها بلهجة تستشف الفتاة أنه جاد في الزواج منها كقوله لها « ان حديثك ينم عن فضيلة وخلق ، إلا أنك فتاة تعوزك المرونة تعوزك مجارة المدنية ، اطرحي

عنك التقاليد الشرقية البالية ليس غريباً أن تكوني صديقتي ، اطرحي
عنك وساوسك ، افتحي قلبك لنسيم الحب العذري ، انا بشر مثلك
ولست ذئباً مفترساً « فتلين له الفتاة ولكنها تقول « لا يا احسان أنا
واثقة منك كل الوثوق ولكنني أخشى ، أخشى الفضيحة » (١٨) .

وهكذا يقع المكروه وتنتحر الفتاة ، دعوة صريحة الى تقييد حرية
المرأة حتى في مجال التعليم .

ولم يكد يحل العقد الرابع من هذا القرن حتى قصرت مجلة الهاتف
أكثر نشاطها على الفن القصصي ، تأليفاً وترجمة ، ويعتبر صاحبها جعفر
الخليلي رائداً من رواد هذا الفن ، فهو قصاص ماهر وله اقتاج غزير في
هذا المجال ، كما اتاح الظروف لظهور مواهب شابة في الأدب القصصي
بما كانت تهيؤه لهم هذه المجلة من سبل النشر والتشجيع .

وجعفر الخليلي نشأ في بيت علم وأدب ، تولى غير واحد من أسرته
المرجعية الكبرى للزعامة الروحية الشيعية . . كان والده رجلاً فاضلاً
وأستاذاً للمنطق ، يتقن العربية والفارسية ، وكان من أوائل المقبلين على
ارسال أولاده الى المدرسة العلوية في التجف وكانت في مستوى المدارس
الثانوية ، (١٩) ثم راح يؤم المكتبات النجفية يقرأ ما فيها من كتب
الأدب ودواوين الشعر حتى تهيأت له ملكة أدبية راسخة ، وكان يحضر

(١٨) مجلة الرحاب عدد ١١ ، ١٢ سنة ١٩٤٧ .

(١٩) انظر لمحات عن الخليلي - مشكور الاسدي - ص ٤ .

كثيراً من الحلقات والمساجلات التي يكثر وجودها في هذه المدينة المقدسة ، روى طرفاً منها في مقال كتبه في الراعي قال : « قبل خمس عشرة سنة كنت اذا يمت جانب القبلة من الصحن الشريف في النجف وجدت طائفة من الشيوخ وطلاب العلم قد اختارت كل طبقة منها وكل حزب من أحزابهم مجلساً يجمعهم فيه تقارب الآراء والأفكار أو مبادلة النفع واتحاد الذوق ، فتلك حلقة تتحدث في الأدب والشعر ، فتستحسن قصيدة وتستهجن أخرى كان كل هؤلاء الاعضاء من الشبان الذين سئموا حديث الكوفيين والبصريين وملوا سماع الاختلاف بين تميم في الصرف والنحو ، ومانوا الى التطور والتكيف بصيغة جديدة في الحديث والرأي والعمل ، فلم يكن يدور حديثهم ساعة الفراغ إلا على الجرائد والأخبار والمجلات والمقالات ، وكان هذا الشعور مما يجب اليهم مراسلة الصحف ومكاتبها بقصد التدريب والتعليم » (٢٠) .

وربما كان هذا هو الذي جب اليه العمل في الصحافة ، فما كانت تغلق له صحيفة إلا ليعود الى اصدار أخرى غيرها ، حتى ليتمكننا أن نقول ان صحف جعفر الخليلي تمثل الى حد بعيد تطور النهضة الأدبية في العراق منذ بداية العقد الرابع حتى أواسط الخمسينيات ، فهي لا تمقت القديم لأنه قديم ولا تكره الحديث لأنه حديث ، ولهذا جاءت صحيفة ملتقى الآراء والمشارب والاذواق فتحت صدرها لكل لون وفن ، وأولت القصة عنايتها الكبرى ، بل اننا نستطيع أن نقول ان دراسة

النهضة الأدبية الحديثة في العراق تبدو ناقصة اذا نحن جردناها من الخليلي وصحفه . فالخليلي أديب صحفي خلق للصحافة والأدب وأولع بهما وكانتا جزءاً مهماً من حياته رغم الصعوبات التي كان يلاقيها ، سأله مرة أحد أصدقائه « لو أتيح لك أن لا تكون صحفياً فماذا كنت تكون ؟ قلت : سأكون صحفياً ... صحيح أن الصحافة في هذا البلد مهنة بائرة كاسدة ، احترفها غير أهلها فشوهوها وأنزلوها من عرشها الرفيع ، حتى ذلت وهانت ، ولكن ما حال المغرم بها والعاشق لها ، وما حال هذا الذي يستسهل كل شيء في سبيل الظفر بها . انه عشق أكثر منه شيء آخر ، ولا سبيل الى إيقاف العشق عند حد ، وإلا فأني عاقل لا ينتبه الى هذا المصير ، وما هي درجة عقل الذي يلدغ من جحر عشر مرات .. » (٢١) .

لقد تحمل بسببها الكثير من الخسائر المادية والجهد الأدبي وكان بإمكانه أن يحصل على الرزق من موارد أخرى ، غير أن حبه للصحافة والأدب جعله يستسهل كل صعب .

وأول صحيفة أصدرها هي جريدة الفجر اصادق سنة ١٩٣٠ وهي جريدة يومية لم يصدر منها غير ثلاثين عدداً ، توقفت بعدها عن الصدور . ولم يكن يخلو عدد منها من قصة أو أكثر ، وكانت أول جريدة اهتمت بأدب المذكرات كالذي اعتاد أن يكتبه صاحب (مذكراته أسير) ولا عهد للصحافة العراقية به من قبل .

ثم أصدر الراعي سنة ١٩٣٤ وهي جريدة أسبوعية جامعة تناولت مختلف الموضوعات الفكرية ، وفتحت صدرها لكثير من الادباء الشباب كما اهتمت بنقل كثير من الآراء الحديثة لأدباء مصر .

على أن أهمية الخليلي كرائد من رواد النهضة انما تظهر في جريدة الهاتف التي عاشت عشرين عاماً ، وسوف نقف عندها وقفة خاصة نظراً لما لها من أهمية في مجال الفن القصصي .

وأول ما نلاحظه من ذلك أن هذه الجريدة أنزلت الأدب من مراسيمه وطقوسه في هذه المدينة المحافظة الى حيث يحيا الناس ويعيشون ، وبهذا تكون من الصحف التي ساعدت في القضاء على الاشكال الجامدة التي كان يعج بها الأدب النجفي حينذاك ، وعندها أن الادب لا يكمن في تلك الموضوعات التقليدية التي لا تخاطب إلا قلة من الناس ، ان الأدب الحق هو الذي يعيش على الارض ، ومن هنا راح صاحبها يتخذ أبطاله من سواد الناس بعد أن ينفخ فيهم من الروح الجديدة ، وهم بسطاء سذج ، دجالون مشعوذون ، يحكى على لسانهم قصة الحياة بأسلوب يلائم الصحافة ومستوى الجماهير الثقافي ، وربما اتخذ من الأساطير وسيلة لعرض آرائه في الحياة كما هو الحال في قصة (السعلی) الحيوان الخرافي المشهور ، وهي تدور حول صياد لم يحالفه الحظ لأن يصطاد شيئاً في ذلك اليوم ، ومن فرط ضجره رمى بالشبكة الرمية الأخيرة فاذا بداخلها جسم غريب حمله معه الى البلد فاشتراه منه أحد المارة ، وتبقى هذه السعلی ثمان سنوات ، حتى اذا أشتد عليها أذى

الأطفال تهرب لتعود مرة ثانية الى البحر ، فيعجب أهلها بذلك بعد أن قطعوا الأمل من عودتها ، ثم تعقد معهم جلسة تحدثهم فيها عما شاهدته من الحيوانات الأخرى ، وهنا تبدأ السعلى في السخرية والتهكم ، تقول « واذا بي أمام حيوان غريب يختلف عنا شكلاً وجنساً ، فذيله كائن في ذقنه وهو ما يسمونه بالالحية ... وجئت الى بيته واذا بسكانه يختلفون عنا في الخلقة فهناك واحد بلا ذيل أيضاً شكله محبوب يعلق في أذنه بعض الحلقات الصفراء ، وفي بعض الأحيان كان يدهشني عملها فقد تذهب الى علبة خاصة وتتناول منها مسحوقاً يشبه الدقيق فتطلي به وجهها وكنت أحسب هذا شيء لذيذ ، وقد عملته مرة خلصة عن سكان البيت فلم أجد فيه ما يدل على لطفه ولذته ... يخرج صاحب الذيل من البيت صباحاً فاذا هم بالخروج جاء الشخص المدعو بالمرأة تملى عليه الأوامر : اليوم يجب أن تشتري لحماً ونشتري طماطة ونشتري قرعاً وباذنجاناً ، ولا تنسى أن تجيء لنا بالسمن ، ولا يجيب بغير الإيجاب ثم يأتي دور الصغار ... وبعد ساعتين يأتي ومعه كل ذلك فتصرخ المرأة بالرجل : ها انك لا تزال تأتينا بالفاسد من المأكول فهذا اللحم رديء يجب أن يرد ... وفي بعض الأحيان يكون الرجل كالأسير الذي يقوم بهذه التكاليف مرغماً ولا يستطيع أن يرفض هذه الاوامر التي تملى بها المرأة والأطفال . فأعترضت هنا إحدى السعليات وقالت : لم لا يفر هذا أو يهرب ما دام بإمكانه أن يخرج من البيت . قالت : انه مقيد بقيود غريبة لا تدعه يقلت من هذه الأيدي ، اما قيوده فلا

تزيد عن كلمة بابا، يتفوه بها الصغار ، فهذا البابا هي التي تغريه على العودة الى الدار ، أو هي القيد الثقيل الذي لا مناص منه ، فقالت السعالي : انه أحقق ، أحقق لله ما أكبر غباوة هذا الانسان » (٢٢) .

والخليلي يرى أن كل شيء في هذه الحياة صالح لأن يكون موضوعاً للكتابة ، وأن الكاتب هو الذي يضفي على موضوعه صفات الحركة والبقاء والتأثير ، حينما ينفخ فيه روحاً جديدة .

على أن أكثر قصصه يغلب عليها الطابع الصحفي مع ما يتضمنه من نقد اجتماعي ، وهو أيضاً ما يظهر عند كثير من كتاب القصة في مجلة الهاتف إذ كانوا يؤثرون عرض الحوادث والآراء أكثر من اهتمامهم بالناحية الفنية .

ولم يقدر لصاحب الهاتف البقاء على خطته هذه فحولها الى جريدة سياسية وانتقل بها الى بغداد . ثم أغلقت سنة ١٩٥٥ طبقاً لمرسوم المطبوعات الجديد فكان مجموع عمرها يقارب العشرين عاماً بعد أن صنعت للأدب في وادي الرافدين ما صنعت سنوات طويلة على ما ذكرت مجلة الثقافة الفرنسية (٢٣) .

وظهرت بعد ذلك صحف أدبية كثيرة أولت القصة عنايتها منها مجلة : المجلة والثقافة الجديدة والكاتب والملاحق الأدبية لبعض الصحف اليومية إلا أن أكثر قصص هذه الصحف كان يدور حول

(٢٢) الهاتف عدد ١ سنة ١٩٣٦ .

(٢٣) انظر لمحات خاطفة ص ١٤ .

الموضوعات السياسية التي أوغل فيها الكتاب والشعراء على اختلاف
مذاهبهم واتجاهاتهم ، وأبرز كاتب ظهر في هذه الفترة هو ذو النون
أيوب الذي كان ينشر قصصه في الصحف العراقية المختلفة وفي مجلة
المجلة الموصلية ، وهو من الكتاب الذين تشيع في قصصهم معاني
الحرية والديمقراطية (٢٤) .

(٢٤) ظهرت دراسات أخرى في القصة قبل طبع هذا المؤلف منها
(القصص في الأدب العراقي الحديث للاستاذ عبد القادر حسن أمين
وفن القصص العراقي المعاصر) للدكتور علي جواد الطاهر وكتاب (نشأة
القصة وتطورها في العراق) للاستاذ عبد الاله احمد فمن أراد المزيد
فعلیه بها .

الباب الرابع

الصحافة والشعر

الفصل الاول

التجديد في القصيدة العربية

تحاول الصحف جاهدة ارضاء قرائها بما تهيؤه لهم من معين فكري متنوع يلائم أذواقهم وعقولهم ، والشعر من هذه الناحية ضرورة ملحة لكثير من الصحف ، وبخاصة تلك التي يغلب عليها الجانب الفكري والأدبي ، وربما يصل الامر الى حد التنافس فيما بينها لكسب هذا الشاعر او ذاك الى جانبها ، وقصة تنافس جريدتي الاهرام والسياسة المصريتين على المرحوم شوقي غير بعيدة عنا ، فالصحافة من فاحتها تريد أن تكسب أكبر عدد ممكن من القراء ، وهؤلاء يقبلون على الصحيفة التي يجدون فيها ما يغذي أرواحهم وعقولهم ، وبهذا تكون الصحيفة قد قامت بعملية مزدوجة الى حد بعيد وخاصة بالنسبة للشعراء الناشئين الذين يريدون أن يشقوا طريقهم الى الحياة الادبية الواسعة ،

فهي وسيلة من وسائل التعريف بهؤلاء الشعراء ، تكشفهم ومن ثم تقدمهم الى قرائها ، وبهذا تضيف الى قائمة الشعراء الآخرين شاعرا جديدا يستطيع أن يثبت وجوده كرائد من رواد الفكر والادب .

فالصحافة منذ وجودها — ما زالت — السبيل إلا مثل الى ذبوع كثير من الشعراء وتعريف القراء بهم ، بل ان شهرة الشاعر رهن بقراءة الصحيفة ، وهناك فرق بين شاعر وجد قبل ظهور الصحافة وآخر وجد بعد ظهورها ، فالشاعر القديم كان يخاطب صفوة من الناس يوقف أدبه في سبيل خدمتهم ، وهو بهذا يعبر عن مرحلة فكرية وثقافية معينة ، أما الشاعر الحديث فصار يخاطب ملايين الناس في بلده وربما في غير بلده فان فهمه الناس ووجدوا فيه انفسهم ربح الشاعر وصار جزءا منهم يبحثون عنه أنى وجدوه والا كان شيئا آخر .

فالصحافة منذ وجودها — وما زالت — السبيل الأمثل الى ذبوع في صالح القصيدة الشعرية من الناحية الفنية ، لان الشعراء انفسوا بالصحافة وأصبحوا اسرى بريقها الوهاج الامر الذي انساهاهم انفسهم فلم يعودوا يعنون بالنفن لذاته ، وانما صاروا يجولون في دوامة هذه الاحداث المتغيرة ولا يكادون يتعدون عنها ، بل لقد تحولت القصيدة الى مقال صحفي ، سارت معه في نفس الاتجاه ، فكان الشعراء كاخوانهم من الكتاب يستجيبون بسرعة لهذه الحوادث المتغيرة ، حتى ان الذي يتمن في دراسة الصحافة المراقبة يلاحظ تعادلا في هذا المجال رغم اختلاف طبيعة الفنين وطريقة تناولهما لهذه الحوادث ، وليس العنوان

في القصيدة الحديثة غير اثر من آثار هذه الحوادث المتغيرة التي رأيناها
في المقال الصحفي .

فالموضوعات التي عالجها المقال في الصحافة العراقية هي نفس
الموضوعات التي عالجتها القصيدة الشعرية في الصحافة العراقية ، بل
ان القصيدة ذاتها تحولت الى مقال منظوم ليس فيها ما يميزها غير هذا
الوزن وتلك القافية التي تلحق بآخرها وسوف يبدو لنا هذا واضحا
بصورة عملية بعد قليل ونحن ندرس اتجاهات القصيدة والموضوعات
التي عالجتها ، اما ما ذكره الاستاذ منير بكر في كتابه (الصحافة
العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية والثقافية) حينما جعل
القصيدة رائدة للمقال في الصحافة العراقية ، وأن مهمة المقال هي شرح
هذه القصيدة أو تلك ، فليس له سند من الواقع يؤيده ، قال الاستاذ
منير « فاذا ما حدثت في المجتمع حالة سياسية انبرت القصيدة للخوض
في هذا الموضوع ، وتهافت الشعراء على نظم ما يبرز هذه الناحية
واذا ما حدثت حادثة اجتماعية قامت القصيدة للتعبير عن ذلك على
صفحات الصحف ، ثم يأتي دور المقالة بعد ذلك معلقة وشارحة ما تهدف
اليه القصيدة ، من هذا يتضح أن القصيدة في الصحافة العراقية كانت
أقوى تعبيرا وأعمق تأميرا من المقالة » (١) .

* وعبارته الاخيرة (من هذا يتضح . . .) توحى للقاريء ان الاستاذ

(١) منير بكر - الصحافة العراقية واتجاهاتها السياسية والاجتماعية

المذكور استطاع أن يصل الى حقيقة علمية من خلال أمثلة عملية توصل اليها بعد البحث والاستقراء حتى وصل الى هذه النتيجة الحاسمة ، في حين لا يدل واقع الحال على وجود شيء من ذلك ، فالباحث لم يكلف نفسه عناء البحث عن حقيقة اعتقد جازما أنه توصل اليها • وليس في الصحافة العراقية شيء يشير الى ذلك البتة كما أن المنطق يفرض هذا الزعم ويأباه ، ولو كان الامر كذلك لتحوّلت الصحافة الى مجرد شعر، ولأصبحت وظيفة الكتاب في أن ينتظروا ما يقوله هذا الشاعر او ذاك ومن ثم يأتي دورهم كمعلقين وشرح ويكتفون بهذا فحسب •

ان أبسط الناس يعرف جيدا ان قراء الصحف ليسوا على مستوى ثقافي واحد ، وانا لكي نفهم القصيدة الشعرية نحتاج الى مستوى ثقافي وفكري اكثر مما قد نحتاجه لفهم مقالة ثرية حتى ولو تشابه غرض المقالة مع غرض القصيدة •

وفي كثير من الاحيان يتعذر علينا ان نعر على قصيدة واحدة في اعداد كثيرة من صحيفة بعينها ، فهل معنى هذا ان صاحب الجريدة يجب ان يغلق صحيفة او يتفرج على ما يجري حوله لانه لثم يجد قصيدة يعلق عليها ؟

افنا لا نستطيع ان نتصور في يوم من الايام ان تتحول المقالات الافتتاحية الى قصائد شعرية فيها الكثير مما يريده الناس عن هذه الحوادث المتغيرة بين لحظة وأخرى والصحافة العراقية ذاتها هي خير رد عملي على هذا الرأي وذلك منذ صدور الزوراء حتى آخر صحيفة

صدرت في العراق ، ومن منا يستطيع أن يأمر شاعرا بعينه لكي يقول قصيدة في كل وقت وفي كل حادثة ، فاذا اضفنا الى هذا كله ان جل الشعراء الذين يعيشون في الفترة التي درسها الاستاذ المذكور هم من الشعراء الذين أصطلح الناس على تسميتهم بالشعراء الكلاسيكيين أدركنا خطأ هذا الرأي ومدى بعده عن الواقع .

فالقصيدة الشعرية اذن ليست طليعة للمقال في الصحافة العراقية أو غير العراقية ، كما لا يمكن ان تكون المقالة ذيلًا تابعًا للقصيدة الشعرية همها الشرح والتوضيح ، ذلك أن الحوادث التي تؤثر في الكاتب هي نفسها التي تؤثر في الشاعر ، ومن ثم يعبر كل منهما بطريقة الخاصة أو بأسلوبه الخاص .

ومن فاحيتنا كقراء فافنا نحتاج الى كليهما ، مع ان الاثر الذي يمكن ان تتركه هذه القصيدة أو تلك المقالة يختلف بالنسبة لميولنا وأذواقنا وتكويننا الفكري والثقافي .

وليست الحقيقة سوى وسيلة ثقافية عامة تلتصق بحياة الجماهير أكثر من أي شيء آخر ، وهؤلاء يختلفون في ثقافتهم وأذواقهم ، فمنهم من يتذوق الشعر ويعجب به ، ومنهم من لا يوليه تلك العناية المهمة وحتى هؤلاء الذين يقرؤون الشعر أو يتذوقونه يختلفون في مدى الفائدة التي تترتب على هذه القراءة . لقد تركت الصحافة آثارًا بعيدة المدى على اللغة والأسلوب ، فمن غير المعقول أن لا يتأثر بها الشعراء

في أساليبهم وموضوعاتهم (٢) •

ويبدو أن هذه النظرة جاءت كنتيجة طبيعية لتفسير الشعر تفسيراً تاريخياً متعلقاً بالحوادث الاعتيادية اليومية ، مع أن الشعر لغة خاصة تختلف عن لغة النثر ، فقايل اللغة العادية يعرف جيداً أن الفاظه تتحول الى افعال محسوسة اكثر ما تكون التصاقاً بحياة الناس عن طريق الدلالات الكامنة فيها لانها تعبر عن المعايير والاغراض العملية ، أما الشعر فان له لغة خاصة به ، والا كان عبثاً لا طائل منه ، فليست مهمة الشاعر في أن يعبر عن الامور العملية التي يحياها الناس حيث هي ليتحول بعد ذلك الى ما يشبه التاريخ ويبقى يدور في هذه الحلقة التي لا أول لها ولا آخر •

اننا بهذا نصرف الشعر عن منزلته التي وجد لها الى متاهات معوجة من الحوادث المستمرة •

أما أحكام الجمهور فلا يمكن الانتقائات اليها من هذه الزاوية لانهم ينظرون الى الشعر نظرة خاصة يأخذون منه ما يريدون حتى

(٢) لقد فطن الى هذه النقطة الاستاذ الدكتور عبد اللطيف حمزة في المقدمة التي كتبها للاستاذ منير بكر في كتابه المذكور ، جاء فيها : (انني اخالفه في نقطة واحدة وهو انكاره ما للصحافة على القصيدة الشعرية في كل اتجاهاتها ، وعندي ان الشعراء كانوا ينظمون اشعارهم في نفس الاتجاهات التي كان الكتاب يكتبون فيها مقالاتهم هذا فضلاً عن التغير الواضح في الالفاظ والاساليب الشعرية بتأثير الصحافة فقد كانت هذه الاساليب مخالفة كل المخالفة لالفاظ الشعراء القدماء) .

إذا اعترضت سبيلهم فكرة لا قدرة لهم على تصورها نبذوها دون ان يبحثوا عن السبب • نعم يهربون من الشعر الذي يحمل في ثناياه افكاراً عميقة لانهم غير قادرين على تصورها ، الامر الذي يضطرهم في الحكم على قصيدة بعينها بمقدار ما فيها من آيات هي بمستوى نظرهم ، بل وربما كانوا عاجزين عن ايجاد صلة بين اجزاء القصيدة الواحدة مع ان قيمة البيت لا تظهر الا في هذه الصلة ذاتها •

لقد أدخل الكثيرون من الباحثين القدماء والمحدثين في الشعر أموراً ليست منه وشوهوا محاسن وجهه ، كل ينظر اليه من زاوية الخاصة والميدان الذي يجول فيه •

يقول الدكتور لطفي عبد البديع في مقدمة كتابه التركيب اللغوي للادب « لقد ارهقته البلاغة بمنطقها الصوري الذي فتنت فيه الحقائق الشعرية وأغرقه طوفان التاريخ والجغرافية في متاهات السهول والجبال والعصور والاجناس والتوى به علم النفس الى غير غايته ، وأفضى به علم اللغة والنحو الى طريق مسدود ثم توزعته الأهواء فلم تصح فيه قضية ... وإذا قيل لهم ان البشرية تتلمس في شعر شعرائها اصواتها الخالدة التي تتجاوز حدود الزمان والمكان هن كتفيه وقال : وجهة نظر لها عندنا ما يعدلها في أبواب العلوم والمعارف » (٣) •

ان الشعر لم يفقد قيمته الروحية الا حينما نزل الى مستوى هذه الاحداث ليتحول الى مجرد مقطوعات منظومة تعكس عصره بعينه لا

(٣) انظر مقدمة التركيب اللغوي للادب للدكتور لطفي عبد البديع .

ينأى عن هذه الحوادث العابرة التي تظهر بين لحظة وأخرى ، وسوف يبدو لنا بعد قليل كيف أن كثيرا من الشعراء العراقيين أنهمكوا في زحمة هذه الاحداث ليأتي شعرهم بعد هذا أكثر تعبيراً عن تطور الاحداث السياسية والاجتماعية في العراق منه الى شيء آخر .

ولكن نعطي صورة صادقة عن الشعر في صحافتنا العراقية علينا أن نتذكر ما سبق أن قلناه في الفصل الثاني من الباب الاول ، من وجود اتجاهين ثقافيين يمثل أحدهما بالثقافة العربية الأصلية التي وجدت مكانها في الجوامع والمدارس الملحقة بها ، واتجاه آخر تأثر بما كان يجري في البلاد العربية المتقدمة أو في عاصمة الدولة العثمانية ، وهو اتجاه ثقافي حديث تأثر به العراقيون فظهر ذلك على اتناجهم الادبي .

لقد ترك هذان الاتجاهان أثرهما على القصيدة العربية التي ظهرت في الصحافة ، بل اننا لنلاحظ غلبة القصيدة العربية التي تنحو منحى تقليدياً على الصحف التي كانت تصدر قبل الحرب العالمية الاولى ، وبعبارة أوضح غلبة الاتجاه الذي ما زال يعيش كما لو أنه وجد في القرن التاسع عشر .

أما الاتجاه الآخر والذي تأثر بالتيارات الفكرية الحديثة فإنه حافظ على الشكل الهندسي للقصيدة العربية ولم يغير إلا في الموضوعات فحسب ، وهؤلاء هم المجددون على رأي بعض مؤرخي الادب العربي الحديث .

لقد احتفظت الصحافة العراقية بهذين الاتجاهين في وقت واحد ،

فكالت عن الشعر الذي يهتم بالموضوعات الجديدة ويراعي أحوال العصر ، انه شعر عصري ، تمييزاً له عن الشعر الذي لا يعبر هذه الموضوعات اهتمامه .

أما ما ذهب اليه البعض من تعميم حينما أعتبر الشعر العراقي حتى نهاية الحرب الأولى استمراراً لحالة الشعر في القرن التاسع عشر ، فليس له نصيب من الواقع ، لأنه نسي الموضوعات الحديثة التي طرقها بعض الشعراء ، وحكمهم هذا مبني على أساس انزال العراق عن العالم الخارجي حتى هذه الفترة المذكورة ، وهذا ما أثبتنا خطئه في فصل سابق ، كما ان الصحف العراقية التي كانت تصدر في بداية هذا القرن حفلت بالكثير من شعر الرصافي والزهاوي وغيرهما ممن كانوا ينحون منحى عصرياً (٤) .

أن مسألة القديم والجديد في الشعر العراقي ، تلك التي شغلت الصحافة زمناً طويلاً مسألة ولدها التطور الذي طرأ على الحياة العربية،

(٤) ومن اصحاب هذا الرأي الدكتور يوسف عز الدين حيث ذكر في كتابه (الشعر العراقي المعاصر) ما نصه « هذه الثماني عشرة سنة من حكم الانراك في العراق لم تكن الا استمراراً لحالة العراق في القرن التاسع عشر وتكاد تكون جزءاً لا يمكن بتره عنه . . والاسلوب الذي سار عليه الادباء هو نفس منهج القرن التاسع عشر ، العناية باللفظ عناية تخرجها الى حد التزويق المعجوج الذي تملئه النفس ، إضافة الى الموضوعات التي طرقها الشعراء كانت موضوعات تافهة يبالغ فيها الى حد الاسفاف ولاسيما في المديح والثناء » .

غير ان القديم — وهذا امر طبيعي — لا يمكن القضاء عليه بجرة قلم، والحرب التي أعلنت عليه لا تبررها ظروف البلاد ومقدار حظها من الثقافة الحديثة ، مع ان هذا القديم يمثل حركة فكرية لها دورها ، ولعل اصحابه لم يجدوا في هذه الحياة الجديدة ما يمكن أن يفريهم بها .
ذات النهضة ما زالت في بدايتها ، وتغيير ما تعارف عليه الناس بهذه السرعة أمر ليس باليسير .

لقد حمات الصحافة وكتابها حملة شعراء على كل شعر يسبق فترة الدستور ، ووصفته بأنه شعر تقليدي يحمل طابع التشابه في اغراضه وفي صنعته ، وان اصحابه كانوا يعيشون في غير عصرهم، ومع ما في هذا من تحامل كان من أثره على المدى البعيد تهيئة جيل من الشعراء استمروا يعكسون الحوادث المتغيرة فحولوا الشعر من مجرد فن جمالي الى مجرد وسيلة من وسائل الدعاية والاعلام لخدمة هذه الفكرة او تلك ، حتى اننا لنستطيع أن نقول ان الموضوعات التي طرقها شعراء ما قبل الدستور كانت اقرب الى الموضوعات الشعرية من تلك التي طرقها الشعراء المصريون ، والتي أصبحت مسلة بعد ان تناولتها أيدي كتاب المقالة وكتاب القصة بالاضافة الى القصيدة الشعرية .

أما مسألة الصنعة ، هذه النغمة التي يرددها الكثيرون ممن درسوا شعر ما قبل الدستور ، فلا تعدو أن تكون تقصيرا من جانب واحد حينما نردد احكاما ارتجالية لا تعبأ الا بالظواهر يرددها الخلف عن

السلف كحقيقة مسلم بها .

ليس الادب مسألة تافهة حتى يشغل الشاعر نفسه بتجميع هذه الزخارف يلهو بها ويضحك منها على نفسه وعلى الآخرين ، وقد بما قالوا عن أبي تمام هذا القول مع أن للرجل عبقرية تحتاج الى دراسة خاصة لكي يعرف الآخرون من هو أبو تمام .

فنحن لا نملك الحق في ادانة فترة كاملة بما فيها من ادباء وفجردهم من صفة الشعور بالمسؤولية لمجرد وجود صفات معينة في القصيدة .
أدباء الفترة المظلمة - كما يسمونها - لم يكونوا مغرمين بهذه الصنعة لذاتها ، انهم يعيشون في عصر غريب ، ليس فيه ما يفرهم به ، وفي كثير من الاحيان يظهر شعراء يتلهون بهذه الاشكال وهم الى هذا كله يقصدون حينما لا يجدون في عصرهم ما يستحق ان يعيشوا له ، فتتكون عندهم من خلال هذا كله نظرة خاصة فيها الكثير مما يعبر عنهم ويعبر عن عصرهم ذاته وبهذا يستطيع الباحث أن يعتمد على هذه الظاهرة الغريبة في دراسة العصر والاتجاهات المختلفة فيه .

أدباء ما قبل الدستور متشائمون ، ولهذا ما يبرره انهم لم يروا في هذه الحياة التي يحيونها ما يدفع عنهم هذا التشاؤم فعاشوا الاثراهم وليس التشاؤم غير احساس نحو حياة أفضل ولكن لا قدرة لهم على ذلك . هم يحسون أنهم عاجزون ويحسون أنهم متخلفون ويحسون أن في نفوسهم عالما قائما في ذاته يريدون ان يحققوه دون جدوى ، انهم غير قادرين على ان يحدثوا تغييرا فالظروف المحيطة بهم أقوى منهم ،

ومن هنا راحوا يبحثون في دخيلة أنفسهم عن كل ما يسد هذه الثغرة،
وحينما لم يجدوها في عصرهم ، وجدوها في حياة العرب الاولى ،
فاستلهموا الماضي وأعجبوا به ، وذهبوا الى حد تنديسه ، وجعلوا منه
مثالا يحتذى في كل ما يقولون ، ذلك هو منتهى الاحساس والشعور
بالمسؤولية وهو لا يخرج في اصطلاحنا الحديث عن الادب الثوري ،
فنحن لكي نحث الآخرين على الثورة قد لا نستعمل الاسلوب المباشر
لما قد يكون فيه من محاذير ، ولهذا نختار طرفا أخرى ربما تكون اكثر
فاعلية من أسلوب الزجر والحث ، واحدى طرق الوعي والحث لتغيير
حالة من الجسود الى الحركة هي التاريخ، والتذكير بهذا التاريخ وما فيه
من امجاد ، وللعرب صفات معينة في أدبهم تعاطوها أيام قوتهم وصولتهم
فلا بأس من اعادتها اليهم أيام ضعفهم ففيها ذكرى تنفعهم لتحديث حالة
من التغيير نحو الأفضل .

وفوق هذا وذاك فهم يعيشون في بيوتهم أو في مساجدهم ، ومعنى
هذا أن غذاءهم الفكري واحد لم يتبدل أدب عربي صميم وعلوم دينية
أو شرعية ولا شيء غير هذا ، وحتى هذه قد لا تكون متوفرة الى ذلك
القدر الكافي بحيث يسهل تناوله وتداوله ، كما ان الطباعة لم تنتشر
بعد ، ولذلك فهم معذرون وما جاء منهم ففيه الكفاية .

لقد حفلت الصحافة العراقية بنماذج كثيرة من هذا الشعر ،
وبخاصة في الربع الاول من هذا القرن ، لتدل على أن رواده كثيرون
وعلى أن قراءه كثيرون ، وهذه ظاهرة أخرى تستحق الاهتمام في وقت

فتحت فيه أبواب العراق على العالم الخارجي المتقدم ، الامر الذي يجعلنا نعتقد أنهم ما زالوا يعيشون في عالمهم الخاص وأنهم لم يروا في هذه التبدلات سوى مظاهر خادعة ليست لها تلك القوة التي تفريهم بها ليعبروها اهتمامهم ، فأوضاع البلاد ما زالت تن تحت وطأة دخيل حيث كانت يريد أن يستل روح هذه الأمة ومقدساتها ، ولهذا فلا داعي لأن يغيروا اتجاههم ، ومن هذا الشعر نأخذ المقطوعة التالية التي نشرتها مجلة لغة العرب :

يا ربة الخلخال والبرقع	أوعي لما أقوله واسمي
فان حلاك القلى مرة	وغرك الواشي بما يدني
كنت بأيام الصبا عادة	فهل لأيامك من مرجع
عودي الينا بعد فرط الجفا	كالشمس مذ عادت الى يوشع
ققي وطلبي دمة عندما	على طول العرب والاربع
واستطقي الاحجار عنهم أما	جنوبهم ملت من المضجع (٥)

هذه المقطوعة ، من الشعر التقليدي على رأي بعض مؤرخي الادب المجرد وجود ألفاظ معينة كالخلخال والبرقع والاطلال والاربع وغيرها من الألفاظ التي يجعلونها قاصرة على العهود القديمة ، اننا لا نستطيع أن ننظر الى هذا الشعر من هذه الزاوية ، فالشاعر هنا يخاطب ذلك المجد الذي هجر هذه الربوع منذ أمد بعيد ويناشده أن يعود بعد هذا الجفا الطويل ، انه يتذكر تلك الايام الزاهرة أيام

الصبا يوم كانت امته عزيزة الجانب ترفل بالعلوم والمعارف فعم خيرها
مختلف الأصقاع ، حتى اذا كان هذا الواشي وكان هذا الغريب هوت
الأمة في حالك الظلام ، لتتحول تلك الحضارة الأصلية الى مجرد معالم
تنطق بها وأطلال تنبيء عنها ، فاذا انتهى الشاعر من هذا كله تحول الى
تأريخ قومهم وينبهم من هذا الرقاد الذي ملت منه حتى المضاجع
فلماذا لا يكونون مثلهم اذن وهم ورثة تلك الحضارة وذلك المجد .
ان هذه الزمرة من الشعراء ارادت احياء الأمة عن طريق بعث
أمجادها ، ووسيلتهم الى ذلك انما تكمن في احيائهم للرموز اللغوية
القديمة التي كثر تداولها أيام مجد العرب ، يقول الاستاذ الدكتور
لطفي عبد البديع في كتابه الشعر واللغة وهو يتحدث عن دور البارودي
في هذا المجال « ونحسب ان التقدير الصحيح لصنع البارودي ينبغي
أن يتجه الى لغته الشعرية ، ولم يكن عمله في هذا الباب الا احياء
للموز اللغوية القديمة التي عرفت في العربية في عصورها الزاهرة ... » (٦).
وهذه هي سبيل الشعراء الذين يوصف شعرهم بالشعر التقليدي .
ليست الصحيفة من السداجة بحيث تنقل شعرا لا يستسيغه
الناس ولا يقبلونه ، ان كثيرا من القراء ما زالوا يجدون في أمثال
هذه النماذج مثلهم العليا ، ففيها ما يشبع تطلهم الى العظيمة التي
افتقدوها منذ زمان .

ويبقى هذا الشعر يلح على القديم ، حتى وهم يصفون المظاهر

(٦) الدكتور لطفي عبد البديع - الشعر واللغة - ص ١٠٢ .

المادية الحديثة ، هم يستلهمون الماضي ويقدمونه مع انهم يصنفون
الاختراعات العصرية التي هالتهم بدقة صنعها وتركيبها ، بل انهم ما
انفكوا يعلنون بين آوية وأخرى ان هذه الاختراعات وهذه الحضارة
الجديدة لم تكن إلا حضارة آبائنا وأجدادنا أخذوها عنا ليعيدوها الينا ،
وفي الوقت الذي قعدنا نحن ، بقواهم سائرون ، ننظر الى هذه القصيدة
التي يصف فيها صاحبها القطار ، وكيف جعل منه وسيلة لان يتذكر
فيها أيام عز العرب ومجدهم ، بل ويعقد مقارنة بين هذا الاختراع
الجديد ، وبين الابل التي تتقاطر في الصحراء ، ويشبه سرعته مرة
بقطيع من الغزلان ومرة أخرى بالنوق المراسيل دون ان ينسى الغزل ،
هذه الطريقة المألوفة في شعرنا العربي القديم ، قال الشاعر :

أنفت ان تمس وجه الصعيد	فتغشت محجة من حديد
وغدت تنهب السباب ركضا	فقدنا للقريب كل بعيد
كلما هزها الى السير شوق	أخذت في الحنين والتغريد
فهي طورا ضئر أضلت فصيلا	وهي طورا كقينة ذات عود
وهي حينا ذات الخلخل خود	وأواها كراسف في قيسود
فكأن الغناء والصدح والبغ	م روتيه والبأس عن داود
كلما أفحل المسير قواها	جددوها بالنار ذات النوقود
لو تبارى النوق المراسيل فيها	ساريات من غيب وشهود
لأرتها في ساحة السبق ممشى	عرش بلقيس في يد التأييد
وأرتها بساط ريح سليما	ن عيانا محشدا بالجنود

ورشا يفضح العيون بقصد وغزال النقا بعين وجيد
 من نحيل الاعطاف يهتر قسرا عطفة لاضطراب ورد الخدود
 مثل سرب القطا تجر قطارا نظمته الأسلاك نظم العقود
 ان تمثت من بأسها ترجف الارض حذارا منها فيا أرض ميدي
 واذا نوديت بهلا امتلأت فتناديهم بهل من مزيد
 عودتها عليه حكمه (وط) ياعيدا فديته من عبيد
 ذاك علامها امام هداها علم مفرد بغير نديد (٧)
 ومع أن الشاعر يصف آلة حديثة فانه لم يستطع أن يتخلص مما
 هو كامن في ذاته ويعيش معه ، فكائنات الناقة والغزلان ، ليعكس بهما
 وبغيرهما ثقافته وروحيته وهذا ما لا حظناه وهو يكثر من ترديد بعض
 الآيات القرآنية ، في عدد غير قليل من أبياته ، ولا مجال بعد ذلك لأن
 نحكم بالصدق والكذب على هذا الشعر لأن المسألة مسألة خلق فني ،
 فللشاعر عالمه الخاص الذي يتصوره هو لا ما يتصوره الآخرون . ويستمر
 هذا الشعر حتى الحرب العالمية الثانية رغم ما أصاب البلاد من تطورات
 مختلفة في مجالات السياسة والثقافة والفكر بفعل اتصال العراق بالثقافة
 الحديثة ونشوء المدارس والكتليات المختلفة ، إلا أن أهميته تبدأ بالخفوت
 بعد العقد الرابع من هذا القرن بفعل تناقص أصحابه من الشيوخ لينشأ
 بعدهم جيل من الشباب تلقى دراسته في هذه المدارس الحديثة التي
 وجدها ميسره له فتأثر بها ولم يعد يهتم بهذا الشعر بل صار ينظر اليه

نظرة أخرى فيها الكثير من الأزدراء •

ذلك جانب واحد من الشعر أهتمت به الصحافة ، وإلى جانبه لون آخر يسمونه بالشعر العصري ، اهتمت به الصحافة واحتضنت أصحابه واحتفت بهم أكثر من احتفائها بالشعر الذي ذكرناه ، منذ العقد الاول من هذا القرن ، وسوف نقف عنده وقفة خاصة لما للصحافة من أثر على هذا الشعر •

ولعل أول ملاحظة يراها الباحث وهو يقارن بين هذين الاتجاهين هي أن الشعر القديم أقرب إلى روحية الشعر من هذا الشعر الذي لا يعدو في كثير من الأحيان عن وصف ظاهري حسي ليس فيه ما يميزه عن الكلام العادي سوى هذا النظم الذي فيه •

ويبدو أن الموضوعات التي طرقها الشعراء العصريون هي العلامة الفارقة بين كون الشعر قديماً تقليدياً وبين كونه حديثاً عصرياً ، أما الناحية الفنية فلم تكن في الحسبان فالزهاوي والوصافي ، هذان الشاعران اللذان شغلا الصحافة منذ اعلان الدستور العثماني حتى الحرب العالمية الثانية ، هما شاعران عصريان لأنهما تناولوا موضوعات حديثة ذات مساس مباشر بالحياة العصرية ، كما يقولون ، ولكنهما مع هذا لم يتخلصا من القديم بالمرّة كما كانا يدعيان بل اتنا لنجد في شعرهما ما يدل على القديم بعينه وهذا هو الزهاوي يقتخر على طريقة الاقدمين •

انني اليوم شاعر وبشعري أفاخر

أنا في الشعر أول أنا في الشعر آخر

أنا كالصبح صادق أنا كالبحر طاهر
لست أخشى سريري يوم تبلى السرائر^(٨)
ويقول الرصافي :

الشعر مفتقر مني لمبتكر والشعر في حال بمفتقر
دعوت غر القوافي وهي شاردة فأقبلت تمشي مشي معتذر
وسلمتني عن طوع مقادتها فرحت فيهن أجرى جرى مقتدر
إذا أتيت أقامت وهي من خدمي وأينما سرت سارت تقفني أثرى
طابقت لفظي بالمعنى مطابقة خلوا من الحشو مملوء من العبر
اني لأنتزع المعنى الصحيح على عرى فأكسوه لفظاً قد من درر
سل المنازل عني ان نزلت بها ما بين بغداد والشهباء في سفر
ما جئت منزلة إلا بنيت بها بيتا من الشعر لا بيتا من الشعر^(٩)
والنماذج على هذه الطريقة كثيرة شغلت الصحافة ربحاً طويلاً
من الزمن ، الأمر الذي يدل على أن هؤلاء العصريين ما انصكوا يعيشون
كثيراً من لحظات حياتهم مع التقليد وان الروح الفردية ما زالت تجد
سبيلها الى نفوسهم .

لقد حملت الصحافة وكتابها حملة شمواء على كل شعر يسبق
الاساليب النثرية وعالجوا موضوعات لا تختلف عن تلك التي عالجها
المقال في الصحافة العراقية بل ان الزهاوي نفسه والذي كان محور

(٨) مجلة الافلام عدد ٤ سنة ١٩٢٨ ص ١٣٦ .

(٩) لغة العرب عدد ٦ سنة ١٩١٣ ص ٢٨١ .

الحركة في هذه الفترة بالذات ، ادخل في الشعر أموراً ليست منه ، فجاء شعره ثرياً علمياً يطغى عليه جانب العقل والنظم .

وهذه الظاهرة عامة تغلب على شعر الزهاوي دون ان تقتصر على شعره الذي يتناول فيه العلم والفلسفة وهو مع هذا يقول « ... أما أنا فلا يهدأ خاطري إلا ان يرجع ابناء الطبيعة الى الطبيعة وشعرها وأخذت العنادل تصدح في رياض الأدب ... واني ما نظمت الشعر في الغالب إلا بسائق من المحيط فلم أقله إلا بعد أن كان يجيش في صدري لداع خارجي » (١٠) .

ولكي نتأكد من غلبة الطابع النثري على شعر الزهاوي نتعرف جوانب من شعره في المرأة ، وهو موضوع حديث شغل الصحافة نثراً وشعراً ، والزهاوي نفسه كان زعيم هذه الحملة في كلا الفنين ، قال الزهاوي عن السفور والحجاب :

أسفري فالحجاب يا ابنة فهر هوداء في الاجتماع وخيم
أسفري فالحجاب قد شل نصف الشعب حتى طمى فليس يريم
أسفري فالحجاب للعرب اليو م جميعاً تأخر مذموم
كل شيء الى التجدد ماض فلماذا يقر هذا القديم
ولماذا تخفين وجهك عن نا س يحبون الوجه وهو وسيم
لقد أعوج بالحجاب لعمرى أمر دنيا فافه لا يستقيم
انزعيه ومزيقه فقد ائكره العصر فاهضاً والعلوم

لم يقل في الحجاب في شكله هذا نبي ولا ارتضاه حكيم
هو في الشرع والطبيعة والاذوا ق والعقل والضمير ذميم
هو سجن لهم من غير ذنب وهو حرمانهم وهو الهموم
زعموا أن في الحجاب حفاظاً كذبوا فهو في الحقيقة لوم
زعموا أن في السفور اثلاماً كذبوا فالسفور طهر سليم

لا يقي عفة الفتاة حجاب بل يقيها تقيفها والعلوم^(١١)

ومع أن الضجة التي أثارتها هذه القصيدة في الصحافة العراقية كانت قوية ومؤثرة لما فيها من صراحة يبدو أنها كانت غريبة في حينها إلا أنها لم تكن ذات قيمة من الناحية الفنية ، فالطابع النثري هو الغالب عليها ، وكان من الممكن ان يعرض الزهاوي رأيه في مقالة حتى لا يدخل في الشعر أموراً ليست منه ، ومن ناحية أخرى فان القراء لم يكونوا لينظروا الى هذه القصيدة وأمثالها وينقدوها نقداً فنياً قريباً الى روح الشعر ، بل نظروا اليها من حيث خطورة الموضوعات التي تناولتها ومدى قربها مما كان يشغل بال الرأي العام . ومن هنا فان الرد على الزهاوي لم يكن منصّباً على الجانب الفني وانما على الآراء التي جاءت فيها هذه القصيدة ، يتمثل في هذه القصائد الكثيرة التي جاءت ثمرة ونتيجة لقصيدة الزهاوي ، ومن ذلك هذه القصيدة التي نشرتها جريدة العالم العربي :

خل عنك السفور يا ابن الزهاوي فهو داء في المسلمين وخيم

هتك العرض في البلاد وحلت فوق رأس العباد منه هموم
 كم عزيز في الناس أضحى ذليلاً من سفور النساء وهو المعلوم
 ان أهمية الزهاوي تكمن في كونه مصدر أثارة أدبية ، لما هو
 معهود عنه من صراحة غريبة لا يملكها أحد من الادباء في عصره ، فهو
 مجدد لأنه كان يخالف كثيراً من آراء عصره ، وكان هذا كافياً لتحريك
 الهمم وحث الآخرين على الكتابة ، وبخاصة هؤلاء المحافظين الذين كانت
 تثيرهم أمثال هذه الآراء الجديدة ، نشرت مجلة النجف قصيدة لأحد
 شعرائها تحت عنوان (الحجاب الحجاب) يعارض فيها الزهاوي ، نأخذ
 منها الايات التالية •

كل يوم للدين يبدو خصيم واعتراضاً على الحجاب يقيم

• • • • •

غير أن السفور باب افتتان	للكهولة وللشيبة شوم
وخصوصاً اذا تعالى جمال	وتسلمت قوائم ورسوم
كيف يستطيع أن يمانع نفساً	من أتاها من الغرام سموم
والفتى والفتاة عند اجتماع	منهما الطبع للفساد يروم
ولهذا قضى الكتاب (وقرن)	(وأساء لو هن من ورا) يافهم
وحديث اجتماع اثني بشخص	لهما ثالثاً يكون الرجيم
وعجيب من الجميل جحود	لنصوص لحكمها التسليم
زاعماً أنه عمر أييه	لم يقل مرسل به وحكيم

غير أن الجميل قد ترك القراء ن شابة وأشغلته عموم
فالحجاب الحجاب أيتها الطهر ففي غيره لظي وجسيم
ولنا اسوة بعثرة بيت طهرتهم مما يشين العلوم
من رأى بضعة الرسول عيانا أسفرت واستفاد منها كليم (١٢)

لقد تحول الشعر في امثال هذه القصائد الى وسيلة من وسائل
الدعاية والاعلام لشرح رأي معين في مسألة من المسائل ، حجج وبراهين
وأدلة وآيات قرآنية وأحاديث نبوية ، كلها في سبيل اثبات حجة في
رأي من الآراء ، ولهذا يأتي هذا اللون من الشعر وهو يحمل الاسلوب
التقريري الذي يميل الى الناحية الشرية .

لقد شغلت المرأة وحريتها ومطالبها القصيدة الشعرية ، كما شغلت
المقال وأخذت هذه المعارضات وقتاً طويلاً في الصحافة العراقية وقد
حفلت جريدة البلاد البغدادية بعدد غير قليل من هذه القصائد استمرت
حتى النصف الثاني من هذا القرن (١٣) كما حفلت الصحافة العراقية
كذلك بلون آخر من هذا الشعر الاجتماعي يميل الى معالجة مشاكل
المرأة بأسلوب قصصي ويتناول حرية المرأة في اختيار زوجها وطريقة
الزواج القسري التي كانت شائعة في العراق حينذاك ، هذا الشعر
الاجتماعي لون لا يختلف في حقيقة امره عن القصص التي
تحدثنا عنها في فصل سابق ، وأهم ما في هذا الشعر احتفاله بالوحدة

(١٢) مجلة النجف عدد ٥٤ سنة ١٩٢٦ ص ٤ .

(١٣) انظر جريدة البلاد عدد ٤٥٥٣ سنة ٥٦ .

التي تجمع بين أجزاء القصيدة كلها ثم هذا التسلسل المنطقي في الحوادث التي تكون القصة ، ومن ذلك هذه القصيدة التي نشرتها مجلة لغة العرب لمصطفى جواد وقد علقت عليها بما يلي : « هذه القصيدة تصور حالة الزواج في العراق ، يمهّد الى سمسارة ان تختار البنت التي تراها مناسبة للشباب فتذهب من دار الى دار تبحث عن ضالتها ، فاذا وقعت على ضالتها واستحسنها أخذت في مدح الشاب وأعارته محاسن قد لا تكون فيه ، وهكذا هي مع الشاب .. » ومن ثم تبدأ المجلة بنشر هذه القصيدة :

ذهبت تجوب مساكن الأحياء وتسير بالأوصاف والأنباء
ذهبت تروّد لغيرها بتثاقل والزاد أحمال على الأيلاء
ذهبت لتبحث زوجة مأمونة وجميلة وكريمة الآباء

ومن ثم يصف الشاعر تنقل هذه السمسارة من بيت الى آخر ، حتى اذا عثرت على ضالتها راحت تكيل المدح لقتها فتصف أخلاقه وطباعه وغناه وكل صفة يمكن أن يمدح بها انسان :

عدته في أخلاقه وطباعه ملكاً يعوم لظهره بسماء
ثم انبرت تخفي عن البنت التي قد نال أهلوها جديد رجاء

فيصدق أهلها كلام هذه السمسارة ، أما الفتاة فلا أهمية لرأيها حتى اذا انتهت من هذا كله أعادت الكرة مع أهل الفتى ومن ثم يبدأ التعاقد بهذه السرعة فمن مصلحة الجميع أن يسرعوا :

فتعاقدوا وجرى الملاك بسرعة وتآدبوا كنآدب الفضلاء
ومشوا بأمّعة الجهاز بأطرق عن ذات خطبته بكل دهاء

يتسمّع الأخبار كل هنيئة يتشمم الأوصاف من غرباء
فكأنه صياد أسماك رأى جبل الشباك مجررا في الماء
قد أنبؤوه بحزمها وجمالها لكننا الاذواق غير سواء

حتى اذا انتهى الناظم من عرض الواقع الذي يشيع بين الناس
انتهى من هذا كله الى تبيان رأيه واستهجان هذه الطريقة التي ستؤدي
حتما الى الفشل لأنها لا تقوم على علاقات الحب المتبادل .

بئس الزواج زواجنا ولنعم ما سارت عليه عوائد الغرباء
ما ضر أن يتعارف الخلان في زمن اللقاء ومجمع الآراء
زفوا العروس الى الحليل وانها دخلت فجوج حياتها العمياء
وكذاك زفوه اليها حائرا لا آملا لمعيشة السعداء (١٤)

هذا الشعر أثر من آثار الصحافة ، حينما بات الشاعر يرى أن من
واجبه أن يشارك غيره من الأدباء في الأمور العامة التي تشغل بال الرأي
العام وقد برع بهذا اللون من الشعر معروف الرصافي ، كما في قصيدته
أم اليتيم والأرملة المرضعة وغيرهما الكثير .

ان انشغال الشعراء بالحوادث الجارية ، ربما كان السبب الذي
ألهمهم عن الاتيان بأعمال أدبية تثير في القراء أفكارا جديدة ، فصارت
الحوادث هي التي ترغم الشاعر على أن يعبر عنها ، أو انه يجد
نفسه مسوقا بعامل أو بآخر الى التعليق على هذه الحوادث ومن هنا
كان الشعر وصفا حسيا يتناول الظواهر المألوفة التي يعيها حتى

بسطاء الناس •

لقد تحولت القصيدة الشعرية في الصحافة الى مجرد عرض لما يخالف الرأي في مسألة من المسائل ، يغلب عليها الأسلوب التقريري الذي يحض الناس النصيحة لكي يتصرفوا على أساسها •

أن أكثر هذا الشعر يصلح لدراسة النهضة السياسية التي مرت في البلاد طيلة النصف الأول من هذا القرن ، فهو أكثر التصاقا بالناحية التاريخية من أي شيء آخر • ففي العقد الاول من هذا القرن مثلاً نلاحظ شيوع القصيدة التي تدعو الناس الى التعليم والأخذ بأسباب العلوم الحديثة ، وكأن الشعراء رأوا أن عليهم دورا يجب أن يؤديه لبلادهم ولموواطنيهم ، يرودون لهم الطريق ويدلونهم على مواطن الضعف فعالجوا موضوعات خطيرة لها مساس مباشر بحياة شعبهم •

لقد برزت هذه الظاهرة بوضوح منذ ظهور الصحافة الشعبية في البلاد ، فأصبحت القصيدة تلتصق بحياة الجماهير لتجد بالتالي إعجابا من القراء ، حتى لقد صار المعيار ، أن الشاعر الوطني الحق هو الذي يشارك الجماهير في آلامهم وآمالهم بصرف النظر عن الناحية الفنية او الجمالية التي تهتم بخلق افكار جديدة ترتفع بالناس عن مستوى النظر الذي يراه الآخرون • هم مجددون لا انهم كانوا يخلقون اشكالا فنية جديدة ، ولا لأنهم يرتفعون بالقاريء او يعطونه افكارا فيها الخلق والابتكار ، ولا لأنهم اوجدوا أساليب جديدة فغيروا من الأشكال المعتادة في شعرنا العربي ، وانما لأنهم أحدثوا موضوعات جديدة لم

تألفها القصيدة العربية قبل ظهور الصحافة ، في وقت كان مجرد التصريح بهذه الموضوعات يعرض صاحبها لأفدح المخاطر ، ولأنهم أمام محافظين متزمطين يفسرون كل شيء على أنه مناف للدين ، ولهذا فهم لا يسمحون بأي تغيير فيما اعتادوا عليه ، ننظر الى هذه القصيدة للاستاذ كاظم الدجيلي وهو يعكس لنا فيها صدى دعوته للعلم وما كان يلاقيه من هؤلاء المحافظين .

لعمركما اني فتى بين قومه غريب يقاسي منهم أعظم البلوى
أخو فكرة لم يلف وسعا لنشرها يجامل من يسوى ومن لم يكن يسوى
يحاول اصلاح البلاد وأهلها وتهذيب اخلاق العباد ولا يقوى
ويدعو لنشر العلم أخلاق قومه هلموا بني قومي الى جنة المآوى
فلم يلف الا شاتما اثر ناقم عليه وقوما كفروه بلا دعوى
وقالوا طبعي يريدون كافرا وما عرفوا سر الطبيعة والفحوى
بني قومنا مهلا فلست بكافر ولكن دعائي للسعادة لا الشقوى
أبشكم نصحي وان ضاق بعضكم فأوسعني من خبث طينته هجوا (١٥)

هذه هي نظرة أهل ذلك العصر الى العلم ، فهم يعتبرون كل دعوة اليه بدعة وضلالة موجهة الى صميم الدين ، ومن هنا ترتفع منزلة الشاعر في نظر المتحررين من أبناء وطنه ، فاذا أضفنا الى هذا كله أن الثقافة الحديثة لم تنتشر انتشارا كافيا بعد ، وان غذاء الشاعر الفكري ما يزال بسيطا ، ادركنا سر غلبة الناحية التقريرية على كثير

من شعرهم ، فهم مقلدون في الشكل مجددون في الموضوعات ، تغلب
الاوزان الطريلة على شعرهم ، واستعملوا الكلمة بمعناها الشائع دون
الاهتمام بقواها الكامنة ، وكان يشجعهم الى هذا كله قراء في هذا
المستوى أو دونه ينظرون الى اعمالهم على أنها أعمال عباقرة ، وشعراء
مجددين ، ورفعوهم الى منزلة كان من الممكن أن لا يصلوا اليها لو
أنهم وجدوا في غير هذه الفترة ، والصحافة من جانبها كانت تلح على
اقتناجهم الجديد الذي يوافق خططها في اشاعة الموضوعات الحديثة التي
لها اتصال مباشر بحياة الجماهير فرفعت اصحابه وشجعتهم على المزيد
من هذا الشعر فراح الشعراء يملئون الصحف بهذه النماذج الجديدة ،
بل ان الكثيرين من الشعراء الذين ظهروا في فترة الحكم الاهلي كانوا
يمتهنون الصحافة ويعرضون فيها قصائدهم ، فالزهاوي أنشأ جريدة
الاصابة والرصافي أنشأ جريدة الأمل وعبد الرحمن البناء جريدة الاخلاق
أما الجواهري فكان صحفيا مزنا أصدر عدة صحف فما أن تغلق له
جريدة حتى يعود لاصدار أخرى وهكذا هو شأن اصحاب الصحف
النجفية فما فيهم الا شاعر ، اتخذ من الصحافة وسيلة لنشر شعره
وشعر أمثاله .

وفي أثناء الاحتلال البريطاني للعراق قامت القصيدة الشعرية لتعبر
عن المرحلة الجديدة ، فأندفعت تعري الحكم العثماني وما جره على
البلاد من دمار وخراب ، وتمتدح السياسة الجديدة التي فتحت أبواب
العراق على العالم الخارجي ، فتعاون عدد غير قليل من الشعراء مع

السلطات الاجنبية ومدحوا سياستهم دون أن يندفعوا ذلك الاندفاع القوي لتأييد هذه السياسة ، ولهذا نجد أن جل القصائد التي نشرت في جريدة العرب لا تحمل اسماءهم الصريحة ، بل كانوا يكتبون بالاشارة والتلميح ، كقول أحدهم وهو يكتفي نفسه (ابن القرائين) ، يقارن بين عهدي الترك والافكليز قبل ظهور هؤلاء على حقيقتهم :

بشرى لبغداد مهد العلم والادب حصن الخلافة والسلطان والحسب
لاغرو ان أخلقت بالرغم جدتها فالأيوم قد عوضت من لبسها القشب
وصعرت خدها للترك معرضة عن المظالم والارزاء والكرب
وصافت سنن الاصلاح وابتدأت بلشم غرة عصر زاهر خصب
وحسبها أن جند الشر غادرها والخير يطرده في جحفل لجب
هذا يحاول تحرير الرقاب وذا الشنقها كان قبلاً ضارب الطنب
نفس لهجة المقال التي تعرفنا عليها في فصل سابق ، فالحوادث التي مرت بالبلاد كانت من القوة بحيث جعلت الشعراء يلتصقون بها فجاء شعرهم يعبر عن متطلبات آتية تقتضيها ظروف البلاد ، كالدعوة إلى الأخذ بالعلم الحديث والحط من قيمة الأتراك ومدح السياسة الافكليزية قبل أن تظهر على حقيقتها .

وتتبدل القصيدة بعد ثورة العشرين في الصحافة العراقية ، وينغمس الشعراء أكثر من أي وقت مضى بالسياسة ، ذلك أن هذا الحدث التاريخي هو الذي ميز الادب العراقي بقنونه المختلفة عن سائر الاقطار العربية الاخرى ، وتبدو هذه الظاهرة أكثر وضوحاً في القصيدة

الشعرية من أي اتجاه فني آخر ، فاذا كان الحكم التركي لم يتح
للشعر السياسي الذي يحمل روح الثورة بالظهور ، واذا كان الحكم
الأجنبي خلال احتلاله المباشر لم يتح هو الآخر للشعر السياسي بالظهور
فان ثورة العشرين وضعت حداً فاصلاً لهذا كله وأوجدت مناخاً ملائماً
لنمو هذا الشعر ، فجاءت القصيدة تحمل طابع الهجوم والحماس والثورة
في المجال الوطني وتحول الشعراء الى واجهات اعلامية تأييداً لهذا الرأي
أو ذاك ، ووقعت القصيدة في صميم المعركة وفضحت تصرفات المحتلين
وعرت الحكومات السائرة في ركابهم ، ودعت الى ازالة القيود التي
تكبله ، فوقف الشاعر فيها محذراً ، وفاصحاً وقائداً •

والذي ساعد على نمو هذا الشعر وانتشاره وشيوعه هو أن
فترة الحكم الأهلي في العراق كانت طويلة جداً استمرت ما يقارب
الأربعين سنة دون تغير يذكر في السياسة العامة للحكومات المتعاقبة
ودون تغير يذكر في نظرة هذه الحكومات الى الحياة وما فيها من
تطورات ، ولهذا بقي الشعراء يجولون في هذا الميدان لأنهم كانوا يرون
أن الأسباب التي تدفعهم الى هذا كله لم تتبدل ، بل أصبح المعيار
الذي يقاس به الشاعر انما يكمن في تناوله هذا الغرض السياسي والا
وجهت له ألف تهمة وتهمة أقل ما فيها أن شعره لا يخرج عن مجرد عبث
أو لهو لا يليق بالأديب الوطني الفيور على مصلحة بلاده وأمته ان
يشغل نفسه بهذه الملهمات التي لا طائل تحتها •

ومن هنا انغمس الشعراء بهذا الجانب بعد أن وجدوا أن سوقه

رائجة بين جماهير القراء ، وأن صحافة معينة ما كانت تنشر إلا الشعر الذي يعالج الموضوعات الوطنية ولهذا كان عليها ان تبحث عن أصحابه مراعاة لرغبة قرائها .

لقد ارتفع كثير من الشعراء في هذه الفترة الى أكثر مما يستحقون والى أكثر مما يدل عليه واقع أدبهم ، لا لشيء إلا لأنهم كانوا يملكون الجرأة والصراحة في التعبير عن واقع حياة شعبهم ، ويعرون الحكومات السائرة في ركاب الأجنبي رغم الجو الأرهابي الذي كانوا يعيشونه ، ومن هنا فقد أخذ الشعب بأيدي هؤلاء الشعراء ورفعهم الى منزلة الأبطال وجعل منهم رمزا للنضال والكفاح بعد أن تحملوا الكثير من العذاب بسبب صراحتهم هذه ، فكم من شاعر قدم الى ساحات المحاكم بسبب بيت قاله ، وكم من جريدة أغلقت بسبب نشرها قصيدة لهذا الشاعر أو ذاك ، حينما نشرت جريدة الإصلاح قصيدة الرصافي ومنها :
لقد ساءني علمي ببحث السرائر وأنى على تطهيرها غير قادر
تصفحت أعمال الورى فوجدتها مخازي غطوها بشتى السرائر
وفتشت عما استحدثوا من مناقب تروج من أطماعهم ومفاخر
فكانت حسا في المفاخر خدعة على أنها كانت قباح المخابر
فكان من جراء نشر هذه الأبيات « أن أغلقت الجريدة سنة كاملة وأقيمت الدعوى من قبل وزير الداخلية على صاحبها وأحيل رئيس التحرير بسببها الى لجنة انضباط في وزارة المعارف » (١٦) وحينما نشرت

جريدة لواء الاستقلال قصيدة للشاعر طالب الحيدري ومنها :

سيري جموع الشعب سيري وعلى عهود البغي ثوري
وتحكمي في الاتجاه ه وقرري لون المصير
باسم الرعية حاسبي الحكا م في اليوم العسير
جوري اذا جاروا فان من العدالة أن تجوري
الحق يسلبه القو ي فسورية بألف سور (١٧)

قدم صاحب الجريدة للمحاكمة بسبب هذه الأبيات وحدد « يوم الاربعاء القادم موعداً لمحاكمة الاستاذ قاسم حمودي المدير المسؤول لجريدة لواء الاستقلال لقيام الجريدة المذكورة بنشر قصيدة للمتهم طالب الحيدري ، واعتبر بعض أبياتها بأنها تعرض ضد السلطة وإهانة للنظام المذكور » (١٨) .

وفشرت جريدة الاستقلال قصيدة تتعرض فيها لتمثال مود القائد الأنكليزي الذي فتح بغداد ومنها :

لمن التمثال في الكرخ تباهي وتبخر
وازدري بالشعب لما أن تعالى وتجير
ألمن قاد جيوش العرب في النصر المؤزر
أم لمن قد دحر الأعداء بالجيوش المظفر

فما كان من الحكومة إلا أن أوقفت المدير المسؤول للجريدة

(١٧) لواء الاستقلال عدد ١٨٨٥ سنة ١٩٥٤ .

(١٨) صوت الاهالي عدد ٢٧٢ سنة ١٩٥٤ .

وفتشت ادارتها بحثاً عن أصل المقطوعة ، وبعد اجراء المحاكمة « عطلت الجريدة لمدة سنة بسبب بضعة آيات فشرتھا تلك الجريدة ، فشرتھا الحكومة بأن المقصود هو تمثال الملك فيصل وليس تمثال مود » (١٩) . كل هذا كان كافياً لأن يحتضن الشعب أمثال هؤلاء الشعراء ويشجعهم على المزيد منه ، لأنهم راحوا ضحية التعبير عن أحاسيسه ومشاعره ، وهذا كل ما كانوا يتطلبونه منهم ، كما ساعدت الأحزاب الوطنية على نمو هذا الشعر فدعت له وفتحت صحفها لأصحابه ورفعت من مكانتهم وبهذا تكون هذه الأوضاع العامة قد حصرت الأدب في مجال ضيق ، وجعلته لاصقاً بهذه الحوادث المتغيرة التي لاتعرف السكون والاستقرار ، ومعارها في هذا كله ، أن كل أديب لا يخدم الجماهير ولا يعبر عن ظروفهم وحياتهم انما هو أدب لذة ومتعة ، وبهذا يكونون قد أودوا بكثير من قيم الفن والجمال ، وتحول الشاعر الى مجرد صورة لرسم الحوادث ، كما تقع ، لأن الدافع لم يعد تلقائياً ينشأ من داخل أعماق الشاعر ، وقد كونه التفكير المتزن المبني على خلاصة من الآراء المختلفة التي استقها من خلال جولته في عالم الفكر والخلق ، الحوادث هي الدافعة فحسب ، ويستطيع ان يجدها في كل وقت ، وبهذا تحول الشعر في الصحافة الى سلاح بيد الجماهير ووسيلة من وسائل الهاب العواطف الآنية التي تزول بزوال الحدث ومن ثم تختفي بعد ذلك ، بل ان الشاعر نفسه أصيب بغرور العظمة حينما صار اسمه يتردد على لسان

هؤلاء الذين يتلاعب بأهوائهم وعواطفهم الأمر الذي شجعه على المزيد والمزيد ، فتحولت القصيدة الشعرية الى مقال مطبوع ليس فيها ما يميزها عنه إلا هذا الوزن والقافية التي فيها يقول الدكتور عبد اللطيف حمزة : « وعلى هذا فالقصيدة الشعرية في أدبنا الحديث انما هي مقال مطبوع يخاطب الشاعر الجماهير ويكون صدى لمشاعرهم وعواطفهم وبدأت على القصيدة وكأنها خطبة من الخطب ... ولذلك أصبحنا لأنفهم الشاعر الحديث إلا اذا كانت لنا ثقافة سياسية وتاريخية » (٢٠) .

ولم يكن هذا إلا بسبب التصاق الشاعر بهذه الحوادث السياسية المتغيرة في حياتنا الاعتيادية ، حتى اننا لو تحرينا عن الموضوعات التي عالجتها القصيدة في الصحافة العراقية بعد ثورة العشرين لرأيناها لاتخرج عن تلك التي عالجها المقال الصحفي ، محاربة المحتلين ، تعرية الحكومات العميلة ، القومية العربية ومشاكلها ، الانتخابات ، حرية المواطن ، الدستور ، القوانين الاستثنائية ، حلقات متكاملة بعضها يأخذ برقاب البعض الآخر ، ومع اننا لا يمكن أن ننكر أهميتها وخطورتها في الحياة العامة إلا أنها مع ذلك حولت الشعر وأبعدته عن غرضه الاساسي ليغدو مجرد شعر مناسبات أو شعر حوادث تاريخية .

كل ما يمكن أن نذكره لهذا الشعر هو أنه كان وسيلة وعي ووسيلة اثارة ، الأمر الذي أدى الى ايجاد احساس مشترك بين أبناء الشعب الواحد ، لأن الشعر نزل الى مستواهم وخاطبهم باللغة التي

يفهمونها وعبر عن واقعهم ، فأوجد قاعدة جماهيرية مشتركة تستطيع أن تترك أثرها في أوقات الأزمات بعد أن أوجد هؤلاء الشعراء ثقة متبادلة بينهم وبين قرائهم •

كما تحولت بعض الأغراض القديمة في شعرنا العربي بفعل الصحافة الى أغراض جديدة فيها الكثير من الاختلاف عما كانت عليه وأههما المدح والهجاء • فقد ابتعد الشعراء المعاصرون بهذين الغرضين عن كل ما يمت الى العامل الشخصي بصلة وأصبح الشاعر فيهما يقوم على المشاركة الوجدانية في العقيدة والمبدأ أو على الإعجاب والاختلاف في وجهات النظر ازاء مواقف معينة •

فالشاعر والزعيم السياسي قد يذهبان نفس المذهب ويعتقدان نفس الاعتقاد ، كما قد يختلفان في وجهتي نظريهما ، هذا الاختلاف وذاك الاتفاق لا يخصان طرفي المدح والهجاء بل يتعداهما ليشمل الجماهير صاحبة المصلحة المباشرة في هذه البلاد ، ومن هنا فان الشاعر ينظر الى هذا الزعيم من خلال نظرة الشعب اليه ، فتراه يمدح حيناً ويذم حيناً آخر وربما لزعيم واحد ، لقد اختلفت تلك الصفات القديمة في المدح والهجاء من شعرنا الحديث فلم يعد الكرم والبخل والجمال والقبح والشجاعة والجبن الصفات التي تقال في عصرنا هذا على أساس فردي بحث ولكل وقته ، بل حلت محلها صفات أخرى تدخل في صميم العمل الوطني •

والخلاصة ان القصيدة في الصحافة نزلت الى مستوى الجماهير فأصبحت سهلة في لغتها وألفاظها وأفكارها ، فلم يعد الشاعر يجد فسحة من الوقت لكي يتأنق في شعره ، لأن سرعة الحوادث وتغيرها المستمر حرمت الشاعر من التأنق والتأنق في الشكل والمضمون ، وبهذا أصبحت لا تختلف في لغتها وإسلوبها وموضوعها عن المقال الصحفي ، معاني نصص بها ونراها أمام أعيننا ، وألفاظها من تلك التي نستعملها في حياتنا اليومية ، لا هي بالعامية المبذلة ، ولا هي بالتي تستعصي على القاريء العادي الذي يملك ثقافة سياسية ولغوية معتدلة حصل عليها بفعل شيوع التعليم الحديث، وانتشار المدارس، فخطبهم الشاعر باللغة التي يفهمونها. ويبدو أن هذا الشعر قد بدأ يفقد سلطانه وقوته على النفوس بعد الحرب العالمية الثانية بفعل تطلع العراقيين على آداب الامم الاخرى والتأثر بالثقافات الأجنبية فسئموا من الشكل الهندسي القديم للقصيدة العربية والأفكار الشائعة التي استمرت تلح عليها هذه القصيدة فكان الشعر الحر الذي جاء يحمل ثورة على الأساليب التقليدية القديمة التي لا تعبأ إلا بالشكل ، يقول الدكتور داود سلوم « كان موت الرصافي إيذاناً بموت المدرسة القديمة التي كان يسرف شعراؤها في الشكل أكثر من المعنى وبالالفاظ أكثر من المضمون ، وبالرغم من وجود من يمثل هذه المدرسة من الشعراء من أصحاب الشهرة الضعيفة أو المتوسطة فان أدب هذه المدرسة لم يعد يلق التشجيع الذي كان يلقاه من قبل ، وكافت

نهاية الحرب الثانية إيذاناً بميلاد مفاهيم شعرية في العراق تنج عن الوعي السياسي والاجتماعي في العراق وعن ازدياد تأثر الشباب بالثقافات الغربية» (٢١) • وهذا ما سنتعرف عليه في الفصل القادم •

(٢١) الدكتور داود سلوم - الادب العراقي المعاصر - ص ٥ •

الفصل الثاني

حركة الشعر الحديث

الصحافة وسيلة هامة من وسائل التعبير عن الرأي العام ، وذات صلة مباشرة بالقضايا العامة التي تتعلق بحياة الأمة ومستقبلها ثقافة وفكراً ، كما أنها المجال الطبيعي في إثارة كثير من هذه القضايا ومناقشتها للوصول الى نتيجة حاسمة من خلال الآراء المختلفة .

ولما كان الشعر الحر طريقة جديدة غايتها الخروج على الوزن وافقافية التي ألفهما العرب طيلة تاريخهم الادبي ، فانه والحالة هذه يدخل في صميم القضايا العامة التي تتعلق بتراث هذه الامة ، الامر الذي استدعى الصحافة لأنها المجال الطبيعي لتناول هذه القضايا وعرضها على الرأي العام ، وعلى هذا الاساس فان دراسة هذه الطريقة الجديدة في الشعر تبقى ناقصة اذا نحن أغفلنا الصحافة جانباً ، بل ان كثيراً من نماذج هذا الشعر وبخاصة في مراحلها الاولى كانت تجد طريقها الى الصحافة قبل ان يحتويها مجال آخر ، وكان من الممكن ان تضع أو تختق في نفوس أصحابها قبل أن ترى النور ، فالصحافة كانت وما زالت المجال الطبيعي لكثير من نماذج هذا الشعر والدراسات التي قيلت فيه ،

والجدل الذي أثير حوله بل اننا سنجد ان الضجة التي أثارها بعض المحدثين ممن تعرضوا لدراسة بعض جوانب هذا الفن والقضايا المتعلقة به ينقصها التمهيد والتدقيق ، ولو انهم رجعوا الى الصحافة لغيروا وجهة نظرهم في كثير مما ذهبوا اليه .

هم يذهبون مثلاً الى أن هذه الطريقة الجديدة من الشعر ظهرت بعد الحرب العالمية الثانية ، ومعنى هذا انهم ينسون تلك الحركة الوليدة التي ظهرت في بداية العقد الثالث من هذا القرن والتي أحدثت أثراً مهماً في وقتها ، حتى ان كثيراً من القضايا المتعلقة بهذا الشعر لم تكن غير صدى لتلك الحركة التي وجدت في الفترة المذكورة .

فمشكلة الوزن والقافية وما يترتب عليهما من حرية التعبير كانت مثار مناقشة وجدل لا بين هؤلاء المحدثين فحسب بل بين أولئك الرواد من جهة ومعارضيه من جهة أخرى ، كل ما هنالك اختلاف الزمن وتبدل النظرة ، كان المحافظون في العقد الثالث من هذا القرن من القوة بحيث يستطيعون التأثير على تلك الاصوات التي يظنونها نشاطاً في سبيل ان يوقفوها عند حدها لتبقى محصورة في مجال ضيق تتحين الفرصة للظهور ، وكان المجددون في العقد بن الخامس والسادس من هذا القرن من القوة بحيث يستطيعون اسكات كل صوت نشاط يقف امام حريتهم ، ولهذا خفت صوت أولئك الرواد ، فبقي يبحث عن متنفس فوجده بعد الحرب العالمية الثانية فشاع وانتشر بين كثير من الناس ، بعضهم استطاع ان يبدع في هذا الفن الجديد ، في حين تعاطاه الكثيرون

لا عن معرفة به وبأصوله وانما لانهم يعتقدون انه يتيح لهم حرية أوسع من تلك التي تتيحها لهم الطريقة القديمة فأضاعوا الصفتين كما يقولون وأساؤا الى هذا الفن اساءة بالغة فأوجدوا ورقة رابحة سلمت الى اعدائه الذين يبحثون عن كل نقطة ضعف ليحطوا من قدره .

المحدثون يختلفون مثلاً حول الرائد الاول الذي تعاطى هذا الشعر ، بعضهم يرى ان نازك الملائكة كانت اول من تعاطى هذه الطريقة الجديدة ، في حين يرى الآخرون أن المرحوم بدر شاكر السياب هو أول من حاول هذه المحاولة ، وهكذا يتخذ الحوار شكل الجدل ، احتفظت به الصحافة العراقية التي كانت الوعاء الطبيعي لكل ما قيل في هذا الفن الجديد ، لا يبين دارسيه فحسب بل بين هؤلاء الرواد أنفسهم ، كل يدعي انه صاحب المحاولة الاولى ، والذي لا شك فيه ان لهذين الرائدین انتاجاً يذكر في هذا المجال وانهما وضعا أسس هذه الطريقة الجديدة ، ليضاف اليهما علم بارز هو الاستاذ عبد الوهاب البياتي والذي لا يمكن ان ينكر أحد فضله في هذا المجال ، يذكر الاستاذ عبد الرزاق عبد الواحد وهو من الشعراء الذين تعاطوا هذه الطريقة أن السياب كان أول من تعاطى هذا الفن ^(١) وهو حكم ينقصه التبصير التاريخي لهذه الحركة في الصحافة ذاتها ، بصرف النظر عن الاجادة

(١) « والسياب كان اثبت وأجرأ من عالج الشعر الحر وهو من رواده الاوائل ان لم يكن الرائد الاول » جريدة البلاد عدد ٦٠٧٧ سنة ١٩٦١ .

الفنية بين هؤلاء المحدثين وأولئك الذين تعاطوه لأول مرة ، لعلنا بأن أول الامور لا يمكن ان تكون كاملة ، وان تطور الزمن وتعدد مصادر الثقافة كفيلا باضافة اشياء جديدة وتثبيت الاسس من خلال النواقص التي تظهر بين حين وآخر ، ذلك رأي وله مؤيدوه ، وهناك آخرون يرون ان نازك الملائكة هي صاحبة أول قصيدة حرة وانها أول من وضع اسس أركان هذا الشعر ، وهذا ماذهب اليه الاستاذ عبد الرضا صادق في جريدة اليقظة (٢) .

وفي مجلة النجف رد معقول كتبه الاستاذ مصطفى جمال الدين ، على مقالة نشرتها نازك الملائكة في مجلة الاديب اللبنانية ومما جاء فيه « كتبت الشاعرة الفاضلة نازك الملائكة بحثا في الاديب اللبنانية يشعر أنها أول من قاد المعركة في قصيدة لها عنوانها الكوليرا ثم تقول : ان السياب نشر ديوانه أزهار ذابلة في النصف الاخير من الشهر الذي نشرت فيه قصيدة الكوليرا وله في هذا الديوان قصيدة حرة الوزن بعنوان (هل كان حيا) وهذا الكلام يشعر أنها سبقته في التجربة . ولكن بدر في مقدمة ديوان أساطير يقول : وأول تجربة لي من هذا القبيل كانت في قصيدة (هل كان حيا) في ديوان أزهار ذابلة ، وقد صادف هذا النوع من الموسيقى قولاً عند كثير من شعرائنا الشباب أذكر منهم الشاعرة نازك الملائكة . والحقيقة أن نازك لم تكن أسبق من

(٢) « واذا جاز تاريخيا ان نعين منطلقها فهو التاريخ الذي بدأت فيه نازك الملائكة بنشر مقالاتها في معركة الشعر الحر » اليقظة عدد ١٩٥٥ .

بدر في الشعر الحر فقد صدر ديوانه ببغداد في الوقت الذي عنته
الشاعرة ، ولكنه طبع في القاهرة قبل هذا الوقت وقد ذيل الشاعر
القصيدة بتاريخ ٢١ / ١١ / ١٩٤٦ « (٣) » .

وقد ذهب بعض مخالفي هذه الطريقة الجديدة الى ان المعاصرين
من الشعراء الشباب كانوا مسبوقين فيها ، وان هذا الشعر قديم قدم
الشعر العربي بل واعتبر بعضهم النثر الجاهلي من جملة الشعر المنشور
وأن الامم الشرقية كانت السبابة في هذا المضمار وأن العرب أخذت
عن الشرقيين ومن ثم عاد العرب فأخذوه عن الغرب « لو رجعنا الى
تاريخه لوجدناه منتشرًا بين الأمم الشرقية قبل الغيبة ... ووجد عند
العرب داخلًا في زمرة الكلام المنشور كنثر بعض أعراب الجاهلية ...
وفي الفترة المظلمة غادره الشرقيون حتى عاد اليهم من الغرب ... » (٤) .
اما الاستاذ مصطفى جمال الدين فكان يرى ان الاندلسيين
أول من خرج على أوزان الخليل بن احمد في موشحاتهم « فاذا كان
الخروج على ما وضعه الخليل بن أحمد للبيت والقصيدة من قواعد
الشعر الحر ، فهذا شيء وضعه الاندلسيون قديما في موشحاتهم كأبي
بكر بن زهر وابن سناء الملك المصري في موشحته المشهورة :

كللي

يا سحب تيجان الربى بالحلوى

(٣) مجلة النجف عدد ١ سنة ١٩٥٦ ص ٢٠ .

(٤) لغة العرب عدد ٥ سنة ١٩٢٩ ص ٣٦٩ .

واجعلي

سوارها منعطف الجدول ... » (٥)

لقد اتخمت هذه الطريقة الجديدة من الشعر الصحف واشبعها
بحثاً وتدقيقاً منذ ظهور أول نموذج في الصحافة العراقية .
وأول محاولة عثراً عليها في هذا المجال جاءت في ملحق جريدة
العراق البغدادية التي تحمل تاريخ سنة ١٩٢١ وتحت عنوان (نظم
طليق) وتوقيع مستعار هو (ب . ن) .
ومن هذه القصيدة :

أتركوا نعشي فهلاك الهجر يحملني الى

خفرتي

هو يحملني اليها

انه

حمل الهم الي

طسول عمري

وسيسقيني المنية

أنا أدري

فاتركوه ليتم فعله فحوي ولا

تزجروه

بعد موتي ٠٠٠ » (٦)

اما لماذا آثر الشاعر الایماء على ذكر اسمه الصريح ، فالظاهر انه بصدد تجربة جديدة خاف عواقبها ، وبخاصة والتيار المحافظ ما زالت له السطوة الكبرى في الميادين العامة .

ولم نعر على تعليق واحد حول هذه القصيدة في جميع الصحف التي كانت تصدر في تلك الحقبة ، ويبدو ان القراء لم يأخذوها مأخذ الجد ولهذا لم تثر انتباههم .

وبعد فترة قصيرة تبدأ اولى المحاولات الجادة في هذا الفن ، وذلك حين زار أمين الريحاني العراق ، فقد احتفى به أدباء بغداد احتفاء يليق به كأديب عربي مشهور ، وكان ينتقل من حفلة الى أخرى وهو في خلال ذلك كله يتحف معجبيه بهذه الطريقة الجديدة ، ومن ثم تنقله الصحافة بعد ذلك وتشيعه بين الناس .

بالاضافة الى هذا فان بعض الصحف العراقية كانت تنشر شعر الريحاني الذي قاله قبل قدومه الى العراق ، وكانوا يسمون هذه الطريقة الجديدة حينذاك (الشعر المنشور) ، من ذلك هذه المقطوعة التي نشرتها مجلة الزئبقة للريحاني نفسه تحت عنوان (نبوخذ نصر الشحاذ) معلقة عليها بما يلي « زار العراق حضرة الكاتب النابغة والشاعر الفيلسوف الاستاذ أمين الريحاني في رحلته العربية التي ابتدأها بمصر والسعودية ٠٠٠ وقد رأينا بهذه المناسبة أن نشر قصيدة من

الشعر المنشور لهذا الاديب الكبير وقد كتبها قبل الحرب انكبرى ببضع سنوات » ومن ثم تبدأ المجلة بنشر هذه القصيدة نكتفي بنقل شيء منها:

« ولم تنبح الكلاب

من ذا الذي في الباب

ان في الباب مليكا دوخه الزمان •

ان في الباب شيخا مخفيا تحت وفاضه ، متكئا على هرواته ،
يمد يده باكيا ، ويهيم شاكيا • شيخ مخيف يرتعد كالمحموم • لا يعرف
أمن البشر هو أم من فوق او تحت طبقات البشر • طيف من أطياف
انعياء والمذلة • نهب داء وفاقه ، يطوف البلاد كفارة عما اقترفه من
الآثام سواء •

ان في الباب شيخا يستنبح الكلاب

ان في الباب مليكا دوخه الزمان » (٧)

أما فكرة المقطوعة فغريبة على العراقيين ، اولئك الذين يميلون
الى الخطائية في كثير مما يقولون ، وأما كونها من الشعر فالظاهر أنهم
ما يزالون يقضون من هذه النماذج موقف اللامبالاة ولم يعيروها أي
اهتمام ، لانهم ينظرون الى الشعر باعتبار ما فيه من وزن وقافية وبدونها
لا يكون الشعر شعرا وبدليل هذا الرد الذي عثرفا عليه في مجلة الناشئة
الجديدة والموجه الى أديب بصري يعتبر الريحاني ناثرا ليس الا •
« قال أديب بصري في الريحاني : وللريحاني ثمر طرزه أجمل كثيرا

من طرز شعره وهو كاتب ليس الا • نفهم من هذا ان الكاتب من أبناء المدرسة العتيقة الذين لا يتذوقون عنوبة الشعر ولا يجتلون روعة الفنان الا اذا كان مثقلا بسلاسل من الاوزان مصقدا باغلال من القافية وكانت فيه كل غريبة شروء من غرائب اللغة وأحجية معماة من أحجية المعاجم ، والا فلا يقال للريحاني كاتب باطلاق المعنى وهو الشاعر نثره السهل وشعره المنشور ••• ان الريحاني شاعر وقد شهد له بذلك رجالات الادب في الشرق والغرب » ^(٨) • ولا شك أن هذا الرد لواحد من مؤيدي هذه الطريقة الجديدة في الشعر •

وكانت مجلة الحرية البغدادية التي يحرر فيها الاستاذ روفائيل بطي تلاحق الريحاني في حفلاته ، وتذكر ان الريحاني هو الذي نقل هذه الطريقة الى الادب العربي وتأثر به كثير من الادباء العرب ومنهم ادباء المهجر » لقد احتذى الاستاذ أمين الريحاني طريقة (ولتويتمان) الامريكى في اطلاق الشعر من قيود الوزن والقافية فابتدع طريقة الشعر المنشور في العربية وتبعه كثيرون ولا سيما ادباء المهجر » ^(٩) •

ومن قصائده التي نشرها في العراق هذه القصيدة التي تحمل عنوان (رب العراق) ننقل منها :

« أصفحه والقلب في يدي

احبيه والروح على لساني

(٨) الناشئة الجديدة عدد ٢ سنة ١٩٢٣ •

(٩) مجلة الحرية عدد ١ ، ٢ سنة ١٩٢٤ •

أكبره وكلي كلمة اكبار

اقف امامه فتنكشف امامي اعاجيب الزمان •

ألمس ردفه فيرتعش جسمي ثم ينتعش ثم يهتز ابتهاجا

ولا عجب فهو كثير الاطوار غريبها •

يكلل رأسه السنديان ويجشو عند قدميه النخيل ••• « (١٠) •

وقد جمع الاستاذ روفائيل بطي كل ما قاله الريحاني في الصحافة

العراقية في كتاب يحمل عنوان (أمين الريحاني في العراق) ولهذا الكتاب

قيمة تاريخية وسياسية بالاضافة الى أهميته الادبية يستطيع أن يستفيد

منه الباحث في دراسة هذه الحقبة من تاريخ العراق •

وعلى كل حال فلم تحدث هذه الطريقة الجديدة ضجة كبيرة في

حينها فأدباء هذه الفترة — على ما يبدو — لم ينظروا اليها نظرة جادة ،

بل حسبوا انها فترة عابرة تمر وتختفي ، أو ربما نظروا اليها نظرة أخرى

واعتبروها من النثر مع أن اصحابها كانوا يطلقون عليها اصطلاح الشعر

المشور •

أما المؤيدون فكانوا ينظرون اليها على أنها شعر تحرر من قيود

الوزن والقافية ، وأن معيار الشعر هو في افكاره وأخيلته لا في اشكاله

الظاهرة ، ولعل الملاحظة التي أوردتها مجلة الناشئة الجديدة خير ما يعكس

لنا رأي هؤلاء في هذه الطريقة الجديدة •

ومن الادباء العراقيين الذين تأثروا بطريقة الريحاني الاستاذ روفائيل بطي (١١) ، الذي كان يرافق الريحاني في حلقه وترحاله داخل العراق . وقد بدأ ينشر شعره المنشور هذا في مجلة الزبقة ، ومن ذلك قوله تحت

(١١) الاستاذ روفائيل بطي اديب واكب تطورات النهضة العراقية خلال النصف الاول من هذا القرن ، فكان بحق من روادها الاوائل حرر في عدة صحف قبل ان يصدر جريدة البلاد سنة ١٩٢٩ والتي استمرت تصدر الى الستينات رغم وفاته سنة ١٩٥٦ اذ استمر ورثته يديرون سياستها . وتاريخ جريدة البلاد حافل بالتطورات السياسية والاجتماعية والادبية في العراق رغم العقبات التي كانت تلاقيها من غلق او حجز . وهو كاتب نشط كتب في اكثر الصحف العراقية . ولعل أهم ما يمتاز به الفقيه روح الاثارة حينما يجد ركود الحركة الادبية في البلاد فتراه يمدح هذا ليغض ذاك وينتقد الزهاوي ليشيره ويشير مؤيديه ، قال فيه الاستاذ الابراهيم حلمي العمر الصحفي المشهور « واني لاحسبك مرتاح الضمير فخورا باستئناف المساعي لتحقيق فكرة ادبية سامية اول من فكر فيها وايدها . . . انما أعرفك من اولئك الذين يعملون في خدمة النهضة الادبية من دون جلبة وضوضاء » .

وطريقتك المثلى حب العمل للعمل نفسه لا للمباهات والتفاخر . هذه كلمتي اليك كلمة معترف بمالك من اياد بيضاء باعثة لك على الاستئناف الجهاد القديم لانشاء عصبة ادبية تكون في مأمن من تلاعب المتلاعبين بالعقول المنيرة » ورغم انشغال الرجل بالسياسة فانه لم ينس الادب في جريدته فكانت ماتقي الادباء والمفكرين في العراق وله آثار مهمة تعكس لنا التطورات الفكرية في العراق منها الشعر العصري والريعات وامين الريحاني في العراق والصحافة العراقية وغيرها .

عنوان (الزنبقة) ننقل منها ما يلي :

« هي بنت الحقول ربيبة الخلاء

باتت على الأرض فحككت ربيباتها من دراري القبة الزرقاء

فلله منها أميرة في دولتي الأرض والسماء

قامت على ساق أخضر وبدت بمحيا أنور

فرمزت بساقها الى الخصب ووفرة الثراء

واستهوت بطلعتها أبناء النور وعبدة الجمال •

تنال منها الشمس ملمساً فتداعبها بأناملها الذهبية

ويحسدها على ذلك الغمام لكنه يعز عليه موافاتها

هي درة الغبراء ، هي كوكب السماء •

هي الزنبقة رمز العفاف والطهر والصفاء » (١٢)

ويلاحظ على هذه المقطوعة شبيهاً من مقطوعات الريحاني ، فأشطرها

تختلف طولاً وقصراً واهتمامها بالقافية ، لم يكن على نسق واحد ،

ولا على نظام معين ، الأمر الذي يدلنا على أنهم ينظرون الى هذه

الطريقة الجديدة باعتبارها تحرراً كلياً من الوزن والقافية ، وان جمالها

يكمن في الافكار والمعاني لا في الاشكال الظاهرة • ولم يكن الاستاذ

روفائيل بطي هو الوحيد الذي تأثر بطريقة الريحاني هذه، بل تعاطاها

آخرون ساروا في نفس هذا الاتجاه ، نذكر منهم الاستاذ عبد الاحد

حبوش^(١٣) الذي كان ينشر انتاجه هذا في مجلة الزنبقة ، كقوله من قصيدة طويلة تحت عنوان (وقفة على قبر حبيبي) نأخذ منها :

« قد كان لي حبيب أجد قربه النعيم

كان خلي الودود الحميم ، وأنيسي الوحيد الوسيم •

اغتالته يد المنون في شرخ الشباب وتركني اقاسي العذاب لفرقة الوسيم •

ويا ليتها قصفت حياتي معه ، كي أكون مقترنة معه في الرميم •

ففي احدى الليالي المقمرة ذهبت لزيارة ضريحه كي افاجيه في الخلوة

وأناغيه في سكون الليل البهيم •

أخذت له معي زهوراً كي أفرشها على لحدّه فتذكرني بزهو شبابه

وأريج عرفه الكريم •



وصلت القبر فحييت الساكن فيه تحية فاضت لها دمعتي

قلت له : السلام ، ايها الراقد بسلام ، سلام على مهجتي •

كن اليقي في وحدتي ، كن جليسي في وحشتي •

كن عزائي في كربتي ، كن هنائي في نعمتي •• « (١٤)

وهي طويلة متعددة المقاطع ، كل مقطع بقافية تختلف عن قافية

(١٣) اديب عراقي عمل في الصحافة خلال العقد الثالث من هذا

القرن اصدر مجلة الزنبقة سنة ١٩٢٢ التي اهتمت بالادب الحديث ، كما

انها اول مجلة دافعت عن حقوق المرأة في العراق .

(١٤) الزنبقة عدد ٤ سنة ١٩٢٢ ص ١٠٨ .

المقطع الذي يليه ، وهي مجموعها متكلفة لا يبدو عليها أن صاحبها استفاد من الحرية التي أتاحها له هذه الطريقة .

وبعد غياب مجلة الزنبقة اهتمت مجلة الحرية التي صدرت بعدها بقليل بهذا الشعر المنشور فكثرت نماذجه وكلها على هذا النسق الذي تعرفنا عليه وكان بعضهم يذكر اسمه الصريح في حين كان الآخرون يلمحون او يكتنون . ولكن مع هذا ومع كثرة النماذج فان هذا الشعر نم يثر ضجة ولم ينتقده أحد في حينه .

وفي هذه الفترة بالذات يأتي دور الزهاوي ويأخذ المهمة على عاتقه تحت اصطلاح جديد هو الشعر المرسل وهو اصطلاح يطلق على الشعر الموزون والذي لا يراعي القافية في حين يكون الشعر المنشور حر الوزن وخال من القافية كذلك .

ويكفي أن يأخذ الزهاوي المهمة على عاتقه ليحدث ذلك الاثرو تلك الضجة ، فللرجل مكاتته وخطورته في عصره ، وهنا تظهر المعركة العملية بين انصار هذا الفن ومخالفيه لتصل الى حد السب والشتيم تعكسها صحف هذه الفترة حيث وقعت .

لقد دافع الزهاوي عن رأيه في الشعر المرسل — كما كان يسميه — في جريدة السياسة البغدادية ، وأتبع هذا الرأي بقصيدة من هذا الشعر ، وقد قدمت الجريدة المذكورة لهذا الرأي وتلك القصيدة بما يلي :

« الزهاوي يدعو الى التجديد في الشعر ويحمل على الأسلوب

القديم ، القافية علة تأخر الشعر العربي — القضاء عليها — قصيدة له من هذا النوع » وهي مقدمة تمهيدية لرأي الزهاوي والذي جاء تحت عنوان (الشعر المرسل) ، ونظراً لما لهذا الرأي من أهمية نقله بالنص من جريدة السياسة : « القوافي قيود ثقيلة في أرجل الشعر العربي يرسف فيها ولا يكاد يمشي حراً وكس من شاعر خسر المعنى لانصرافه الى القافية أو نبذه لما يكابد من صعوبتها ، وآخر رصف القوافي رصفاً وأخذ يستخرج المعاني منها كأنها الحجر الاساسي لبناء ابياته . وما التزام شعرائنا للقافية إلا جموداً منهم على القديم الذي ألفوه جيلاً بعد جيل ، وتهيباً منهم للجديد وان كان غرض الشباب جميلاً . القافية وحدها سبب تقصير الشعر العربي عن اللحاق بالشعر العربي وهي سبب فقدان الشعر القصصي عند العرب ، هي سبب قلة الابتكار وتفاهة المعاني والموضوعات عند الشعراء العرب ، فهي آفة الشعر العربي وعقبة الشاعر ... » .

وبعد هذه الثورة على القافية في الشعر العربي يبدأ الزهاوي بالتعليق على قصيدته هذه فيقول : « نظمت قصيدتي التالية مهملاً فيها القافية إلا في البيتين الأخيرين من كل حلقة منها وابقائي لها ، لأتدرج في نزعا من الازدهان بالثمام . وهي نموذج لما أستحسنه في القصيد من الارسال ، واني متحمل ما عسى أن يرد عليّ أعداء الجديد مستعد لأن أرد على كل من يتحقر لثقله بالباطل ، ولا أحصر الشعر في محور الخليل ، بل أترك للشاعر الخيار كل الخيار في ان ينظمه بأوزان الخليل

وغير الخليل مراعيًا في انطباقه على الألحان الموسيقية فحسب » •
والزهاوي هنا يتوقع سلفاً ما قد تحدثه هذه الآراء من ضجة لقوة
المحافظين حينذاك وخطورة الآراء التي جاء بها ، فهو في الوقت الذي
يستبعد الثقافية فانه يدعو الى الخروج على أوزان الخليل والاهتمام
بالموسيقى فحسب خارج بحور الخليل ، وقد يجد هذه الموسيقى في
الأوزان التي تنظم عليها العامة أشعارهم ، وقد يكون فيها من جمال
الموسيقى ما لا يكون في الأوزان المعتادة للشعر العربي • وبعد الرأي
المذكور يأتي الزهاوي بالقصيدة التالية :

في الصباح

قد شجعتني حمامة تنغى ذوق غصن غض من الليمون
سجعت في الصباح اذ شب النور ر على النهر والربي والبطاح
ورأتني أدفو فكفت عن السجع كمن خاف طارئا قد يضير

* * *

انما نحن يا حمام سواء فكلانا قد أبعد الدهر انسه
وكلانا يرى الحياة شقاء وكلانا قد بات يرقب حقيقه

* * *

باليل

أنت باليل كل ما أتمنى في حياتي وما تريد الحياة
حلمي أنت في منامي وذكرى كله عند يقظتي من منامي
انني عنك راحل وبرغمي انني عنك راحل فارحميني

* * *

كنت ألقى سعادة في دنوي وسألقى في البعد عنك شقاء
عائنيني فأنسي لست أدري هل اذا ما رحلت عنك أعود
وعسى أن يعود نحوك روعي يوم روعي تفك عنه القيود (١٥)

* * *

هذه هي قصيدة الزهاوي أربعة أبيات لا تلتزم بالقافية ، في حين يأتي بعدها بيتين بهما قافية ، وقصده من هذا أن يتدرج الى انتزاع القافية دون أن يهجم عليها هجوماً مباشراً .

اقتنا لا ننظر الى هذه القصيدة من الناحية الفنية اذ ليس فيها ما يختلف عن شعر الزهاوي المقتضى والموزون ، تلك هي طبيعة الزهاوي وافكاره وشاعريته ونظمه ، إنما ننظر اليها من الناحية التاريخية فحسب ، وننظر اليها من حيث انها كانت مشار جدل شديد بين مؤيدي هذه الدعوة ومخالفيها ، اذ يبدو من خلال هذه المعركة أن المحافظين كانت لهم قوتهم التي يستطيعون بها اسكات كل دعوة تخالف الشعر العربي المألوف ، حتى ان الزهاوي نفسه اضطر أن يتراجع الى حد ما أمام هذا التيار الجارف فقال « يسرني أن أرى ادباء العاصمة يرهفون أقلامهم ، ويخوضون عجاجة حرب قلمية تتعلق بحياة الأدب ، وباعث هذا النضال الذي أخذ يعلو ضجيجيه هو القافية يغار عليها الاكثرون ويريدون بقاءها ، ويدلون بالحجج ابتغاء تفنيد ما أوردته من الدلائل على كونها ليست من

الشعر وانما عقبه كأداء في سبيل نهضتنا الأدبية قلت في السياسة اني لا أريد أن اتزع من الشعر ما يكون به الشعر شعراً وهو الوزن بل غايتي هي أن أنزع ما لصق به بحكم العادة من القافية كذب يجره وراءه أو كقيد ثقيل يرسف فيه ، ونزعي للذنب لا يستلزم نزع سلسلته الفقرية ، ونزعي للقيد لا يستوجب نزع الرجل نفسها معه ، واني لأغار على الوزن اكثر من غيري لأن الشعر لا يتم إلا به ، فالأحرى ان تطابق الاوزان عصرنا من الاتحان الجديدة ، فكم من معنى جليل القدر اضطر الشاعر الى تركه لعدم وجود قافية تناسبه ، وهذا هو سر تأخر الشعر العربي عندنا » (١٦) .

ولم يقف الامر عند هذا الحد اذ يبدو أن الامر وصل الى حد المهارات ، فالمحافظون من القوة بحيث يستطيعون ان يألّبوا الرأي العام على الزهاوي ويرموه بالشعوية والخط من التراث العربي ، فخرج الزهاوي عن طوره ووضع حداً فاضلاً لهذا الجدل وطلب من الجميع مؤيديه ومعارضيه ان ينسوا كل ما قاله الزهاوي في الشعر المرسل فقد نشر تحت عنوان (الى المتخاصمين حولي) جاء فيه : « كنت أحسب أن هناك نقداً نزيهاً تراد به خدمة الحقيقة ورفع شأن الأدب ، واذا النقد تشويه لسمعة العراق ، فاذا كانت هذه الشتائم من أجل ان المتشوقين قد فضلوا شعري على شعر غيري لحسن ظنهم بي ، فاني سداً لهذه الطريقة ، طريقة السب والقذف من المخالفين ، الملتجئين اليها لأثبات

ملعاهم أعلن (مسالماً) أنني أصغر الشعراء على الأرض ذات العرض ،
بل اني لست شاعراً ، فليكن السبابون عن المفضلين ايبي ، وليكن
المفضلون عن محاربة السبابين ، وعسى ان يكون في قلبي هذا ردع
للمقترفين ذنب الاساءة الى الادب في العصر العشرين » (١٧) . هذه اللمحة
المتطرفة تدل دلالة واضحة على عنف الجدل الذي أثير بين الجماعتين .
ومن الذين أيدوا الزهاوي وساروا على طريقته في الشعر المرسل
أي الاهتمام بالوزن دون القافية الاستاذ شكري الفضلي ، فقد دافع
عن هذه الطريقة وجاء بقصيدة لا تختلف عن تلك التي رأيناها عند
الزهاوي فقد كتب في جريدة العراق تحت عنوان (الشعر المرسل) جاء
فيه : « نشر شاعر العرب وفيلسوف الشرق الزهاوي الامام منذ سنتين
بهذا العنوان قصيدة بلا قافية في صحيفة المؤيد المصرية فكان لها
دوي استحسان في الاندية الادبية غير ان أعماله العلمية والادبية
لم تمنعه عن المواظبة في نشر مثل تلك القصائد العصماء التي تطلق الشاعر
من قيد القافية فتتركه حراً في بيان شعوره واحساسه لا أسيراً لمسا
يناسب القوافي من المعاني ، ومبتكراً يترجم عن الطبيعة لا مقلداً لما تكرر
من الافكار المتبدلة التي يمجها الادب المصري ويعافها العلم الصحيح
وان الاستاذ عاد ونشر في صحيفة السياسة البغدادية مقالة في وجوب
الاستئناس بالشعر المرسل وترك القافية لأنه يريد أن يمهّد الطريق
للشعور بالاحساس ، وترك الشعراء مختارين في قول الشعر على أوزان

الخليل المعروفة وعلى ما يرويه مناسبا في الالحن الموسيقية وعلى هذا فوجود الثقافية وعدمها سواء بالنظر لاستقامة الوزن ، وهذا هو المطلوب لتخليص الشعراء من مصيبة الثقافية التي أخرت الادب العربي . فاذا أنعمت النظر في دواوين الادباء المتقدمين تجد القصائد المتشابهة القوافي كأنها مسروقة بعضها من بعض ، وها أنذا أقدم الى القراء قطعة من الشعر المرسل تحت عنوان حمامة وهر :

كانت تنوح حمامة	والصبح مرآة اذكار
فتريك حاجتها الى	ألم التألف والمعاش
حنت الى الف لها	ثم أتبت أكلا وشربا
شر الطبيعة كامن	في قلبها الحر الصغير
فهوت اليها هرة	في سرعة السهم المصيب
فتخبطتها بين أنياب	وأظفار حداد
وكانما قتل الحمامة	لم يشرها بقتل
هذي الحياة وسيلة	للموت ليتك لم تكنها (١٨)

وهي كما ترى لا تختلف عن قصيدة الزهاوي من حيث اهتمامها بالوزن وعدم مراعاتها الثقافية ومن حيث ترتيب الاشطر ، كما أنه ليس فيها ما يدل على ان صاحبها استطاع ان يستفيد من الحرية التي منحتها له هذه الطريقة الجديدة ، وربما كانت هذه النماذج سببا في تطرف مخالفني هذه الطريقة والخط من قيمتها وعندهم ان الفضان الموهوب

لا يمكن أن تقف امامه عقبة كالثقافية لأنه بموهبته يستطيع أن يتخطى القيود فيبتكر ويبدع ليشير اعجاب الآخرين ومن فاحيتنا فلا نستطيع أن نستعرض آراء كل مخالف في هذا الشعر الجديد لكثرتها وتشابهاها ، وانما فكنت في رأي الشاعر المعروف الرصافي ، والذي جاء ردا على سؤال لمحرر جريدة الحرية « ما تقول في الشعر المنشور الذي ابتدعه الريحاني والشعر الذي سماه صاحبه بالشعر المرسل (١٩) ؟ — ج : الشعر لا يقال الا لينشد وبعبارة أخرى ليتغنى به فلا بد فيه من الوزن والثقافية لان الغناء نعم وإيقاع وهما لا يكونان الا على تقاطيع متوازنة من الكلام ، ولم نعهد أمة من الأمم الغابرة ولا الحاضرة تغنت بشعر لا وزن فيه وغاية ما نراه من شعراء أوروبا اليوم هو انهم يبعدون في القوافي ويتجاوزون فيها ولا يهتمون بتاتا ، وكما يتجاوزون في القوافي يتجاوزون في الوزن ايضا فلا يلتزمون في القصيدة الواحدة وزنا واحدا وهي تشبه الموشحات عند العرب . وأنا لم أطلع على الشعر الافرنجي لكنني اطلمت على المتفرجين من شعراء الاتراك الذين قلدوا الغرب تقليدا مطلقا فلم أر شعرا خاليا من الوزن ومن الثقافية ولكنهم يبعدون فيها ويتجاوزون . وجل ما يتجلى لي من هذا الشعر الذي يسميه صاحبه بالمرسل انما هو اقتران الرعونة بالشعر وخطط السخافة بالنظرافة وادغام التفاهة بالتباهة وطلب السمعة من وراء البدعة ...

(١٩) المقصود هنا الزهاوي ، والشائع ان علاقة الزهاوي بالرصافي

لم تكن على ما يرام .

اما الشعر المنشور العاري من الوزن والقافية فهو شعر بالمعنى الاعم أي هو شعر بمعانيه التي تفعل بالنفس ما يفعله الانشاد المقترن بالنهم والايقاع الا انه لا يتغنى به فعلا فهو اذن تقليد للشعر المنظوم من جهة الغاية ، وجذا لو سمي الشعر المنشور بالشعر الصامت لعدم اقترانه بالغناء والرقص وسمي المنظوم بالناطق لاقتترانه بذلك ... وأما استحسان الشعر المنشور لأنه خير واسطة لاثارة القرائح والعواطف لكنني لا أفضله على الشعر المنظوم » (٢٠) .

وهذه التفرقة يطغى عليها الجانب الشخصي على الأكثر لان الرصافي يخالف الزهاوي على طول الخط ، ولكنه رأي يعبر عن آراء كثير من مخالفي هذه الطريقة الجديدة .

وبعد هذه الضجة الكبيرة لم نعد نعرثر على نماذج من الشعر المرسل في الصحافة العراقية ، كل ما هنالك شعر مترجم عن اللغات الاجنبية وبخاصة من الانكليزية والفرنسية . وكان يرافق هذا الشعر المنشور والمرسل ، لون آخر فيه الكثير من الطرافة والتجديد تنقله الصحافة العراقية لشعراء مصر وسوريا وبلاد المهجر ، فلقت اقتباه القراء لما فيه من رقة ظاهرة وافكار جديدة لم يمهدها الشعر العراقي من قبل . من هذا الشعر ما كانت تنقله مجلة الحرية البغدادية للأستاذ ابراهيم المازني ، وكانت تسمي هذا الشعر وامثاله بالطريقة الجديدة في الشعر العربي .

ومن ذلك قول المازني تحت عنوان (محاوراة صغيرة مع ابن لي
بعد وفاة أمه) • ومنها :

لم أكلمه ولكن نظرتي

سألته أين أمك ؟

أين أمك ؟

وهو يهذي لي على عاداته

مذ تولت كل يوم

كل يوم

فأثنى يسطفي وجهي الغضون

ولعمري كيف ذاك ؟

كيف ذاك ؟

قلت لما أمسكت وجهي يده

أترى تملك حيلة ؟

أي حيلة

قال ما تعني بذا يا أبتاه

قلت لا شيء أردته

ولثنته (٢١)

والذي لا شك فيه ان في هذه المقطوعة وأمثالها أفكاراً جديدة
لا عهد للشعر العراقي بها ، ذلك الشعر الذي يغلب عليه الجانب

الخطابي ، والانغماس في الاحداث العامة ، ولهذا فانه لا يمكن أن يمر من غير أن يحدث أثراً على القراء ، وبخاصة حينما نعلم ان الصحف التي اهتمت بهذا الجديد في الادب والشعر كانت سوقها رائجة من أمثال مجلة الحرية والناشئة الجديدة وجريدة المفيد وغيرها الكثير .

وقريب من هذا ما كانت تنقله الصحف العراقية لشعراء المهجر امثال جبران ونعيمة وأبي ماضي وغيرهم ، من ذلك هذه القصيدة لجبران :

سكن الليل وفي ثوب السكون	تختبي الاحلام
وسعى البدر وللبدر عيون	ترصد الايام
فتعالى يا ابنة الحقل زور	كرمة العشاق
علنا نظفي بذيالك العصير	حرقه الاشواق
اسمي البلبل مابين الحقول	يسكب الالحيان
في فضاء تفضت فيه التلول	نسمة الريحان
لا تخافي يا فتاتي فالتجوم	تكتتم الاخبار
وضباب الليل في تلك الكروم	يحجب الاسرار
لا تخافي فغروس الجن في	كهفها المسحور
هجمت سكرى وكادت تختفي	عن عيون الحور (٣٣)

هذا الشعر لم يكن مجال تعليق المحافظين في صحفهم لأنهم لا يستطيعون ان يجدوا اليه سبيلاً يحطون من قيمته ، موزون رغم

اختلاف عدد التفعيلات الأمر الذي يكسب القصيدة ايحاءاً موسيقياً خاصاً ، مقفى وان تعددت هذه القوافي وتنوعت ، فاذا تركنا الشكل وانتقلنا الى المضمون رأينا فيه كل الطرافة والابداع في خلق افكار جديدة لم تكن شائعة في شعرنا العراقي ، لغة شعرية هامسة تتداعى فيها الافكار لتكون وحدة ظاهرة في التفكير .

وعلى اساس من هذا كله نستطيع القول : بأن حركة الشعر المنشور وحركة الشعر المرسل التي ظهرت في بداية العقد الثالث من هذا القرن ، وحركة التجديد في الشعر العربي في مصر وسوريا وبلاد المهجر ، جميعها كانت أساساً لهذه الحركة التي ظهرت قوية بعد الحرب العالمية الثانية يضاف الى هذا كله انفتاح العراق على العالم العربي وتطلع الشباب على آدابهم واتقانهم للغاتهم كل هذا كون شعوراً بالتغيير فلم يعودوا يهتمون بالاشكال القديمة ، وصاروا يتطلعون الى طريقة جديدة يستطيعون معها ان ينشروا افكارهم بحرية ويسر .

ان كثيراً ممن تعاطوا الشعر الحر في العراق كانوا يعرفون لغات أجنبية تأثروا بها وبأدبها ، وبخاصة رواد هذه الطريقة فالسياب كان يعرف الانكليزية جيداً . ويذكر الاستاذ لويس عوض « ان السياب قد عرف طريقه واضحا الى الادب الرومانسي والاوربي ولاسيما عند شيلي وكيتس ... حتى لقد دفعه التغلغل في التجربة الرومانسية الى محاولة معارضة هذين الشاعرين معارضة جريئة سافرة ، انظر الى قصيدة السياب (اتبعيني) وقصيدة شيلي المشهورة (اتبعيني اتبعيني)

فقصيدة السياب بمثابة تنويعات على قصيدة شيلي » (٢٣) .

وقل مثل هذا في الشاعرة فازك الملائكة والبياتي وغيرهم ، ممن توخوا هذه الطريقة التي تخلصهم من قيود اللغة وقيود الشعر العربي المتمثلة في الوزن والقافية ، يدلنا على ذلك ان هؤلاء الرواد بدءوا حياتهم الشعرية وهم ينظمون على الطريقة الشعرية القديمة ، وقد حفلت الصحافة العراقية بنماذج كثيرة من قصائد للسياب وفازك والبياتي وكلها تسير على عمود الشعر العربي قبل أن يعاطوا هذه الطريقة الجديدة .

يصرح غير واحد من هؤلاء الرواد أن العصر الحديث بما فيه من قيم ومعايير حضارية جديدة أوجبت بأن يكون لها عدل فني في الشكل والمضمون وأن القالب القديم للقصيدة العربية لم يعد يواكب كل هذه التطورات الهائلة في حياتنا الحديثة ، ولهذا فلا بد من طريقة جديدة تستطيع أن تتسع لهذه الافكار .

والشعر العربي بما فيه من قيود لا يمكن إلا ان يكون حاجزاً صناعياً يحول دون تحول هذه الافكار الى لغة يسهل التعبير بها وبهذا يصبح الشاعر أسير هذه القيود المصطنعة ، ويفقد تبعاً لذلك الحرية التي لا يمكن لأديب ان يحيا بدونها ، وعندهم ان القافية كثيراً ما تضطرهم الى الابتعاد عما فكروا به أصلاً ، ففي الوقت الذي ينهمك فيه الشاعر في اقتناص اللفظة الملائمة للقافية يكون قد نسى الفكرة التي أرادها أن

تسكن للغة ، وبهذا تضع الفائدة المتوخاه ، بل ربما وضع الشاعر قلمه بعد ضياع فكرته بفعل هذا القيد الصناعي ، وفي حالة استمراره فانه سيقضي حتماً على الوحدة الفنية في القصيدة فيضطر الى الدخول في متاهات لم يكن ليريدها لو سارت المسألة بصورة طبيعية . ومن هنا تتعدد الموضوعات في القصيدة الواحدة فلم تعد تملك ذلك التأثير القوي على القاريء والسامع وفي هذا كله ايقاف لنمو الأدب ونضوب الفكر . وهذا ما نراه واضحاً في حجج انصار هذه الطريقة يقول السياب « لقد أصبح الشاعر الحديث يطمح الى ان يجعل القصيدة وحدة متماسكة الاجزاء بحيث لو قدمت أو أخرت في ابياتها لأختلت القصيدة وفقدت جزءاً من تأثيرها فهل يسمح الشاعر الحديث للقافية الموحدة بأن تكون حجرة عشرة في سبيله هذا ، لقد شعبنا من تلك القوالب التي تفرضها القافية » (٢٤) .

وفي هذا تعميم قد لا يصدق على نماذج كثيرة في أدبنا العربي ، وقد اثبت بعض المحدثين ومنهم الاستاذ الدكتور لطفي عبد البديع خطل الرأي القائل بوحدة البيت لا وحدة القصيدة في شعرنا العربي (٢٥) الذي يسير على نظام البحر الموحد والقافية الموحدة ، ولهذا فان القافية قد لا تملك كل تلك السطوة عند الشعراء الموهوبين ، وربما تكون

(٢٤) عبد الجبار البصري - بدر شاكر السياب رائد الشعر الحر -

ص ٨٧ .

(٢٥) انظر كتاب الشعر واللغة .

واضحة الأثر لدى كثير من الشعراء ذوي المواهب المتوسطة والضعيفة ، الذين لم تمكنهم ثروتهم اللغوية والادبية من التعبير بحرية تامة عن افكارهم ، وربما يجدون صعوبة في ايجاد عدل لفظي يتسع للفكرة التي يريدون ان يطوعوها للغة ، وليس المقصود هنا بالالفاظ التي تحتويها معاجم اللغة ، انما نعني بها الالفاظ التي تحمل لغة شاعرية فيها شحنات لا تعطي نفسها إلا حيث وضعت في مكانها الملائم ، فثروة الاديب اللغوية هي معيار فكره وثقافته وكلما كانت هذه المفردات كثيرة كان حظه في التعبير أكثر ، وحينئذ قد لا تقف في وجهه عقبة معينة كالقافية مثلاً ، ولسنا هنا بصدد الدفاع عن رأي بعينه لأن كثيراً ممن تعاطوا هذا الفن ظهر أنهم لم يستطيعوا أن يستفيدوا من هذه الحرية التي هيؤها لأنفسهم . وعلى كل حال فان أصحاب هذه الطريقة الجديدة وجهوا أكثر هجومهم الى القافية واعتبروها مشكلة عويصة تقف امام افكارهم وانها كانت سبباً مهماً في تعاطي هذه الطريقة الجديدة ، تقول فارك الملائكة » ... نحن مازلنا اسرى تسيرنا القواعد التي وضعها أسلافنا في الجاهلية والاسلام ، ما زلنا نلث في قصائدنا ونجر عواطفنا المقيدة بسلاسل الاوزان القديمة وفرقة الالفاظ الميتة وسدى يحاول أفراد منا أن يخالفوا فاذ ذاك يتصدى لهم الف غيور على اللغة وألف حريص على التقاليد الشعرية التي ابتكرها واحد قديم أدرك ما يناسب زمانه فجمدنا نحن ما ابتكر واتخذناه سنة ، كأن سلامة اللغة لا تتم إلا ان هي جمست على ما كانت عليه منذ الف عام أما القافية ذلك الحجر

الذي تلقمه الطريقة القديمة كل بيت فكافت سبباً في خلو الادب العربي من الملاحم ، وليس هذا مكان الحديث عن الخسائر الفاحشة التي أنزلتها القافية بالشعر العربي طيلة عصوره بل هي تفضي على القصيدة لوثة رتبية على السامع فضلاً عما تثير في نفسه من شعور بتكلف الشاعر وقصيدته للقافية . ومن المؤكد ان القافية الموحدة قد خنقت أحاسيس كثيرة ووادت معاني لا حصر لها في صدور الشعراء ، وهذه الضرورة قابلة للخمول لدى أول عائق يعترض سبيلها ، والقافية الموحدة هي العائق ... ولذلك قلما نجد في أدبنا القديم قصائد موحدة الفكرة » (٢٦) .

والذي نراه من هذا الهجوم على القافية ، انه ينطبق الى حد بعيد على أولئك الشعراء الذين يجهدون انفسهم أكثر مما يطيقون بغية اصطياد القافية الملائمة ، عبثاً يحاول أمثال هؤلاء أن يكونوا من الشعراء لأنهم سيجدون أنفسهم في مدى تجربة واحدة او تجربتين أن هناك حواجز تمنعهم من أن يكونوا شعراء ، اما اذا واصلوا السير فلن يكون شعرهم غير نظم متكلف لا أثر فيه للشاعرية او خلق افكار جديدة فيها من الخلق الشيء الكثير ، وربما كانت هذه الزمرة من الشعراء هم الذين حولوا الشعر الى مجرد نظم ، وربما كان المعجبون بهذا الشعر هم الذين عناهم الاستاذ عبد الوهاب البياتي في هجومه الكاسح على الشعر التقليدي واصحابه وقرائه حين قال : « هؤلاء الشعراء المساكين الذين لا يزالون يجلسون مزجر الكلب من مائدة الشنفرى والبحترى والحارث

ابن حلزة وعيونهم جاحظة ولعابهم يسيل ولا يزالون يتصيدون أوزانهم وقوافيهم لينالوا أعجاب بائع الباذنجان خائب أو حبيبة وهمية أو مدوح عاهر بطين في عصر مليء بالبطولات والانقلابات وفي أرضنا الطيبة وفي شرقنا العربي وفي القرن العشرين أيضاً لا يزال مئات ومئات من صيادي الذباب ينظمون ويهرفون فمن لنا باحراقهم واحراق شعرهم وذبابهم • وأعود الى رعرش الذباب الثقافية والى الوزن والايقاع فأقول انه آن لنا ان نقضي عليهما قدر الامكان لأنهما لم يعودا مواعين لتجاربنا الحديثة ولأزمة ضميرنا وحريرتنا وان الاكتشافات أو الاصقاع الباهرة المجهولة العميقة المضيفة التي أرتادها الفنان اليوناني أو الصيني القديم انطفأ على ابواب مستحيلها أغلب أجدادنا ، وكل الجناية في هذا تقع على رقبة عمود الشعر » (٢٧) •

تحامل غريب على الشعر العربي مع أنه يعبر عن مرحلة فكرية وثقافية معينة ، واذا كان في هذا التحامل ما ينطبق على النظامين في شعرنا الحديث أولئك الذين يعجبون بائع الباذنجان ومن هم على شاكلته ، هؤلاء الذين ما زالت ثقافتهم واحدة لم تتبدل ، فتحولوا الى معلمين وخطباء ينصحون ويعظون ، ومع هذا فانهم يجدون من يسمع هذه النصيحة وذلك الوعظ ويعجبون بهذا كله • وعندهم ان من العبث أن يشغل المرء نفسه بقراءة كتاب في الفلسفة أو أن يتلهم بقراءة كتاب في علم النفس أو في السياسة والقصة أو أي أدب اجنبي مستورد،

هم قانعون بهذا التراث فحسب فجمدوه وجمدوا عنده .

والنقطة الثانية التي كثر الجدل حولها بين مؤيدي ومخالفني هذه الطريقة الجديدة هي مسألة الوزن ، فأصحاب هذه الطريقة يذكرون غير مرة أنهم سئموا الرتابة المملة التي يحدثها الوزن في القصيدة الواحدة . ولهذا فلا بد من تغيير في بعض التفعيلات داخل البحر الواحد مع الابقاء على البحر في قصيدة بعينها . والحقيقة التي يلاحظها المدقق حول هذه النقطة بالذات هي ان شعراء هذه الطريقة لم يتفقوا حتى الآن حول هذه المسألة ، وان النماذج التي بين أيدينا لا تدل في اكثرها على ان هناك منهجاً او نظرية معينة طبقت بصورة عملية ، فبينما نرى أن أكثرهم لا يهتمون بالوزن ، ويفهمون هذا الشعر على أنه تحرر في كل شيء وثورة على كل قيد ونظام ، وأنه من غير المعقول ان ندعو للحرية ومن ثم نكبل انفسنا بقيود نحن الذين دعونا لازالتها ، نرى الآخرين وهم رواد هذا الفن قد وضعوا لانفسهم نظرية طبقوها بصورة عملية على شعرهم .

ولهذا صرنا نجد فريقين ، الفريق الاول ويمثله الكثيرون من الشباب ينظرون الى هذا الفن على أنه حرية مطلقة فكافت نماذجهم مثالا سيئاً لهذا الفن الجديد ، كقول أحدهم :

زعيمنا عبقرى

جسر عظيم

فيا مدعي القومية

كنت عبداً أو شبيهاً بالعبد
وأنت اليوم حر
فماذا تريد
تدعي القومية
وأنت من أيتام
نوري السعيد (٢٨)

أمثال هذا الشعر كثير لا يمكن أن تأتي عليه ، الامر الذي يجعلنا نعتقد ان الكثيرين ممن تعاطوا هذا الشعر كانوا ينظرون الى شكله الهندسي ، مقاطع قصيرة قد تكون كلمة واحدة ، ومقاطع طويلة قد تكون عدة كلمات مرتبة بعضها مع بعض ولا شيء بعد ذلك ، هكذا كان ينظر اليه البعض حتى لقد تعاطاه طلبة المدارس في المرحلة الاعدادية والمتوسطة فامتلات الصحافة بهذا الشعر ، في وقت لا يملك فيه هؤلاء أية خبرة تؤهلهم حتى لمجرد القول فكافوا سببا في الاساءة اليه ، بل ان رواده اضطروا غير مرة لاستنكار هذه النماذج باعتبارها ليست من الشعر الحر ، مجرد اندفاع لا يستند على أساس ، قالت جريدة اليقظة وهي تعلق على هذه النماذج وأصحابها « الظاهرة البارزة أن معظم المندفعين بتيار هذه الحركة الجديدة هم من الشباب الذين لم تتمزق أقدامهم في دروب الشعر الشائكة ، وفي مثل هذه السن الغضة تبدو اللقمة من السفح على مدى قفزة واحدة . ومن خصائص القوة

أنها تضيق بالطريق الطويلة ، وفي حسمها تبدو عملية الاختصار امرا سهلا وواجبا ، ولست اجد أقرب من هذا تفسيرا لهذه الاندفاع وراء حركة الشعر الحر ولسنا نعرف حركة تجديدية بدأت بتطبيق واسع قبل أن تبدأ بنظرية » (٢٩) .

هذه الاندفاعة أوجدت فيضا غزيرا قد لا نبشر بمستقبل باهر لهذا الشعر اذا استمرت كما هي عليه الان ذكرت نازك الملائكة في مجلة الآداب البيروتية وهي تعلق على هذه البلبلة التي احداثها هؤلاء الطارئون فقالت « ان أكثر الشعراء الذين أقدموا على الشعر الحر بحماسة ، لا يعرفون حتى الآن الغرض منها والحق يقال انه اذا كانت ثمان سنوات من الشعر الحر لم تصح شعراءنا من السكرة الاولى التي جاءت بها فرحة الحرية فان الامر لا يبشر بالخير الكثير لقد نظرت في قصائد عدد ديسمبر من مجلة الآداب فوجدت تسع قصائد حرة الاوزان من مجموع عشر » (٣٠) .

ولم تكن هذه الصرخة الا صدى لهذا الفيض الغزير من الشعر الحديث الذي لا يدل على ان اصحابه يعرفون ماذا يقولون ، تسعة قصائد من مجموع عشرة حرة الاوزان ، ومع هذا فانهم يعتبرونه شعرا حرا .

والحقيقة التي لا يستطيع الباحث في هذا الشعر ان يتناساها ،

(٢٩) جريدة اليقظة عدد ١٩٥٥ سنة ١٩٥٤ .

(٣٠) مجلة الاداب عدد ٢ سنة ١٩٥٨ .

هي ان نازك الملائكة كانت خير من وضع أصول هذا الفن من حيث الوزن وطبقته تطبيقا عمليا على شعرها . ففي الوقت الذي التزم فيه السياب بالوزن لكنه مع هذا لم يشرح في يوم من الايام طريقته هذه بل اكتفى بالقول : ان هذا الشعر يقضي على الاوزان الطويلة ويستعيز عنها بالبحور القصيرة دون أن يدعو الى تعدد الاوزان في القصيدة الواحدة (٣١) . في حين كانت نازك الملائكة موفقة في شرح طريقتهما التي سارت عليها وفي تحديد ابعاد هذا الشعر ونظامه الذي يقوم عليه وبهذا تكون أول من فسر هذه النظرية بصورة عملية ووضعت لذلك كله قواعد واصولا ، تقوم على الحرية في التلاعب بعدد التفعيلات في القصيدة الواحدة داخل البحر الواحد ، فالمعروف أن الخليل بن أحمد وضع لكل بحر تفعيلات معينة ، لا يجوز تخطيها بحال من الاحوال اما هذا الشعر فانه يعطي الحرية للشاعر في نطاق البحر الواحد ، وهي حرية لا تقضي على نظام البحر في الشعر العربي او على ابدال التفعيلة بأخرى ، بل تتلاعب بها وتجعلها داخلية ضمن اطار ذلك البحر ، وبمعنى أدق فبدلا من أن يتكون الشطر من ثلاث تفعيلات أو أربع قد يتكون من تفعيلة واحدة او تفعيلتين ، ولكي نكون أكثر دقة ننقل ما قالته نازك الملائكة بالنص في مقدمة ديوانها شظايا ورماد « انني احسست أن هذا الاسلوب الجديد في ترتيب تفاعيل الخليل يطلق جناح الشاعر من ألف قيد ، فالإبيات التالية من المتقارب وهي تركز على

تفصيلة واحدة وهي (فمولن) :

يداك للمس النجوم

ونسج الغيوم

يداك لجمع الظلام

وتشييد يوتوبيا في الرمال

أتراني لو كنت استعملت أسلوب الخليل كنت استطيع التعبير
عن المعنى بهذا الايجاز وهذه السهولة ؟ ألف لا . فأنا مضطرة أن اتمم
اذ ذاك بيتا له شطران ، فأتكلف معاني أخرى أملأ بها المكان وربما
جاء البيت الاول بعد ذلك كما يلي :

يداك للمس النجوم الوضاء ونسج الغمام ملء السماء

وهي صورة جنى عليها نظام الشطرين جناية كبيرة، هذا اذا أخذنا
المتقارب ، اما الطويل فالبلية أعق وأمر ، اذ ذاك تطول العكازات
وتتسع الرقع وينكمش المعنى افكاشا مهينا فنقول :

يداك للمس النجم او نسج غيمة يسيرها الاعصار في كل مشرق

هذا الاسلوب الجديد ليس فيه خروج على طريقة الخليل ، وانما
هو تعديل لها يتطلبه تطور المعاني والاساليب خلال العصور التي
تفصلنا عن الخليل ، فالخليل جعل الكامل متقاتلن متفاعلن متفاعلن
ثلاث في الشطر الاول وثلاث في الشطر الثاني ، وكل ما نستطيع نحن
الان ، ان نتلاعب بعدد التفاعيل وترتيبها فتجيء القصيدة من هذا
البحر أحيانا كقصيدة (جدران وظلال) وهذا مقطع منها :

وهناك في الاعماق شيء جامد

حجرت بلادته المساء عن النهار

شيء رهيب بارد

يدعي جدار

أواه لو هدم الجدار

« ولو قطعناه لجاءت تفصيلاته كما يلي : ثلاث ، ثلاث ، اثنتان ،

واحدة ، اثنتان . وميزة هذه الطريقة انها تحرر الشاعر من عبودية

الشطرين » (٣٢) .

وقد نشرت فازك الكثير من هذه التطبيقات في الصحف وبخاصة

في مجلة الآداب اللبنانية ولم نعر على مثل هذه التطبيقات لشاعر آخر

يسير على هذه الطريقة .

يدعي أكثر شعراء هذه الطريقة ان قيود الوزن والقافية هي التي

منعت الشعراء العرب من الاتيان بأعمال خالدة ، ويستدلون على ذلك

بخلو الادب العربي من الملاحم او الشعر المسرحي وغيرهما ، وربما

أوحى هذا الادعاء أنهم بصدد خلق نماذج عن طريق هذه

الحرية التي تهيأت لهم في الشعر الحر ، ولكن مع هذا وبحتى الآن فليس

في انتاجهم ما يدل على وجود شيء من ذلك بل اننا لو جمعنا كل ما قيل

في الشعر الحر لرأينا أن أكثره لا يخرج عن مقطعات لا يربو متوسطها

عن الثلاثين شطرا أقل أو أكثر (٣٣) يطغى عليها العنصر الذاتي . كما
كان كثير منهم يموه ويلغز بحجة أنه رمزي حتى تعذر على كثير من
القراء فك هذه الطلاس ، وإذا ما رفعوا أصواتهم مطالبين بالايضاح
جوبهوا بهجوم مرير من أصحابه بحجة انهم سطحيون جامدون ومن
ذلك ما نشرته مجلة النشاط الثقافي :

اليها مزقت أهابي

وسرت

عليها زرعت ثيابي

وفيها وراء الحصا والتراب

عندي ومصيري بذرت

اليها اقتف نفسي

وأمشي .

عليها .. لاصنع مهدي

ونعشي

وأحقّر رمسي

(٣٣) لقد شذ عن هؤلاء الاستاذ بدر شاكر السياب فقد نشرت له
مجلة البيان النجفية قصيدتين الاولى في العدد ٦٥ تحت عنوان (ستار)
تتكون من سبعة مقاطع كل مقطع بأكثر من عشرة اشطر ، والثانية في
العدد ٧٢ تتكون من احد عشر مقطعا لا تزيد في اشطرها عن الاولى ، وهو
في كلتا القصيدتين يتعرض لوضع العراق في العهد الملكي .

وأبقى بلا ريشة حرة

تسلح جلدي (٣٤)

ولا شك أن القاريء سيجد أن الفاظا بعينها قد حشرت حشرا مع ما فيها من نبو على السمع لوضع الكلمة في غير موضعها الملائم ، مزقت أهابي ، زرعت ثيابي ، تسلح جلدي ... انا في كثير من الاحيان ننظر الى الغموض الذي يأتي في اشعار بعضهم لا على أنه ناشيء من عمق الفكرة بل من سوء تصرفهم في اللغة واستعمال المفردات في غير مكانها الصحيح ، حتى ان بعضهم كان يتدع اشتقاقات لا وجود لها في اللغة أصلا ، وهذا يجعلنا نعتقد ان الحرية تملت حدود الوزن والقافية لتصل الى صميم اللغة ذاتها يتلاعبون بها حيث أرادوا وان خرجت عن الاستعمال الصحيح في لغتنا العربية كقول أحدهم :

غدا يعود سيدي

شراعه كقيمة بيضاء عند الشفق

أعرفه متى يلوح ، كيف لا ؟

خيوطه أنا الغزلتها أصابعي

سيعود أهلا

من المجاهل الوراق قبرص الحبيبة •

وقد علق على هذه القصيدة احد اللغويين المعروفين وهو الاستاذ

(٣٤) مجلة النشاط الثقافي عدد ٦ ، ٧ سنة ١٩٥٨ ص ٣٥٤ وانظر

تعليق الشيخ عبد الهادي العصامي على هذه القصيدة بالذات .

ابراهيم السامرائي فذكر قائلاً « ولا ندري من أين جاء بهذه (الغزلتها
يدي) ولا هذه المجاهل الورا قبرص الحبيبة » (٣٥) .

حسناً فاذا كانت المسألة على طريقة يجوز للشاعر مالا يجوز
لغيره ففي هذه الحالة تنتفي أهمية هذا الشعر لاقتفاء الحاجة اليه .
ومع هذا فقد أغرق أكثر شعراء هذه الطريقة في الالتزام ،
وجعلوا من شعرهم وسيلة لخدمة فكرة سياسية معينة كما هو الحال
في القصيدة العربية التي تعرفنا على نماذج منها في الفصل السابق ،
لقد ادخلوا شعرهم في حمأة السياسة وراحوا يعالجون موضوعات
يغاب عليها طابع التشابه والفرق بين هذا الشعر وذاك أن القصيدة
العربية تغلب عليها الخطائية والاسلوب التقريري الذي يحمل طابع
الهجوم المباشر ، في حين هيأت الحرية الجديدة لصاحبها ان ينساب
هامسا الى نفوسنا ويجعلنا اكثر ايمانا ورسوخا فيما نقرأ ، وهناك
فرق بين ثورة تأتي من الخارج وأخرى تنبع من الاعماق كقول البياتي:

الا يا قطار الشمال البعيد

الى شرق برلين عجل بنا

فعما قليل يشق السماء

هتاف الجماهير (أفا هنا)

وغاب رفيق القطار

ومنديها لم يزل في يدي

وسروتها تصنع الاغنيات

عصافيرها بانتظار الغد

وأفات أخوتي الجائعين

وشعبي الحزين

تلاحقني

يا رفيق التضال

طوال الليال

وفي وطني يقتلون الرجال (٣٦)

ان المكاسب التي حققها هذا الشعر ، اذا نظرنا اليها من خلال انتاج رواده من أمثال السياب ونازك والبياتي لا يمكن التقليل من أثرها ، فقد منحوا الالفاظ الكثير من الافكار والمعاني بفعل استعمالاتها الجديدة . كما قضي على الرتبة المليلة التي تحدثها القافية الموحدة والوزن الموحد ، كالذي نراه في قصيدة السياب : (السوق القديم) :

» الليل والسوق القديم

خفتت به الاصوات الاغمغات العابرين

وخطى الغريب وما تبث الريح من نغم حزين •

في ذلك الليل البهيم

الليل والسوق القديم وغمغات العابرين

والنور تعصره المصاييح الحزاني في شحوب

مثل الضباب على الطريق

في كل حافوت عتيق

بين الوجوه الشاحبات كأنه نغم يذوب •

في ذلك السوق القديم» (٣٧)

مشهد بالغ الكتابة في منظر هذا السوق الذي يحكي لنا مأساة إنسانية تكمن وراء ظواهر الأمور ، ولغة شاعرة تنطق بالحركة وتشعر بأن تغييراً ما سيحدث ، يتمثل في هذه الغمغمات العابرة التي حرمت الحرية فصار عايتها ان تهمس حتى لا يفتضح أمرها قبل أن تصل الى ما تريد ، وهذا النغم الحزين الذي تبشه الريح ، وهذا البصيص من النور الذي تعصره المصاييح الشاحبة في الطريق ، كلها نذير حدوث شيء ما • لم يعد التشبيه الحسي الراكد والاستعارة الملتكلفة هي كل ما يركض اليه بعض رواد هذا الفن • بل صور حية ناطقة يلفها احساس إنساني عميق •

ق

• أما حجج مخالفي هذه الطريقة ، فالظاهر أنهم متفقون على رأي واحد يكررونه ويلهجون به حيثما كانوا ، وعندهم أن هذا الشعر لا يمت الى التراث بصلة ، وأن اصحابه يريدون القضاء على التراث العربي والثقافة العربية ، وهم شعوبيون يحملون فكرة غريبة تشبعوا بها ودعوا اليها ، يستوردون جل بضاعتهم من أوروبا التي تريد أن تقضي على مثلنا ومقدساتنا • وأن ما جاء به المجددون لم يكن غير تعبير مائع يحمل روح

الفرجة والتخث : « وفريق احتكوا بالعرب فراخوا يتادون بالتجديد
ونبذ كل قديم واستبدال الاثواب القديمة بأثواب جديدة يستوردونها
من مصانع أوروبا ، ونحوا بالكلام الى اللفظ الرقيق والتعبير المائع
والفرجة اللغوية والبأس المعاني الغريبة بأثواب عربية مهلهلة ولو كان
في ذلك شذوذ في التعبير وركاكة الاسلوب وتحميل الالفاظ فوق طاقتها
والخروج على كثير من قواعد اللغة ومألوف العرب في الاستعمال
... » (٣٨) . وهو كلام عام غير مستند على النصوص ولا مطبق عليها ،
وأكثر الذين انتقدوا هذه الطريقة ، هم على الاغلب شعراء يسرون
على الطريقة التقليدية القديمة والذين يؤثرون هذه الاشكال على
ما سواها .

لقد وقف هؤلاء بصلابة أمام الاتجاه الجديد وراحوا يحطون من
قيمه ولا يعترفون به كشعر ، من ذلك ما قال الشاعر العراقي حافظ
جميل « ان ما قرأته في الشعر الحر غير ملتزم بالقافية الواحدة بل يجمع
عدة قواف في القصيدة الواحدة ، كما لا يلتزم بوزن واحد بل بعدة
أوزان ولا أدري كيف يصح ان نسميه شعرا ، والشعر هو ما التزام
بالتفعيلة والقافية وما شذ عنه فلا يسمى شعرا ، ولا أدري لماذا نصر على
أن نسميه شعراً ولا نسميه ثراً فليس النشر أقل درجة من الشعر في
تأدية الاغراض » (٣٩) .

(٣٨) مجلة المعلم الجديد عدد ٢ سنة ١٩٤٨ .

(٣٩) مجلة الفكر عدد ٢ سنة ١٩٥٨ .

تلك هي أهم حججهم ، الوزن والثقافية وإلا تحول الشعر الى نثر ، ويذكر آخرون ومنهم الشاعر محمود الجبوري أن جل الذين تعاطوا هذا الشعر هم من الشباب الذين يجهلون العربية نحواً وصرفاً وتركيباً ولهذا جاء شعرهم مشحوناً بالأخطاء « أظن ان السبب الذي حدا ببعض الشباب الناشئين الى مزاوله هذا اللون الجديد من الادب هو سهولة تعاطيه لأنه لا يلزمهم بسعة الاطلاع على اللغة ومفرداتها والوقوف على أصولها وقواعدها فهو مشحون بالأخطاء الفاضحة » وقد يكون في ذلك شيء من الصحة اذا نظرنا الى هذا الشعر من خلال هذا الفيض الغزير الذي تعاطاه شباب لا يعرفون من أصوله إلا هذه الحرية المطلقة فأساءوا الى الفن اساءة بالغة الأمر الذي أوجدوا ورقة رابحة بيد أعداءه .

وذهب بعض مخالفي هذا الشعر الى انه ظاهرة عابرة تزول بزوال أسبابها ولا يمكن ان تدوم على المدى البعيد ، لا تتقاء الحاجة اليها « لعل مبعث هذا الشعر هو الفوضى الاجتماعية والاضطراب النفسي الذي يأتي بعد الرجات الاجتماعية او العالمية فلا يتحمل المرء وطأة الصبر والجلاد لضعف في النفس المضطربة المقلقة وهذا سبب تراه جديراً بالبحث ، لأن أكثر شعراء المرسل من ضعاف التعبير لا يقدر على مجازاة الاقوياء ، فيزجر ويشور ، فضعيف الثقافة يشعر بالنقص اذا لم يستطع مسابقة الركب الادبي السريع » (٤٠) ومحاولة ارجاع هذه الظاهرة الى الفوضى الاجتماعية والاضطراب النفسي الذي يأتي بعد الرجات ، قد

لا يكون بعيداً عن الصواب فالنظرة الى التغيير في القيم كثيراً ما تصاحب الظواهر الانقلابية والثورات التي تريد تغيير أوضاع معتادة ضجر منها الناس ولم يعودوا يألفونها لأنهم لم يجدوا ما يغريهم بها ، فيلتجئون الى تجربة معايير جديدة تلائم الحياة المتجددة ، فالحرية التي أتاحها ظروف عصرنا الحديث أوجدت قلقاً فكرياً في كثير من البلاد النامية يصاحب فترات التحول تلك ، فينشأ من هذا كله جيل قلق ، بعضه يرى في هذا التحول صورة قائمة تقضي على المثل والمقدرات التي ألّفوها أجيالاً طويلة ، وبعضه يرى أن هذا التحول أمر حتمي تقتضيه طبيعة الحياة لكنه من ناحية أخرى محاط بكثير من العقبات التي تحد من نشاطه واندفاعه وتحاول إيقافه حيث هو .

وهذا ما نلاحظه في أدبنا الحديث خلال محاولة التغيير ، يذكر الاستاذ يوسف الخال في محاضرة له عن الادب العربي الحديث والصعوبات التي يلاقيها بعض الادباء المتحررين في هذه الفترة بالذات فيقول « فاجأنا العالم الحديث بعد الحرب الكونية الاولى ، على ان العالم الحديث لم يصبح عالمنا بالفعل إلا بزوال السلطة العثمانية عن ربوعنا ، ولكن أن يصبح العالم الحديث عالمنا أي لا يقوم بيننا وبينه حاجز لا يعني تماماً اننا أصبحنا فيه . . . هذا التناقض بين كوننا شكلاً في العالم الحديث وكوننا جوهراً خارجاً يضطربنا نحن الادباء العرب الى معاناة قضايا مجتمع قديم في عالم حديث . في التعبير عن معاناتنا الاولى نعرض أنفسنا لانتاج أدب يجده القاريء الحديث بعيداً عن

قضاياهم ومشاكلهم . وفي التعبير عن معاناتنا الثانية نعرض أنفسنا من جهة أخرى لإنتاج أدب يجده القاريء العربي مستورداً غريباً » (٤١) .

أما النقطة الثانية التي أثارها جريدة لواء الاستقلال بالنسبة للشعر الحر وأصحابه حينما وصفتهم الجريدة بضعاف التعبير الذين لا يقدرّون على مجازاة الأقوياء ، ففيه تحامل لا مبرر له ، فليس كل شعراء القصيدة التقليدية من الأقوياء الذين لا يجارون ، كما أنه ليس كل أصحاب الطريقة الجديدة من ضعاف التعبير وفاقصي الثقافة ، ففي إنتاج رواد هذا الفن ما يدل على وجود أفكار عميقة لم يعدها الشعر العراقي من قبل ، وهم فوق هذا مثقفون ثقافة عصرية ويعرفون لغة أخرى بالإضافة الى لغتهم التي اتقنوها دراسة واختصاصاً ، الأمر الذي أضفى على شعرهم صفة العمق والخلق ونفحوا الشعر لغة خاصة به يستطيع أن يجدها القاريء في أكثر آثارهم .

وأخيراً وبعد هذا كله نستطيع ان نقول : أن الصحافة هي التي احتضنت هذا الشعر ، وذلك منذ أول قصيدة قيلت فيه ، فكافت الوعاء الطبيعي لكل ما قيل فيه من آراء ، مؤيدة ومخالفة ، نظراً لما له من علاقة بالقضايا العامة والتي هي مهمة الصحافة الاولى ، وأن الباحث الذي يتناسى دورها سيكون حكمه ناقصاً الى حد بعيد .

الخلاصة

ان دراسة الظواهر الأدبية من خلال الصحافة ، أمر يقتضي دراسة الظروف التي نشأت فيها ، وما قد يلاقيه الباحث من صعوبات وهو يتعرف هذه الدوريات ، ذلك أن كثيراً من هذه الصحف اودى به الزمن بفعل الإهمال الذي أصابها ، حتى صرنا لا نعثر على مجرد ثبت يضم أسماءها ، أما البحوث التي تناولت الصحافة ، فهي على قلتها ، يغلب عليها الطابع التاريخي ، وينقصها الكثير من التمهيد ، أزاء هذا كله يضطر الباحث للاهتمام بهذه الصحف نفسها ليكون قريباً من الحوادث والظواهر التي تقع في حينها ، رغم أن هذه الدوريات لا يجمعها مكان واحد أو بلد واحد .

ولما كانت الصحافة حركة ثقافية واسعة فلا بد من التعرف على الظروف الثقافية التي سبقت ظهورها ، وقد رأينا أن العراق في القرن الماضي كان على صلة بالتيارات الثقافية الحديثة ، وأنه تأثر بالدول العربية التي سبقتة الى النهضة الحديثة كسوريا ومصر ، كما كان على صلة بعاصمة الخلافة العثمانية ، وظهر لنا من خلال هذا كله أن كثيراً من العراقيين كانوا يرسلون بانتاجهم الفكري الى هذه الأقطار ، وأن كثيراً من الصحف العربية كانت تصل الى العراق بعد النصف الثاني من القرن الماضي ، وهنا يظهر خطل الرأي القائل بانعزال العراق عن العالم

الخارجي الى الحرب العالمية الاولى . وكان بالإضافة الى هذا المصدر الثقافي الحديث ، مصدر آخر قديم ، يتمثل بما كان يجري في حلقات المساجد والجوامع من ثقافة عربية صرفة .

لقد مرت الصحافة العراقية بادوار متعددة لا يمكن فصل بعضها عن بعض لأن كثيراً من الصحفيين عاصروا أكثر من دور واحد . وأول جريدة صدرت في العراق ، هي جريدة الزوراء ، أنشأها الوالي المصلح مدحت باشا سنة ١٨٦٩ واستمرت تصدر حتى الحرب العالمية الاولى ، ولم ينشر إلا على الاعداد الاولى منها ، تغلب عليها الركافة ، حتى اننا لا نستطيع أن نفهم الكثير مما كانت تكتبه . وبعد اعلان الدستور العثماني ظهر فيض غزير من الصحف ، مات أكثرها ، لأن العراقيين لم يكونوا قد تهيئوا بعد لكل هذا العدد من الصحف ، ومن أهم الصحف التي صدرت في هذه الفترة ، جريدة الرقيب ، وجريدة صدى بابل ، ومجلة العلم ، ومجلة لغة العرب ، وقد اهتمت هذه الصحف بمعالجة القضايا العامة التي تشغل بال الرأي العام حينذاك ، وأهمها استعمال العربية في المدارس والمحاكم والمعاملات الرسمية .

وتنغمس الصحافة في السياسة ، طيلة فترة الحكم الأهلي وتغلب النزعة السياسية على كثير من الأدباء في مختلف الفنون الادبية ، لتتحول بعد ثورة تموز (يولييه) الى واجهة اعلامية لخدمة افكار معينة ، حتى ظهور ما يسمى بالمؤسسة الصحفية أخيراً .

لقد كانت الصحافة عاملاً مهماً في اشاعة كثير من الاصطلاحات

اللغوية الحديثة ، وبخاصة الصحف العربية الرائدة التي كانت تصدر في النصف الثاني من القرن الماضي ، قام بها لغويون معروفون ، اتخذوا من اللغة وسيلة لخدمة القومية العربية ابان حكم الاتراك ، لقد وجد هؤلاء اللغويون أن خير وسيلة لبعث هذه الأمة من ظلامها الذي كانت تعيش فيه طيلة قرون عديدة ، يكمن في خدمة اللغة العربية وجعلها لغة متطورة مع العصر ، تتسع لكل ما هو جديد ، وهذا ما وجدناه في جريدة الجوائب لصاحبها أحمد فارس الشدياق ومجلة الجنان لسليم وبطرس البستاني ومجلة المقتطف وغيرها من الصحف . اما في العراق فقد تحملت مجلة لغة العرب الجهد الأكبر في خدمة اللغة العربية . كما ساعدت هذه الصحف على تطوير الأساليب الكتابية ، وخلصتها من التعقيد اللغوي الذي كان شائعاً قبل ظهور الصحافة .

فالصحافة على هذا حركة ثقافية واسعة ، يحتل الأدب فيها مكان انصدارة ، رافقت نهضتنا الأدبية الحديثة منذ ظهورها ، وقامت على أكتاف الأدباء في مراحلها الاولى ، اذ يندر أن تجد أدبياً إلا وله في الصحافة انتاج يذكر ، فكانت بمثابة البوق الذي يفخم أصوات الأدباء ، وينشر أدبهم بين جماهير القراء ، فالجيل الاول من هؤلاء الادباء ، كانوا موهوبين ، يحملون فكرة جديدة عن الأدب والحياة ، ولهذا جاءت صحفهم عبارة عن لوحات فنية يغلب عليها الجانب الفني ، رفعت الجماهير الى مستوى الأدب ، وشغلت نفسها بكل ما يرتفع بالثقافة العربية ، وأولتها عنايتها ، باعتبارها وسيلة ثقافية مهمة .

ولم تدم هذه الحال ، اذ سرعان ما طغت الناحية الخبرية على ما سواها بفعل الاتصال السريع بين دول العالم المختلفة التي بدت وكأنها مجتمع واحد ، ووقوع الصحافة بين مراسيم السلطة التي أرادت توجيه الأدب الوجهة التي تريدها ، وبين الأحزاب التي أرادت هي الأخرى توجيه الأدب وجهة معينة ، فانصر هذا الجيل ليأتي جيل آخر ، تحول الأدب معه الى وسيلة من وسائل الاعلام وطغت عليه الناحية الخبرية ، وأصبح العنصر المميز لأدب هذا الجيل هو عنصر السرعة ، فلم يعد يملك الأديب وقتاً لكي يفكر فيه ، لأن المطبعة وسرعة ظهور الصحف قضت على كثير من قيم الفن والجمال ، وأثرت على الكتاب ، بعد أن عودت الناس على كل سهل ميسور ، ازاء هذا كله صار الأدباء ينظرون الى الصحافة نظرة استخفاف مما أعاد للكتاب بعض قيمته في الأيام الأخيرة .

لقد كان ظهور الصحافة ايذاً بميلاد فنون أدبية جديدة ، أهمها المقالة والقصة القصيرة ، فالصحف الرائدة كانت تشتري بناء على ما فيها من مقالات لهذا الكاتب أو ذاك ، ومع هذا فقد انغمس كتابها في الاحداث الجارية ، ولهذا غلب عليها الطابع السياسي فعالجت موضوعات ذات صلة مباشرة بحياة الجماهير كالمسألة الوطنية والوحدة العربية والدفاع عن الحريات الديمقراطية .

أما القصة فقد بدأت مترجمة كما هو الحال في مصر وسوريا ، تغلب عليها الناحية الخلقية والتعليمية وبها أثر من الحكايات العربية

التي نجدها في كتب السير . ولم تظهر القصة المؤثرة الا في بداية العقد الثالث من هذا القرن على يد رائدها محمود أحمد السيد الذي وضع الخطوط العامة للنفن القصصي في العراق ، عالجت القصة الموضوعات انعاما التي رأيناها في المقال دون الاهتمام بالناحية الفنية ، ولهذا غلب عليها الطابع الصحفي كالذي نجده في القصص التي كانت تنشرها جريدة الهاتف النخفية .

وتركت الصحافة أثرها على القصيدة العربية ، فكان الشعراء كاخوانهم من الكتاب رواة حوادث واخبار ، وصار هم الشاعر هو أن يعبر عما يجيش في صدره ، فكان أن غلب عليها الطابع السياسي ، وارتفع كثير من الشعراء لا على أساس فني ، وإنما لأنهم كانوا يملكون الجرأة لانتقاد الأوضاع السياسية المضطربة في البلاد .

ثم ظهرت حركة الشعر الحر ، فكانت الصحافة مجاله الاول ، احتضنته ، ودافعت عنه ، ولم تضن عليه بالدراسات التي قيلت فيه ، وقد ظهر من خلال هذا كله خطل الرأي الذي يذهب الى ان هذا الشعر وجد بعد الحرب العالمية الاخيرة .

المراجع

- احمد ابو سعيد - الشعر والشعراء في العراق - بيروت سنة ١٩٥٩.
- ابراهيم اليازجي - لغة الجرائد - القاهرة .
- أنور الجندي - الصحافة السياسية - القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٣ .
- أنور الجندي - المعارك الادبية - القاهرة سنة ١٩٥٠ .
- أنور الجندي - اللغة العربية بين حماتها وخصومها - القاهرة .
- ١٩٦٥
- أحمد أمين - زعماء الاصلاح في العصر الحديث القاهرة ١٩٥٠ .
- أمين الريحاني - قلب العراق - بيروت سنة ١٩٣٥ .
- أنيس صايغ - فن الصحافة - بيروت سنة ١٩٥٨ .
- ابراهيم عبده - تطور الصحافة المصرية - ط ٣ القاهرة سنة ١٩٥١ .
- ابراهيم عبده - اعلام الصحافة العربية - ط ٢ القاهرة سنة ١٩٤٨ .
- بدر شاكر - أساطير - القاهرة سنة ١٩٥٠ .
- توماس ييري - ترجمة الجابري - الصحافة اليوم - بيروت .
- سنة ١٩٦٤
- جرجي زيدان - بناء النهضة العربية - القاهرة سنة ١٩٢٤ .
- جرجي زيدان - تاريخ آداب اللغة العربية - القاهرة سنة ١٩٢٤ .
- جرجي زيدان - تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر -
- القاهرة ١٩٢٢ .

- جرجي زيدان — اللغة كائن حي — القاهرة ١٩٦٠ •
- د • داود سلوم — الادب العراقي المعاصر — بغداد — سنة ١٩٦٢ •
- رفيق المقدسي — فن الصحافة — دمشق سنة ١٩٦٤ •
- روفائيل بطي — الربيعيات — بغداد سنة ١٩٦٣ •
- روفائيل بطي — الادب العصري — بغداد سنة ١٩٦٣ •
- روفائيل بطي — الصحافة في العراق — القاهرة سنة ١٩٥٥ •
- روفائيل بطي — أمين الريحاني في العراق — بغداد •
- رسول الكركوكلي — دوحة الوزراء في تاريخ الزوراء — بغداد سنة ١٩٦٢ •
- سارتر — ترجمة جورج طرايش — الادب الملتزم — بيروت سنة ١٩٦٥ •
- سارتر — ترجمة محمد غنيمي هلال — ما الأدب ؟ — القاهرة سنة ١٩٦١ •
- سلامة موسى — الصحافة حرفة ورسالة — القاهرة ١٩٥١ •
- شكري فيصل — الصحافة الادبية — القاهرة سنة ١٩٦٠ •
- شوقي ضيف — الادب العربي المعاصر — القاهرة سنة ١٩٦١ •
- الشدياق — كنز الرغائب في مستخبات الجوائب — الاستانسة سنة ١٢٩٢ هـ •
- طه حسين — الوان — القاهرة سنة ١٩٥٢ •
- عبد الجبار البصري — بدر رائد الشعر الحر — بغداد سنة ١٩٦٦ •

- عبد الرزاق الحسني — تاريخ الوزارات العراقية — لبنان
سنة ١٩٦٥ •
- عبد الرزاق الحسني — الثورة العراقية الكبرى — لبنان
سنة ١٩٥٢ •
- عبد الرزاق الحسني — تاريخ الصحافة في العراق — بغداد ط ٢ —
سنة ١٩٥٧ •
- عبد الرزاق الحسني — العراق في دوري الاحتلال والانتداب —
لبنان ١٩٣٥ •
- عبد الله الفيض — الثورة العراقية الكبرى — بغداد سنة ١٩٦٣ •
- عبد الرحمن البزاز — العراق من الاحتلال حتى الاستقلال —
القاهرة سنة ١٩٥٤ •
- علي البزركان — الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية — بغداد
سنة ١٩٥٤ •
- د • عبد الله البستاني — حرية الصحافة في العراق — بغداد سنة
١٩٥١ •
- د • عبد اللطيف حمزة — الصحافة والادب في مصر — القاهرة
سنة ١٩٥٥ •
- د • عبد اللطيف حمزة — أدب المقالة الصحفية — القاهرة سنة
١٩٦٤ •
- د • عبد اللطيف حمزة — مستقبل الصحافة القاهرة سنة ١٩٦١ •

— د . عبد اللطيف حمزة — أزمة الضمير الصحفي — القاهرة سنة ١٩٦٠ .

— عباس محمود العقاد — المراجعات سنة ١٩٣٨ .

— فيليب دي طرزي — تاريخ الصحافة العربية — بيروت — سنة ١٩١٣ .

— فائق بطي — الصحافة العراقية ميلادها وتطورها — بغداد سنة ١٩٦١ .

— فائق بطي — صحافة العراق تاريخها وكفاح أجيالها — بغداد ١٩٦١ .

— فوستر — تكوين العراق الحديث — ترجمة عبد المسيح جويده — بغداد ط ٢ سنة ١٩٤٥ .

— لونكر — أربعة قرون من تاريخ العراق — ترجمة جعفر خياط — بغداد سنة ١٩٤١ .

— د . لطفي عبد البديع — الشعر واللغة — القاهرة ١٩٦٩ .

— د . لطفي عبد البديع — التركيب اللغوي للأدب — القاهرة ١٩٧٠ .

— لويس عوض — بلوتولاند وقصائد أخرى — القاهرة ١٩٦٧ .

— لويس عوض — الثورة والادب — القاهرة سنة ١٩٦٧ .

— مصطفى صادق الرافعي — وحي القلم — القاهرة سنة ١٩٥٤ .

— منشورات أضواء — الادب العربي المعاصر — بيروت سنة ١٩٦١ .

— محمد حسين هيكل — ثورة الأدب — القاهرة ط ٣ سنة ١٩٦٥ .

- محمود تيمور — فن القصة — القاهرة ١٩٦٤ .
- مختار الوكيل — بين الادب والصحافة — القاهرة ١٩٥٤ .
- منير بكر — الاتجاهات السياسية والثقافية والاجتماعية في الصحافة العراقية — بغداد — سنة ١٩٦٩ .
- محمد مهدي البصير — تاريخ القضية العراقية — بغداد سنة ١٩٢٤ .
- محمد طاهر العمري — تاريخ مقررات العراق السياسية — بغداد سنة ١٩٢٥ .
- محمود أحمد السيد — الطلائع — بغداد سنة ١٩٢٩ .
- نازك الملائكة — شظايا ورماد — بغداد سنة ١٩٤٩ .
- يوهان فيك — دراسات في اللغة واللهجات — ترجمة النجار — القاهرة ١٩٥١ .
- يحيى حقي — فجر القصة — القاهرة سنة ١٩٦٠ .
- د . يوسف عز الدين — الشعر العراقي الحديث — القاهرة ١٩٦٢ .

(المجلات)

بغداد سنة ١٩٦١	— الأديب العراقي
بغداد سنة ١٩٥٠	— الاتحاد النسائي
بغداد سنة ١٩٥٣	— الأخوة الإسلامية
بغداد سنة ١٩٥٨	— ١٤ تموز
بغداد سنة ١٩٥٣	— الأسبوع
بغداد سنة ١٩٥٥	— الأستاذ
بغداد سنة ١٣٤٩ هـ	— الأفكار
النجف سنة ١٩٣٥	— الاعتدال
بغداد سنة ١٩٢٨	— الأقلام
النجف سنة ١٩٤٧	— البيان
بغداد سنة ١٩٢٨	— التربية والتعليم
بغداد سنة ١٩٦٣	— التراث الشعبي
بغداد سنة ١٩٢٧	— الثقافة
بغداد سنة ١٩٥٨	— الثقافة الجديدة
الموصل سنة ١٩٤٧	— الجزيرة
بغداد سنة ١٩٢٩	— الحاصد
بغداد سنة ١٩٢١	— ديار المعلمين

- | | |
|----------------|-------------------------|
| بغداد سنة ١٩٢٢ | - الزنبقة |
| بغداد سنة ١٩٤٦ | - عالم الغد |
| بغداد سنة ١٩٢٥ | - العالم المصور |
| النجف سنة ١٩١٠ | - العلم |
| النجف سنة ١٩٣٩ | - الغري |
| بغداد سنة ١٩٥٨ | - الفكر |
| بغداد سنة ١٩٣٤ | - عطار |
| بغداد سنة ١٩٤٩ | - قرنل |
| بغداد سنة ١٩٤٧ | - الكفاح |
| بغداد سنة ١٩٥٦ | - كلية الآداب والعلوم |
| بغداد سنة ١٩١١ | - لغة العرب |
| بغداد سنة ١٩٢٣ | - ليلى |
| بغداد سنة ١٩٥٤ | - المثقف |
| بغداد سنة ١٩٣٨ | - المجلة |
| بغداد سنة ١٩٥٠ | - المجمع العلمي العراقي |
| بغداد سنة ١٩١٩ | - مرآة العراق |
| بغداد سنة ١٩٥٨ | - المعارف |
| بغداد سنة ١٩٢٥ | - المعرض |
| بغداد سنة ١٩٤٨ | - المقاصد |
| بغداد سنة ١٩٤٥ | - منبر الاثير |

بغداد سنة ١٩٣٥.	— الناشئة الاسلامية
النجف سنة ١٩٥٧	— النجف
بغداد سنة ١٩٣٥	— الوميض
لبنان سنة ١٩٥٨	— الآداب
القاهرة سنة ١٨٩١	— المقتطف
القاهرة سنة ١٩١٥	— المقتبس
بيروت سنة ١٨٩٨	— المشرق
القاهرة سنة ١٩٣٦	— الرسالة
بيروت سنة ١٨٧٥	— الجنان

(الجرائد)

بغداد سنة ١٩٢١	— مجلة
بغداد سنة ١٩٢٦	— الاخاء
بغداد سنة ١٩٣١	— الاخاء الوطني
بغداد سنة ١٩٢٦	— الاستقلال
بغداد سنة ١٩٣٠	— ضدى الاستقلال
بغداد سنة ١٩٣٠	— ضدى الوطن
بغداد سنة ١٣٢٧ هـ	— الرقيب
البصرة سنة ١٩٢٤	— شط العرب
الموصل سنة ١٩١٩	— للموصل
بغداد سنة ١٩٣٠	— البلاد
بغداد سنة ١٩٣٠	— الزمان
بغداد سنة ١٩٣٥	— صوت الاهالي
بغداد سنة ١٩٣٤	— الاهالي
بغداد سنة ١٩٤٧	— لواء الاستقلال
بغداد سنة ١٩٥٠	— الاتحاد الدستوري
بغداد سنة ١٩٢٢	— العاصمة
بغداد سنة ١٩٢٠	— العراق

بغداد سنة ١٩٢٤	— العالم العربي
بغداد سنة ١٩٣٦	— الانقلاب
بغداد سنة ١٩٢١	— لسان العرب
بغداد سنة ١٩٢٨	— التقدم
بغداد سنة ١٩٢٧	— النهضة العراقية
بغداد سنة ١٩٢١	— الناشئة الجديدة
النجف سنة ١٩٣٦	— الهاتف
بغداد سنة ١٩٥٩	— اتحاد الشعب
بغداد سنة ١٩٣٧	— الزمان للسعاني
النجف سنة ١٩٣٤	— الراعي
بغداد سنة ١٩٤٧	— اليقظة
بغداد سنة ١٩١٧	— العرب
بغداد سنة ١٩٠٩	— صدى بابل
بغداد سنة ١٨٦٩	— الزوراء
النجف سنة ١٩٢٦	— النجف
بغداد سنة ١٩٢٦	— الاخلاق
بغداد سنة ١٩٢٢	— المقييد
بغداد سنة ١٩٢٥	— السياسة
الاستانة سنة ١٨٦٣	— الجوائب
القاهرة سنة ١٩١٠	— المؤيد

Journalism is a widespread cultural movement in which literature occupies a prime position and which was built up on the shoulders of the writers in its first stages and went on hand in hand with our cultural movement as an important factor in the evolution of this cultural movement. Any researcher who wants to study our modern literature cannot overlook this important factor because it was and it will be the natural and vital origin of many cultural features that have a close connection with our life. Journalism was a revolution against many literary principles which existed years ahead and which has effected the language and caused it to hold all the modern developments that accompanied the non cultural movement. At the same time it is a vital factor in spreading many idiomatic expression and made them as common expressions and it facilitated the styles of writing and abolished all verbal tropes which all the old writers were fond of.

Journalism caused the existence of many new literary features as the essay and the novel and it helped the development of many arts as poetry though the divergence of these different arts lost many principles of arts and beauty.

The dissertation has been divided into chapters among which there are good correlations.

Part I : This part includes three chapters. The first chapter includes all the difficulties which encounter the writer while studying the periodicals because of loss of great part of these because of the carelessness. The second chapter deals with the sources of cultural movement in Iraq in the 19th century. We have seen the Iraq depended upon two

— ۳۳۳ —

chief sources the one of which is modern and it is represented in the connection between Iraq and other Arab countries which were years ahead in progress .

Though many people say that there was not any relation between Iraq and the other Arab countries till the First World War . The second source is the classical teaching which were carried on in circles in mosques . The third chapter deals with journalism in Iraq ' in its different stages with its starts on the papers issued in Turkish Empire .

Part II : This includes the effect caused by journalism especially in idiomatic expressions and studying the most important papers which brought up these expressions .

The second chapter of this chapter deals with the study of both the writer and journalism and how journalism developed by these who got new thoughts and were real revolutionists in the modern movement .

Part III : It studies the different types of literary forms in journalism in Iraq .

In the first chapter studied the article and the reasons which made the article writers in first class . The second chapter deals with the story and the story development from story translation up to story writing .

Part IV : It deals with poetry through journalism .

That is in the first chapter .

The second chapter we studied the free poetry as a new movement which built on getting rid of the rhythm and journalism is the natural environment for this art .

فهرست الكتاب

المقدمة

٥

الباب الاول

الصحافة العراقية وظروفها

- ١١ الفصل الاول : مصادر البحث
٢١ الفصل الثاني : مصادر ثقافة العراق في القرن التاسع عشر
٤٤ الفصل الثالث : تاريخ الصحافة العراقية

الباب الثاني

اللغة والاديب في الصحافة

- ٨٠ الفصل الاول : اللغة والصحافة
١٣٤ الفصل الثاني : الاديب والصحافة

الباب الثالث

الفنون الادبية في الصحافة العراقية

- ١٦١ الفصل الاول : المقال
٢١٤ الفصل الثاني : الفن القصصي

الباب الرابع

الصحافة والشعر

- ٢٣٩ الفصل الاول : التجديد في القصيدة العربية
٢٧٥ الفصل الثاني : حركة الشعر الحديث
٣٢٠ الخلاصة

٣٢٥ المراجع

٣٣١ المجالات

٣٣٣ الجرائد

٣٣٥ خلاصة بالانكليزية

ملاحظة : وقعت بعض الاخطاء المطبعية لاتخفى على القاريء الكريم

LITERATURE IN THE IRAQI JOURNALISM

By

INAD ISMAIL AL — KUBAISY PH . D

AL — NA'MAN PRINTING PRESS

NAJAF , IRAQ 1972



رقم الايداع في المكتبة الوطنية ببغداد ٢٣٠ لسنة ١٩٧٢

١٩٧٢ / ٤ / ٢٠ / ١٠٠٠

مطابع النعمان - التعريف الاشراف